



ليوتولستوي

السعادة الزوجية

بوليكوسكا

مؤلفة



ترجمة: د. سامي الدروبي

لیو تولستوی

السَّعَاةُ الرَّوْحِيَّةُ

بولىوسى كا
@ketab_n

مؤلفه

ترجمة: د. سامي الدروبي



ليوتولستوي

السَّعْيُ أَقْوَمُ الزَّوْجِ حَقِيقَةٍ

بُولِيكوس

مُطَبَّعَةٌ

الكتاب: السعادة الزوجية وبوليكوشكا/ روايتان
المؤلف: ليو تولستوي
المترجم: سامي الدروبي
عدد الصفحات: 256 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9953-582-98-6

الطبعة الأولى: 2013

جميع الحقوق محفوظة ©

الناشر:



للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم
مستر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340

مصر: القاهرة - وسط البلد - 8 شارع قصر النيل - الدور الأول - شقة 10
هاتف: 00201007332225 - 0020227738931
فاكس: 0020227738932

تونس: هاتف: 0021674407440
بريد إلكتروني: darattanweertunis@gmail.com

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

السَّعْيُ فِي الزَّوْجِيَّةِ

1859

القسم الأول

- 1 -

كنا في حداد على وفاة أمي، التي ماتت في الخريف، وكنا نقضي الشتاء وحيدات في الريف: أنا وكاتيا وصونيا.

أما كاتيا فهي صديقة المنزل من قديم الزمان، وهي المربية التي نشأنا، فكنت أحبها كثيراً، وكنت أذكرها إلى أبعد عهد تبلغه ذكرياتي، وأما صونيا فهي أختي التي تصغرني. كان شتاءً حزيناً في منزلنا القديم في بوكروفسكايا. الجو بارد، والرياح شديدة، والثلج أعلى من النوافذ. وزجاج النوافذ يغشاه الصقيع، فلا يشف عن شيء، ونحن لم نكد نخرج من المنزل طوال الشتاء. وكنا لا نزار إلا لماماً. والذين يزوروننا لا يحملون إلى منزلنا شيئاً من مرح أو فرح. فوجههم حزينه جميعاً، وهم يتكلمون بصوت خافت، كأنما يخشون أن يوقفوا أحداً من نومهم. لا يضحكون أبداً، ويتهدون ويبكون في كثير من الأحيان حين ينظرون إلينا، إليّ وإلى أختي الصغيرة صونيا خاصة، ونحن بشباب الحداد السوداء. لكان الموت لا يزال حاضراً، ولكان حزنه وهوله لا يزالان يهومان في المنزل. كانت غرفة ماما مرتجة، فكنت إذا مررت ببابها

المغلق حين أمضي الى النوم، أشعر بثقل يجثم على صدري، وأحس بشيء يجذبني الى تلك الغرفة الباردة المقفلة.

كنت حينئذ في السابعة عشرة من عمري. وكانت أمي، في سنة موتها نفسها، قد قررت أن نقيم بالمدينة لتدخلني في المجتمع. ولقد أحدث وفاة أمي في نفسي لوعة شديدة، ولكن يجب أن أعترف أنني كنت أحس عدا تلك اللوعة بشيء آخر: لقد كنت شابة وجميلة، كما يقول جميع الناس، فكان يحزنني أن أراني مضطرةً الى المكث في عزلة الريف شتاءً آخر يضيع من عمري سدىً. وقد اشتد هذا الاحساس بالقلق والعزلة والضجر في أواخر الشتاء حتى صرت لا أبارح غرفتي ولا أفتح البيانو ولا أقرأ البتة. فإذا حضتني كاتيا على أن أشغل نفسي بشيء بكيت أو أجبتها قائلة: «ما بي رغبة بهذا، أو لا أستطيع»، بينما كان في قرارة نفسي صوت يقول لي: «علام؟ علام تفعلين أي شيء إذا كانت أحسن سنّي حياتك تضيع؟ علام؟». ولم يكن عندي على هذا السؤال جواب الا الدموع.

وكان يقال لي في ذلك الأوان اني نحلت وتبشّعت، لكن ذلك ما كان يهمني. علام؟ من أجل من؟... كان يخيل إليّ أن حياتي كلها ستنقضي في هذا الركن النائي من العالم، قلقاً هذا القلق الذي لا دواء له، والذي كنت أملك وحدي قدرةً على الخلاص منه، ولا رغبة في الخلاص منه. حتى لقد خافت عليّ كاتيا في أواخر الشتاء، وقررت أن ترحل بي الى الخارج مهما يكن الثمن. ولكن الرحيل الى الخارج كان يحتاج الى مال، وكنا نحن لا ندرى ماذا بقي لنا من ميراث أمنا تقريباً. فكنا ننتظر الوصي علينا من يوم الى يوم، وكان سيجيء إلينا ليجعلنا على بيّنة ممن أمرنا.

وقد وصل في شهر آذار (مارس).

قالت لي كاتيا يوماً، بينما كنت أطوف من ركن إلى آخر كالشيخ بلا هدف وبلا فكرة وبلا رغبة:

- الحمد لله! وصل سيرغي ميخائيلوفتش، وقد أرسل يسأل عنا، وبلغنا أنه آت إلينا في العشاء.

وأضافت كاتيا تقول:

- تحركي قليلاً يا كاتيا، والا فما عسى يكون رأيه فيك؟ إنه يحبك كثيراً!
ان سيرغي ميخائيلوفتش هو أحد جيراننا القريبين وهو صديق المرحوم أبي، رغم أنه أصغر سنّاً منه. وعدا أن مجيئه يبدل مشاريعنا ويؤمّلنا في الرحيل عن الريف، فقد تعودت منذ طفولتي أن أحبه وأن أحترمه. صدق ظن كاتيا: إن سيرغي ميخائيلوفنا هو، من بين جميع من لنا بهم علاقة، الشخص الوحيد الذي لا أحب أن أظهر أمامه بمظهر غير مستحب. كان جميع من في المنزل، من كاتيا وريبتها صونيا، إلى آخر حوذي، يحبه بحكم العادة، أما في نظري أنا فكان يمثل شيئاً آخر يختلف كل الاختلاف، وذلك بسبب كلمة قالتها أمي في حضوره، إذ أفصحت عن أمنيته في أن تراني أتزوج رجلاً مثله. وقد بدا لي الأمر في ذلك الحين باعثاً على الدهشة، بل لقد صدمني صدماً. فبطلي كان يختلف عن هذا الرجل كل الاختلاف. كان بطلي نحيفاً، مشوقاً، شاحباً، حزيناً. أما سيرغي ميخائيلوفتش الذي تخطى ريعان الشباب، فقد كان مديد القامة بدين الجسم دائم المرح في ما يبدو لي. ومع ذلك كانت هذه الكلمات التي قالتها أمي لا تبارح خيالي، حتى لقد كنت، قبل ست سنين، وأنا في الحادية عشرة من عمري، حين كان يخاطبني

بصيغة المفرد، ويلعب معي، ويلقبني بلقب «البت البنفسجة»، كنت أتساءل بشيء من الخوف ما عساني أفعل إذا هو رغب فجأة في أن يتزوجني!

وصل قبل موعد العشاء (الذي أضافت إليه كاتيا حلوى بالقشدة وسبانخ بالمرق). وقد رأيته من النافذة مقبلاً نحو المنزل في زلاجة صغيرة، ولكن ما إن انعطف عند ركن الشارع حتى هرعت الى الصالون لأتظاهر بالمفاجأة. غير أنني حين سمعت صوته الرنان ووقع خطوات كاتيا في الصالون لم أطق صبراً فهرعت الى لقائه. كان ممسكاً يد كاتيا، ويتسم بصوت قوي. فلما رأيته صمت وتأملني لحظة من دون أن يحييني. فشعرت بحرج، وأحسست بالحمرة تصبغ وجهي.

قال بلهجة بسيطة جازمة وهو يواعد ذراعيه ويقبل عليّ:

- آ... هل يعقل أن تكوني أنت؟ هل يجوز للإنسان أن يتغير هذا التغير؟ ما أكثر ما كبرت! بنفسجة حقاً! أصبحت وردة حقاً!

ويده الضخمة، شدّ علي يدي شداً فيه مودة، ولكن فيه من القوة ما كاد يؤلمني. وحسبت أنه يهم أن يقبل يدي، فاقتربت منه، لكنه اكتفى بأن ضغط أصابعي وحدّق الى عينيّ بنظرته الحازمة الفرحة.

لم أكن قد رأيته منذ ست سنين. لقد تغير وشاخ، واسودّ جلده، وصار له عارضان لا يناسبان وجه البتة. ولكن سيرغي ميخائيلوفتش لا يزال يحتفظ ببساطة حركاته، ولا يزال يحتفظ بوجهه الطلق ذي القسمات الضخمة قليلاً، والعينين المتقدتين ذكاءً، والابتسامة الدمثة التي تكاد تكون ابتسامة طفل.

وما انقضت دقائق خمس حتى أصبحنا لا نعدّه زائراً، وإنما نعدّه

واحداً منا. فكذلك كان شعورنا جميعاً، بل كذلك كان شعور الخدم أيضاً. فلقد كان واضحاً من طريقته في خدمته أنهم مبتهجون بمجيئه أعظم الابتهاج.

لم يتصرف كما يتصرف أولئك الجيران الذي كانوا إذا زارونا بعد موت ماما يعتقدون بأنهم مضطرون إلى التزام الصمت وذرف الدموع. بالعكس: كان متدفق الكلام، شديد المرح، لم يشر الى وفاة ماما بكلمة واحدة، حتى إن قلة الاكتراث هذه قد بدت لي في أول الأمر مستغربة لا يليق أن تصدر عن صديق حميم مثله. لكنني أدركت بعد ذلك أن سلوكه هذا لم يكن قلة اكتراث بل كان صراحة، فكنت ممتنة شاكرة. وفي المساء جلست كاتيا في مكانها القديم من الصالون لتقديم الشاي، وهو المكان الذي كانت تجلس فيه أثناء حياة ماما. وجلسنا أنا وصونيا بقربها. وجاء غريغوار العجوز الى سرغي ميخائيلوفتش بغليون بابا القديم، بعد أن بحث عنه واهتدى إليه لهذه المناسبة، وأخذ صديقنا يذرع الغرفة على عهدنا به في الماضي.

قال وهو يتوقف عن سيره:

- ما أكثر ما حدث في المنزل من تغيرات هائلة إذا فكر الإنسان في الأمر!
فقالت كاتيا متنهدة وهي تعيد الى السماور غطاءه:

- نعم!

ونظرت الى ضيفنا وهمت أن تبكي!

واستأنف سرغي ميخائيلوفتش كلامه متجهاً إليّ:

- أظن أنك تذكرين أباك؟

فأجبت:

- قليلاً جداً.

فهمهم يقول وهو ينظر إليّ شارد القلب، ويسرّح طرفه في ما فوق عينيّ:

- ما كان أعظمه من خير أن يكون الآن حياً يعيش معكم.

ثم أضاف يقول بصوت أخفت أيضاً:

- لقد كنت أحب أباك حباً عظيماً.

وخيل إليّ أن عينيّه التمعتا مزيداً من الالتماع.

قالت كاتيا:

- وها قد حرمتنا الله منها هي أيضاً!

ثم سرعان ما وضعت المنشفة على غلاية الشاي، لتخرج مندبلها وتنفجر باكياً. فعاد سرغي ميخائيلوفتش يقول وهو يشيح وجهه:

- نعم! يا لها من تغيرات رهيبة تلك التي حدثت في هذا المنزل!

وأردف يقول بعد صمت قصير:

- صونيا، أريني لعبك!

وخرج.

فلما غاب نظرت الى كاتيا بعينين تفيضان بالدموع. فقالت كاتيا:

- ياله من صديق رائع!

والحق أنني أحسست من عطف هذا الرجل الطيب بأنني أسترده حرارة روحي ورباطة جأشي.

وكانت تصل إلينا من الصالون زقزقات صونيا وجلبة سرغي ميخائيلوفتش في ملاعبتها. وأمرت بأن يحمل إليه الشاي. وسمعناه يجلس إلى البيانو وينقر على مفاتيحه بأصابعات صونيا. ثم دوى صوته منادياً:

- ماريّا الكسندروفنا! تعالي الى هنا! اعزفي لنا شيئاً!
لقد سرّني كثيراً أن أعاملَ بمثل هذه السلطة التي تملأها المودة
والصداقة. ونهضت الحق به.

قال وهو يفتح دفترأ يضم معزوفات لبيتهوفن، مشيراً إلى لحن
«التمهل» من سونانة «شبه فانتازيا»:

- اعزفي لنا هذا!

وأضاف:

- فلنر كيف تعزفين!

ونأى الى ركن من الصالون حاملاً بيده قدح الشاي.
لا أدري لماذا عرفت أنني معه لا أستطيع أن أرفض، ولا أن أمهد
للعزف بكلام عن ضعفي في العزف. فما هي إلا لحظة حتى جلست
الى البيانو طائعة، وأخذت أعزف كما أستطيع أن أعزف، على تهيبي
حكمه وخوفي من رأيه، لأنني كنت أعرف أنه يهوى الموسيقى وأنه
في شؤونها عليم. ولقد كان اللحن المتمهل يناسب ما كنت فيه من
حالة استيقاظ الذكريات على أثر الحديث الذي جرى بيننا منذ هنيهة.
وأظن أن عزفي لم يكن سيئاً. ولكنه لم يدع لي أن أعزف اللحن السريع
(الشيرزو). وانما قال وهو يقترب مني:

- لا، هذا لن تجيدي عزفه. فاتركيه. أما في القسم الأول فقد عزفت
عزفاً لا بأس به. يبدو أنك تفهمين الموسيقى.

أبهجني هذا الثناء المعتدل بهجة عظيمة، حتى لقد تخضب وجهي
بحمرة شديدة. إنه لشيء جديد عليّ وممتع لي أن أرى صديقاً في منزلة

أبي يكلمني بمثل هذا الجد فرداً لفرد لا رجلاً لطفل كما كان يفعل من قبل. وكانت كاتيا قد صعدت بصونيا لترقدها في فراشها، فبقينا نحن الاثنين في الصالون.

حدثني عن أبي، فذكر لي كيف انعقدت بينهما أواصر الصداقة، ووصف لي الحياة السعيدة التي عرفها في الماضي حين كنت لا أزال مشغولة بكتبي ولعبي. فبدأ لي أبي في قصصه، لأول مرة، انساناً بسيطاً جذاباً، كما لم أكن أعرفه حتى ذلك الحين. وسألني سرغي ميخائيلوفتش أيضاً عن ميولي، وعمّا أقرأ، وعن كل ما أنتوي أن أفعل، وأسدى إليّ بنصائح. فأصبحت لا أرى فيه النديم المرح والمزاح الفكه الذي كان يغيظني ويخترع لي ألعاباً، وإنما أرى فيه رجلاً رصيناً بسيطاً ودوداً أضمر له الاحترام والمحبة من تلقاء نفسي بلا تصنع. وصرت إذا كلمته أحسّ بسهولة وأشعر بمسرة، ولكنني أحس رغم إرادتي بنوع من التوتر، حتى لأرتعش لكل كلمة أقولها، إذ كنت أرغب رغبة قوية في أن أستحق بنفسني هذه العاطفة التي لا يهبها لي إلا لأنني ابنة أبي.

وعادت إلينا كاتيا بعد أن أرقدت صونيا، فشكت الى سرغي ميخائيلوفتش ما كنت أعانيه من خدر الإحساس وخمول العاطفة، وذلك ما لم أحدثه عنه أنا بكلمة واحدة. فقال مبتسماً، وهو يهز رأسه لاثماً:

- أخفت عني الشيء الأساسي.

فقلت أجيبه:

- ما عسى يمكنكني أن أقول؟ ذلك كله يبعث على الضجر، ولسوف يزول وينقضي على كل حال.

(والحق أنني كنت قد أحسست منذ ذلك الحين بأن قلقي زال

وانقضى، بل أحسست بأنه ما وجد في يوم من الأيام).

قال سرغي ميخائيلوفتش:

- ليس حسناً أن لا يعرف المرء كيف يتحمل العزلة. أنت فتاة في مستقبل

العمر؟

فقلت ضاحكة: طبعاً!

- بل أنت إنسانة سيئة لا تحيا إلا إذا أحيطت بالإعجاب. فمتى رأيت

نفسك وحيدة استسلمت لأفكار سود، فإذا أنت لا ترضين عن شيء لأنك

تريدين كل شيء للظهور ولا تبغين لنفسك أنت شيئاً.

قلت لأقول شيئاً ما:

- ما أجمل ما تراه في من رأي!

فقال بعد صمت:

- لا، ليس عبثاً أنك تشبهين أباك. هناك ما يسوّغ هذا الشبه.

ورمقني بنظرة طيبة متفوّسة أثارت رضاي عن نفسي مرة أخرى،

وأحدثت لي شعوراً لذيذاً بالحرص.

وفي تلك اللحظة إنما رأيت، وراء قسماته التي تبدو فرحة من النظرة

الأولى، رأيت تلك النظرة التي ليس لغيرها مثلها، وهي نظرة مضيئة في

البداية لكنها ما تنفك تزداد انتباهاً وحزناً.

قال:

- لا يجب عليك ولا يجوز لك أن تسألي. عندك الموسيقى وأنت

تفهمينها، وعندك الكتب والدراسة، وأمامك حياة كاملة تستطيعين أن تأخذي

في الاستعداد لها حتى لا تصيبك ندامة أو حسرة من بعد. فإذا انقضت سنة

وأنت على هذه الحال فات الأوان.

كان يكلمني كما يمكن أن يفعل أب أو عم، وأحسست بأنه يراقب نفسه حتى يبقى في مستواي لا يتعداه، فكان يضايقني أن أراه يعاملني معاملة من هي دونه مستوى، ولكن كان يرضيني في الوقت نفسه أن أراه يبدل مظهره في سبيلي أنا وحدي.

وقضى بقية السهرة يناقش كاتيا في شؤون المال، حتى إذا أراد أن ينصرف دنا مني وأمسك يدي، وقال:

- والآن أستودعك الله!

فسألته كاتيا:

- متى نلتقي مرة أخرى؟

فأجاب سرغي ميخائيلوفتش وكان لا يزال ممسكاً يدي:

- في الربيع. الآن أمضي الى دانيلوفكا (هي أرض أخرى من أملاكنا)،

فأعرف ما أريد أن أعرفه، وأرتب ما أستطيع أن أرتبه، ويعد ذلك يجب عليّ أن أسافر الى موسكو لأعمالي الشخصية. فإذا جاء الصيف كان في وسعنا أن نلتقي كثيراً.

قلت بحزن شديد:

- لماذا تركنا مدة طويلة هذا الطول كله؟

ذلك أنني كنت قد أملت أن أراه كل يوم بعد الآن. فلما تصورت أن

قلقي وسأمي سيعاودانني متى غاب، شعرت بخشية شديدة وحزن قوي على حين فجأة. ولا شك أن ما شعرت به قد تجلّى في نظرتي وظهر في صوتي، فقال لي بلهجة فاترة مسرفة في الفتور:

- عليك أن تشغلي نفسك بشيء، وأن لا تنقاد للضجر.

وأضاف يقول وهو يترك يدي ولا ينظر إليّ:

- سوف أمتحنك في الربيع.

وكنّا وصلنا الى حجرة المدخل، فأسرع يلبس معطفه، وتفرس فيّ مرة أخرى. قلت أحدث نفسي: «عشاً يحاول. أیظن أنه يسرني إذا هو نظر اليّ؟ إنه رجل طيب، طيب جداً، ولكن هذا كل شيء».

ومع ذلك أرقنا في تلك الليلة مدة طويلة أنا وكاتيا، وتكلمنا، لكننا لم نتكلم عن سرغي ميخائيلوفتش، بل عن الصيف كيف نقضيه، وعن الشتاء التالي أين نكون فيه؟ وأصبح ذلك السؤال الرهيب: «علام؟» لا يخطر ببالي، وأصبح يبدو لي أمراً بسيطاً جداً وبديهياً جداً أن أحيا لأكون سعيدة، وأصبح يتراءى لي في المستقبل كثير من السعادة. لكن منزلنا المظلم القديم في بوكروفسكويّا قد امتلا حياة وضياء على حين فجأة.

- 2 -

جاء الربيع. انقضى حزني، وحل محله استسلام لأحلام الربيع، ونسوع من حنين زاخر بآمال ورغبات، رغم أنني أصبحت لا أحيا كما كنت أحيا في أول الشتاء، لأنني أعنى الآن بصونيا، وأعزف على البيانو، وأقرأ. كان يتفق لي في أحيان كثيرة أن أعزل في الحديقة، فأظل أطوف بين معرات الأشجار لحظات طوالاً، أو أبقي جالسة على دكة. والله وحده يعلم ما الذي كنت أسترسل فيه من أفكار أو رغبات أو آمال. وكنت في بعض الأحيان، حين يكون القمر بديراً على وجه الخصوص، أبقي ليالي بكاملها جالسة الى نافذة غرفتي حتى الصباح، أو أخرج الى الحديقة بغير علم كاتباً لابسة قميص النوم وحده، فأركض على العشب المخضّل بالندى حتى أصل الى الغدير، بل لقد اتفق لي ذات مرة أن مضيت الى الحقل، ودرت حول الحديقة العامة وحيدة في الليل.

يصعب عليّ اليوم أن أتذكر وأن أفهم الأحلام التي كانت تغذي خيالي. وهبني تذكرتها فإنني لا أستطيع أن أصدق أن أحلامي كان لها

ذلك المظهر، فهي تبدو لي غريبة أشد الغرابة، وتبدو لي خارجة عن الحياة أبعد الخروج.

وعاد سرجي ميخائيلوفتش من أسفاره في آخر شهر أيار، كما وعدني بذلك.

وزارنا أول زيارة في المساء، بينما نحن لا نتوقع وصوله البتة. كنا جالسات على الشرفة نتهياً للشاي. الحديقة اخضرت اخضراراً شديداً، وفي الرياض المزهرة اتخذت العنادل مقرها. وأشجار الليلك الكثيفة تبدو مرشوشة بلون أبيض ولون بنفسجي. والأزهار توشك أن تفتح. وفي ممر أشجار البتول تبدو الأوراق شفافة عند غروب الشمس. وعلى الشرفة تسود طراوة الظل. وأنداء المساء القوية تستعد للسقوط على العشب الأخضر. ومن فناء المنزل وراء الحديقة كانت تصل إلى أسماعنا أواخر ضججات النهار، ويصل إليها وقع أقدام المواشي عائدة من مراعيها. وكان نيكون المجدوب يطوف بيرميل ماء أمام الشرفة في ممر الأشجار الصغير، فكان خبط نحيل من ماء بارد ينبع من هذه المرشة على الأرض المقلوبة حول الأشجار في رسم دوائر سوداً. وعلى مائدة الشرفة التي فرش عليها غطاء نظيف، كان يلتصع السماور المجلو الذي يغلي ماؤه، وسط آنية فيها قشدة، وبسكويت، وفطائر. وكانت كاتيا تشطف الفناجين بيديها الربلتين. وكنت جائعة بعد الاستحمام فكنت ألتهم شريحة من خبز دهنتها بطبقة سميكة من قشدة. وقد عقدت مندبلاً على شعري المبتل. وكنت ألبس بلوزة من نسيج رقيق، قصيرة الكمين. أبصرته كاتيا من النافذة قبل أن نبصره نحن، فهتفت تقول:

- آ... سرجي ميخائيلوفتش! كنا نتكلم عنك منذ لحظة واحدة.

ونهضت لأمضي أبدل ثيابي، ولكن سرجي ميخائيلوفتش دخل الشرفة لحظة كنت أقطع العتبة. فقال وهو يتسم لمراى رأسي المعصوب بمنديل:

- أكلفة واحتفال ونحن في البرية؟ أنتحرّجين من جريجوار؟ ... هل أنا بالنسبة إليك إلا جريجواراً آخر؟

وفي تلك اللحظة بعينها بدا لي أنه كان لا ينظر إليّ كما كان يمكن أن ينظر إليّ جريجوار، فشعرت من ذلك بارتباك.

قلت وأنا أبتعد:

- سأرجع حالاً.

فصاح يسأل:

- ما مأخذك على هذه الثياب؟ إنك تشبهين بها فلاحه فتيه!

قلت أحدث نفسي وأنا أبدل ملابسني في غرفتي بسرعة: «ما كان أغرب نظرتي إليّ! الحمد لله على أنه جاء أخيراً، فلن نضجر بعد الآن!». ونظرت الى نفسي في المرأة، ثم هبطت الدرج راكضة ركضاً سريعاً، لاهثة لهاثاً شديداً، من دون أن أخفي تعجّلي، ورجعت الى الشرفة.. كان سرجي ميخائيلوفتش جالساً أمام المائدة يكلم كاتيا عن شؤوننا المالية. فلما رأيته ابتسم، ولكنه لم يتوقف عن الكلام. كان في رأيه أن أمورنا المالية على خير حال. وإنما ينبغي لنا أن نقضي الصيف في الريف، ثم نستطيع بعد ذلك أن نسافر الى بطرسبرغ لدراسة صونيا، أو أن نسافر الى الخارج.

قالت كاتيا:

- ليتك تستطيع أن تصحبنا الى الخارج. فإننا إذا كنا وحدنا، نضيع هناك
كما يضيع المرء في غابة.

أجاب سرجي ميخائيلوفتش يقول نصف جادٍ ونصف هازل:

- آ... ما أعظم ما يكون فرحي بأن أدور حول العالم معكن...
هتفت أقول:

- لا بأس... فلندر حول العالم!

- وأمي؟... والأعمال؟ دعينا من هذا على كل حال، وحدثيني كيف
قضيت وقتك؟ هل ألمَّ بك الضجر أيضاً؟

فلما ذكرت له أنني، أثناء غيابه، قد أكبيت على العمل ولم أشعر
بسأم، وهذا ما أسرعت تؤكد كاتيا، أثنى عليّ بالكلام والنظرة، كأنني
طفلة، وكأن من حقه أن يعاملني معاملة طفلة. وقد رأيت أن عليّ أن
أحدثه بتفصيل دقيق وصراحة كاملة، عن كل ما عملته من أشياء جيدة،
وأن أعترف له أيضاً بكل ما قد لا يرضى عنه. وكانت العشية جميلة
رائعة، فلم نقم حين انتهت فترة الشاي، بل بقينا جالسين على الشرفة،
وبدا لي الحديث شائقاً جداً فلم أتنبه الى الصمت الذي كان يتكاثر
حولنا ويطبق علينا. وكان أريج الأزهار يزداد حلاوة فتزداد سكرأ،
وكان الندى يتلألأ على العشب، وغير بعيد منا غنى عندليب على أجمة
من أشجار الليلك، ثم صمت لسماعه ضجة أصواتنا، وكانت السماء
الزاهية بالنجوم تبدو كأنها هبطت إلينا.

ولم ألاحظ أن الليل قد أحرق بنا إلا حين غار وطواط تحت طنف
الشرفة بغير ضجة، وتخبط حول مندبلي الأبيض، فاستندت الى
الحائط أهم أن أصرخ، ولكن الوطواط غاب ثانية في ظلام الحديقة
صامتاً سريعاً.

فقال سرجي ميخائيلوفتش مقاطعاً نفسه:

- كم أحب قريبتكم بوكروفسكويًا هذه! إنني أستطيع أن أبقى جالساً على هذه الشرفة حياتي كلها.

قالت كاتيا:

- فما يمنعك أن تبقى؟

وعاد يتكلم فقال:

- نعم، أن أبقى. الحياة لا «تبقى».

سألته كاتيا:

- لماذا لا تتزوج؟ لو تزوجت لكنت زوجاً كاملاً.

فقال متضحكاً:

- لأنني أحب أن «أبقى قاعداً». لا، يا كاترين كارلوفنا، لا أنا ولا أنت نصلح الآن للزواج. منذ مدة طويلة أصبح الناس لا يرون أنني رجل يصلح لأن يتزوج، وقد عدلت أنا عن الزواج منذ مدة أطول أيضاً، وأؤكد لك أنني من ذلك في صحة أحسن وعافية أكمل. بدلي أنه يتكلم بمرح مصطنع.

قالت كاتيا:

- دعك من هذا الكلام! أنكف عن الحياة وأنت في السادسة والثلاثين من عمرك؟

وتابع سرجي ميخائيلوفتش كلامه فقال:

- طبعاً. لا أتمنى الآن إلا أن «أبقى جالساً». أما الزواج فيتطلب شيئاً آخر. أسألها هي (أشار إلي). إنها المرشحة للزواج. أما نحن فلا يكاد يحق لنا إلا أن نبتهج بسعادتها.

أدركت في صوته نوعاً من حزن خبيء، ونوعاً من جفاء لم يخف عني. ولبث صامتاً لحظة. ولم نقل أنا وكاتيا شيئاً. وأردف سرجي ميخائيلوفتش يقول وهو يدور على كرسيه:

- تخيل لي مثلاً أنني ارتكبت خطأ غريباً فادحاً فتزوجت فتاةً عمرها سبعة عشر ربيعاً هي ماش... ماريا الكسندروفنا. هذا مثال كامل، يسرني أن أقع عليه. هذا خير مثال ممكن.

أخذت أضحك من دون أن أفهم ما الذي يسره هذا السرور كله، وماذا كان يريد أن يقول.

قال لي مازحاً:

- اعترفي وأنت تضعين يدك على قلبك: ألا يكون بلاء لك أن تربطي حياتك بحياة شيخ سنم الحياة ولا يريد إلا أن «يبقى قاعداً»، على حين أن الله وحده يعلم ماذا يختمر في نفسك وماذا تشتهين وتتمنين.

شعرت بحرج، وصمت لا أدري بماذا أجيب.

فأضاف يقول ضاحكاً:

- لست أصارحك بحب، ولكن قل لي لي صادقة: هل بزواج مثلي تحلمين حين تتزهيين في ممر الأشجار وحدك عند طلوع الصباح؟ ألا يكون مثل هذا الزواج شقاء لك؟

بدأت أقول:

- ليس شقاء...

فبادر يتم جملتي فقال:

- ولكنه ليس سعادة...

- قد أكون مخطئة...

فقاطعني مرة أخرى قائلاً:

- أرايت؟ وهي على حق تماماً، وإني لأشكر لها صراحتها، وإني لسعيد جداً بأن هذا الحديث جرى بيننا.

ثم أضاف يقول:

- بل إني لأذهب الى أبعد من ذلك فأقول: إن زواجاً كهذا الزواج يكون شفاء كبيراً لي أنا نفسي.

قالت كاتيا:

- ما أغرب أمرك! إنك لم تتغير.

وغادرت الشرفة لتصدر أوامرها بإعداد العشاء.

لم نقل بعد مغادرتها الشرفة كلمة واحدة، وكان كل شيء حولنا صمتاً. العندليب وحده أخذ يغرد، لا كما غرّد في الليلة البارحة تغريداً متقطعاً متردداً، وإنما غرّد تغريده الجميل الذي يطلقه في الليل متصلاً هادئاً بغير تعجل. وانتشرت ألحانه في الحديقة، فأجابه عندليب آخر كان بعيداً في الوادي تحت، أول مرة في هذا الفصل. فأما الذي كان أقرب إلينا فقد صمت لحظة كأنما ليحسن الإصغاء، ثم استأنف زغرداته بمزيد من الحماسة، فكان صوتاهما يترجعان في عالمهما الليلي الموصد دوننا، ترجعاً هادئاً رائعاً. ومرّ البستاني عائداً الى المزرعة التي يقيم فيها، وغاب وقع قدميه الثقيل في الطريق الضيق. وعند سفح التلة صفر أحد الناس صفيراً حاداً مرتين، ثم عاد كل شيء صامتاً. وسمع لأوراق الأشجار حفيف خفيف، وارتعش قماش الطنف، وحمل النسيم الى الشرفة شذى بقي فيها. وكنت أحس بحرج من التزام الصمت بعد الذي قيل، ولكنني لا أعرف كيف أقطع هذا

الصمت. نظرت الى سرجي ميخائيلوفتش، فرأيت في شبه الظلمة أن عينيه الساطعتين تحدقان اليّ.

- الحياة حلوة!

فتنهدت لا أدري لماذا!

قال:

- ماذا؟

فكررت كلامه:

- الحياة حلوة.

وصمتنا مرة أخرى، وشعرت بارتباك من جديد. لم ييارح خيالي أنني أَلَمته اذ سلّمت بأنه أكبر سناً من أن يصلح لي زوجاً، فأردت أن أواسيه وأن أعزّيه ولكن لم أعرف كيف السبيل الى ذلك.

قال وهو ينهض:

- آن الاوان، استودعك الله. أمي تنتظرني على العشاء. ما كدت أراها طوال اليوم.

- ولكنني كنت أريد أن أعزف لك سونانة جديدة!

قال ببرود في ما بدا لي:

- في مرة أخرى!

- استودعك الله!

لاح لي، أكثر من أي وقت مضى، أنني أَلَمته، فشعرت من ذلك بأسف وحسرة. وشيعناه أنا وكاتيا الى درجات الباب، ولبثنا في الحوش لحظة ننظر الى الطريق التي أخذ يتعد فيها. حتى إذا غاب عن أسماعنا وقع حوافر الحصان الذي كان يركبه، رجعت الى الشرفة، وعدت أسرّح

بصري في البستان. فكننت في ضباب الندى، حيث سكنت ضجبات الليل، ما أزال أرى وأسمع، خلال مدة طويلة، ما كنت أحب أن أرى وأن أسمع.

عاد إلينا سرجي ميخائيلوفتش مرة ثانية فثالثة، وزال الحرج الذي خلّفه ذلك الحديث الغريب زوالاً تاماً ثم لم يتجدد أبداً. وظل سرجي ميخائيلوفتش يزورنا مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع طوال الصيف. فبلغت من تعودتي عليه وألفتي له أنني صرت أحس بضيق إذا طال غيابه عنا. وكان يعاملني معاملة رفيقة شابة غالية، ويسألني ويحضني على صراحة كاملة، ويسدي إليّ نصائح، ويشجعني، وقد يؤاخذني أحياناً أو يحذرني. وأدركت رغم الجهد المستمر الذي كان يبذله من أجل أن يبقى في مستواي لا يتعداه، أدركت أن في نفسه عالماً بأسره لا يرى حاجة إلى إدخاله فيه. فكان ذلك يقوّي ما أضمر له من احترام، ويجذبني إليه مزيداً من الجذب. وعلمت من كاتيا ومن بعض الجيران أنه عدا أمه العجوز التي كانت تعيش معه وكان يحيطها بأنواع المداواة والمراعاة، وعدا أعماله الخاصة ووصايته علينا، كان يتولى إدارة النبالة في المقاطعة، فيلقى في هذا العمل مصاعب ضخمة. أما عن رأيه في المسألة، وأما عن مشاريعه في المستقبل، وأما عن اقتناعاته وآماله، فإنني لم أستطع أن أعرف شيئاً في يوم من الأيام. فما أن أذكر شيئاً عن أعماله، حتى يبرطم برطمة خاصة به، كأنما هو يقول لي: «أرجوك، ما شأنك أنت وهذا؟»، ثم إذا هو يوجه الحديث إلى موضوع آخر. وقد ساءني ذلك في أول الأمر، لكنني ما لبثت أن وجدت أن من الطبيعي جداً أن لا يتكلم إلا في الشؤون التي تتصل بي أنا.

أمر آخر ساءني في البداية وحلالي بعد ذلك، هو قلة اكترائه بمظهري الجسمي، حتى ليكاد يزدرى المظهر الجسمي ازدراء. فلا بنظرة من نظراته، ولا بكلمة من كلماته، أفهمني في يوم من الأيام أنني جميلة، حتى لقد كان يبرطم أو يضحك إذا قبل لي بحضوره أنني جميلة، بل كان يحب أن يجد في عيوباً وكان يحب أن يغيظني. أما أنواع التزين وتسريح الشعر التي كانت كاتيا تحب أن تجعلني بها في المناسبات الكبرى فكانت لا تثير فيه إلا السخرية والتهكم والاستهزاء، فكان ذلك يحزن مريتي الطيبة الشهمة، كما أنه حيرني في أول الأمر. إن كاتيا، وقد قطعت بينها وبين نفسها بأني أعجب سرجي ميخائيلوفتش، لم تستطع أن تفهم كيف لا يحب الرجل أن يرى المرأة الغالية على نفسه في أحلى زينة. أما أنا فسرعان ما أدركت ما كان يريد. كانت تضطرم في نفسه رغبة قوية في أن يؤمن بأني مبرأة من كل ميل إلى الغندرة. فما أن أدركت ذلك حتى لم يبق بي أثر من آثار الغندرة، لا في ثيابي ولا في تسريحات شعري ولا في سلوكي. حتى لقد أسرفت في البساطة في مرحلة من العمر لم أكن قادرة على البساطة بعد. وكنت أعلم أنه يحبني، ولكنني لم أكن قد تساءلت بعد أهو يحبني كما تحب طفلة أم كما تحب امرأة.

كنت أقدر هذا التعلق بي، وأشعر بأنه يرى أنني خير فتاة على وجه الأرض، فكان كل ما أتمناه هو أن تدوم هذه الخديعة. وعلى غير إرادة مني كنت أغشه. لكنني كنت وأنا أغشه، أنحس. أصبحت أفلح في التعبير عن الجوانب الجميلة من نفسي، لا من جسمي، تعبيراً أنتم وأصدق، بوقار أكبر وكرامة أعظم. بدا لي أن يدي ووجهي وحتى

عاداتي - سواء أكانت حسنة أم سيئة - قد قدرها هو منذ النظرة الأولى وصار يعرفها، فلا أستطيع أن أضيف الى مظهري الخارجي أي شيء إلا ويكون خداعاً. أما نفسي فهو يجهلها. ولأنه يحبها، ولأنها كانت في ذلك الأوان تتفتح وتنمو، فقد كان في إمكانني أن أغشه في أمرها. ولم أحرم نفسي من ذلك. ما أعظم ما صارت علاقتنا سهلة منذ أدركت تلك الحقيقة! اختفى ذلك الحرج الذي لا داعي اليه، وانقضى ذلك الارتباك في حركاتي انقضاء تاماً. كنت أعلم أنه يعرفني كلي سواء أراني من أمام أم أراني من جانب، سواء أراني جالسة أم أراني واقفة، سواء أكان شعري مرفوعاً أم كان شعري مسبلاً متموجاً، وكان يبدو لي أنه راض عني معجب بي، كيفما كنت. أظن أنني ما كنت لأشعر بأي فرح لو خالف عاداته مرةً فقال لي، كما كان يفعل الآخرون، إن وجهي جميل. ولكن ما أعظم ما كنت أشعر به من بهجة حين أبدي ملاحظة أو أعبّر عن فكرة، فاذا هو ينظر إليّ ويقول لي بصوت متأثر يريد أن يضيف عليه طابع الهزل والمزاح:

- نعم، نعم، «هناك ما يسوّغ». انك لفنّانة رائعة. وإني لحريص على أن أقول لك ذلك.

ولماذا كنت أنال تلك المكافآت التي كانت تملأ قلبي اعتزازاً وفرحاً؟ لأنني أزعّم مثلاً أنني أفهم حب جريجوار العجوز لابنته الصغيرة، أو لأنني أتأثر الى حد الدموع بأبيات من الشعر أو برواية من الروايات، أو لأنني أفضل موتسارت على شوليهوف. وكنت أستغرب أنا نفسي تلك الغريزة الخارقة التي كانت تتيح لي أن أدرك ما هو حسن، وأن أحب ما يجب أن أحب، على حين أنني كنت أجهل كل الجهل ما

هو حسن وما هو جدير بالاهتمام. كان جل عاداتي القديمة لا يرضيه، فكان يكفي أن يدلني بحركة من حاجبه، أو بنظرة من عينيه، أو بمط شفتيه مطاً يدل على شيء من الاشمئزاز، معبراً بذلك عن أنه لا يؤيد ما سوف أقول، كان يكفي هذا حتى يبدو لي فعلاً أن ما كنت أحبه قد أصبح لا يعجبني. وكان يتفق في بعض الأحيان أن يهّم بابداء ملاحظة من الملاحظات، فلماذا أنا أعرف ما سيقوله من قبل أن يقوله. وكان حسبه أن يلقي عليّ سؤالاً وأن ينظر الى عينيّ، فاذا بنظرته توقظ في نفسي الفكرة التي يتوقعها هي نفسها. جميع أفكارى وجميع عواطفى حينذاك لم تكن أفكارى أنا وعواطفى أنا، وإنما هي أفكاره وعواطفه التي صارت أفكارى وعواطفى على حين فجأة، ونفذت الى حياتي فأضاءتها. ومن دون أن أشعر أصبحت أرى جميع الأمور رؤية جديدة، سواء أكانت تتصل بكاتيا، أم بخدمنا، أم بصونيا، أم بي وبمشاعلي. الكتب التي كنت حتى ذلك الحين لا أقرأها إلا دفعاً للضجر ومنعاً للسام أصبحت فرحاً من أكبر أفراح حياتي، لا شيء إلا لأننا تبادلنا بعض الأحاديث عن الكتب، أو قرأناها معاً، أو جاءني ببعضها. قبل ذلك كانت الدروس التي أعطيها لصونيا التزاماً ثقيلاً ومهمة شاقة أقوم بها مضطرةً وأتولاها شعوراً مني بالواجب. فلما حضرها سرجي ميخائيلوفتش مرةً، أصبح التقدم الذي تحقّقه صونيا في دراستها فرحة كبرى لي. كان تعلم معزوفة موسيقية جديدة يبدو لي أمراً مستحيلاً، أما الآن فلعلمي بأنه سيسمع عزفي أصبحت أكرر التمرن على مقطع واحد أربعين مرةً، حتى صارت المنسكينة كاتيا تسد أذنيها بقطن. ولكني أثابر في غير كلل ولا ملل. وأصبح للسوناتات القديمة رنين آخر، أصبحت

أعزفها عزفاً مختلفاً، عزفاً أحسن كثيراً. حتى كاتيا التي كنت أعرفها
وكنّت أحبها كنفسى تبدلت الآن في نظري. في ذلك الوقت انما أدركت
أن لا شيء يجبرها على أن تخدمنا كام وكصديقة وكخادمة، وأدركت
كل ما تتصف به تلك الانسانة المحبة الودود من روح التضحية والبذل
والاخلاص، وأدركت كل ما أنا مدينة لها به. فما زادني ذلك إلا حباً لها
وتعلقاً بها. وإن سرجي ميخائيلوفتش أيضاً هو الذي علّمني أن أنظر
الى خدمنا وفلاحينا نظرة جديدة تختلف عن نظرتي الأولى. كنّت
حتى ذلك الحين، أي حتى السابعة عشرة من عمري، أعيش بين هؤلاء
الناس غريبة عنهم، لا يجمعني بهم شيء سوى ما يجمعني بأناس لا
أراهم ولا ألقاهم. ما من مرة خطر ببالي أن هذه المخلوقات تحب
أو ترغب أو تتألم مثلي. وحديثنا وغاباتنا وحقولنا التي أعرفها منذ
زمن طويل صارت عندي جديدة رائعة. ولم يذهب سدى قول سرجي
ميخائيلوفتش أن أكبر سعادة في هذه الحياة هي أن يعيش الانسان في
سبيل غيره. لقد استغربت قوله هذا في حينه ولم أفهمه. ولكن هذه
العقيدة تسللت الى قلبي من دون أن يتدخل في ذلك عقلي. كشف لي
سرجي ميخائيلوفتش عن عالم كامل من الأفراح في الحاضر، من دون
أن يبدّل من حياتي شيئاً، ومن دون أن يضيف الى مشاعري كلها شيئاً الا
نفسه. منذ طفولتي كان كل شيء حولي يبدو لي أخرس، والآن يكفي
أن آراه حتى ينطق كل شيء بليغاً كل البلاغة، فينبجس في نفسي ألف
شعور، ويفيض قلبي سعادة.

وكنّت في ذلك أثناء الصيف أصعد الى غرفتي أحياناً كثيرة،
وأستلقي على سريري، فلا أشعر بما كنّت أشعر به في الربيع من قلق

وغمّ، وإنما تغزوني رغبات قوية وآمال مشرقة، وتستولي عليّ سعادة الحاضر العارمة، فلا أستطيع أن أنام، فأنهض عن سريري، وأمضي أجلس على سرير كاتيا، فأقول لها إنني سعيدة كل السعادة، وهذا ما أحس أنها لم تكن بحاجة الى أن أقوله لها، لأنها كانت تستطيع أن تلاحظه من تلقاء نفسها، ولكنها كانت تقول إنها لا ترغب في شيء، وتؤكد أنها سعيدة جداً، وتقبلني، وكنت أصدّقها، وكان يبدو لي أنه لا بد أن يكون جميع الناس سعداء، وأن من العدل أن يكون جميع الناس سعداء. ولكن كاتيا كان من حقها أن تنام أيضاً، حتى لقد كان يتفق أن تتظاهر بالغضب فتطردني عن سريرها وتنام. أما أنا فأخذ أستعرض في سريري أسباب سعادتي. وقد أنهض أحياناً لأصلي، مرتجلة صلواتي، فأحمد الله على ما خصني به من سعادة عظيمة.

ويكون كل شيء في الغرفة صمتاً. فلا يُسمع فيها الا تنفس كاتيا هادئاً ساجياً، وصوت دقات الساعة الصغيرة المعلقة بالحائط. وأنتفت، وأهمس بابتها لاتي، وأرسم شارة الصليب، أو أقبل الصليب الذي أحمله في عنقي. وتكون الأبواب موصدة، وتكون النوافذ مغلقةً مصاريعها، وتندندن ذبابة أو بعوضة. وأتمنى أن لا أترك هذه الغرفة أبداً. وأود أن لا يطلع الصبح، حتى لا يتبدد هذا الجو الذي يغمرني. وتراءى لي أحلامي وخواطري وصلواتي أشبه بكائنات حية تهوّم حول سريري أو تقف بجانبني. إن كل فكرة تخطر ببالي هي فكرة له، وإن كل عاطفة أحسها هي عاطفة منه. وكنت أجهل حينذاك ما الحب، وكنت أظن أن هذا يمكن أن يبقى وأن يدوم، وأن هذا الشعور يوهب للإنسان وهباً.

في ذات يوم من أيام الحصاد ذهبنا الى الحديقة أنا وكاتيا وصونيا بعد الظهر، وجلسنا على دكتنا المفضلة في ظل أشجار الزيزفون التي تعلو الوادي ونطل منها على منظر الغابات والحقول. وكان سرجي ميخائيلوفتش قد غاب عنا ثلاثة أيام. لذلك كنا ننتظره في ذلك اليوم بعد الظهر، لا سيما وأن الوكيل أبلغنا أنه وعد بالمجيء لرؤية الحقول، ثم أبصرناه يصل الى حقل الشليم على صهوة حصانه في نحو الساعة الثانية فعلاً. أمرت كاتيا بأن يُحمل الينا درّاق وكرز، اذ كانت تعلم أنه يحبهما، ونظرت إليّ مبتسمة، وتمددت على الدكة لتغفو. فانتزعت أنا غصناً معقوفاً من شجرة زيزفون، فابتلت يدي بعصارة أوراقه والقشرة، وأخذت أهوي على كاتيا، مستمرة في قراءتي، ملقية على الطريق الذي سيسلكه سرجي ميخائيلوفتش نظرات متكررة. وكانت صونيا مكبة على عملها بقرب جذور شجرة كبيرة من أشجار الزيزفون، تبني للعبها عرزالاً. وكان النهار حاراً، ولا يزال الهواء ساكناً خانقاً، إنما كانت

تتكاثف غيوم سود، وكانت العاصفة تهدد بالهبوب منذ الصباح، وكنت مضطربة كاضطرابي دائماً قبل هبوب العاصفة. ولكن الغيوم لم تلبث أن أخذت تتبعثر في الأفق، وعادت الشمس تظهر في سماء صافية، فكانت تُسمع أصوات رعد بعيدة، وعلى غيمة ثقيلة، جامدة عند الأفق، مختلطة بغبار الحقول، أخذت تتعرج بروق باهتة في أوقات متباعدة. أصبح واضحاً أن العاصفة ستفوتنا، في هذا النهار على الأقل. وفي أجزاء الطريق التي تُرى من الحديقة كانت تسير العربات، فتارة تكون بطيئة ويكون لها صرير وتكون محملة بحُزَم السنابل الى أعلاها، وتارة تجري في الاتجاه الآخر فارغة، ترتجف فيها سيقان الفلاحين وتموج فيها قمصانهم. وكان غبار كثيف يركد وراء السياج بين أوراق الأشجار الشفافة في البستان. وأبعد من ذلك، في جهة العنابر، يُسمع ضجيج الأصوات ذلك نفسه، وتُرى حُزَم السنابل الذهبية تلك نفسها متقدمة على مهل في محاذاة السياج وكأنها تسير وحدها في السماء. وعلى مرأى مني تشيّد البيادر في صورة إهليلج، وتبرز ذراها الحادة، ويتحرك الفلاحون فوقها ويسعون. وفي أمام، على الحقل الأغبر، كانت تتقدم العربات أيضاً، وكانت تُرى حُزَم السنابل الذهبية كذلك، وكانت تسمع ضجة العجلات والأصوات والأغاني. فلماذا نظرت الى طرف من أطراف الحقل رأيت الأرض تُعرى شيئاً بعد شيء، ورأيت صفوف نبات الارطماسية العطرة يملأ الأخاديد. حتى اذا ملت ببصرك يمنة الى تحت، على مرج محشوش، بان لك الأثواب الزاهية التي تلبسها الحازمات، ورأيتهن يخفضن قاماتهن ويحركن أذرعهن، ورأيت المرج يتخذ شكلاً منظماً بينما الحُزَم ترتفع فيه غزيرة. فكان الصيف

يتحول أمام عينيّ الى خريف. والحر والغبار يسودان كل مكان، إلا هذا الركن المفضّل الذي نحن فيه من الحديقة. وجمهرة العاملين تتحرك وتصخب وتتكلم في كل جهة من الجهات وسط هذا الحر وهذا الغبار تحت شمس حارقة.

كانت كاتبا تغط غطيّطاً رقيقاً لذيذاً تحت المنديل الابيض الذي سترت به وجهها فوق دكتنا التي يغمرها الظل. وكانت ثمرات الكرز السود المملّى بالعصارة تلتمع في الطبق. وكانت أثوابنا نظيفة. وكان الماء في الإبريق يلعب فرحاً تحت أشعة الشمس. وكنت أنا أشعر بسعادة كبيرة.

قلت أحدث نفسي: «ما حيلتي؟ أي ذنب أجترح إذا كنت سعيدة؟ ولكن كيف أقاسم أحداً سعادتي؟ كيف ولعن أهب نفسي كلها مع سعادتي العظيمة؟».

غابت الشمس وراء ذرى أشجار البتول، وانبسط العجاج فوق الحقول، وأصبحت الأشياء البعيدة تبدو واضحة مزيداً من الوضوح في الضياء المائل، وانقشعت الغيوم انقشاعاً تاماً، وفي جهة العنابر، من خلال الحقول، أصبحت ترى ذرى ثلاثة بيادر جديدة نزل عنها الفلاحون وغادروها، والعربات وما يصاحبها من صياح مجلجل، تقوم بآخر رحلة في هذا اليوم. والنساء قد وضعت كل منهن أدواتها على كتفها، وعقدت أربطتها على خصرها وسارت في طريق العودة صادحةً بالغناء، ولكن سرجي ميخائيلوفتش لمّا يجيء بعد، رغم أنني رأيت يهبط من الأكمة. وفيما كنت أنتظر إذا هو يظهر فجأة في ممر الأشجار، وقد أتى من جهة لم أكن أتوقع أن يأتي منها (إذ دار حول الوادي). وها

هو ذا يقبل عليّ بسرعة، متهلل الأسارير فرح الوجه جاعلاً قبعته بيده.
لما رأى كاتيا نائمة عضَّ على شفتيه وأغمض عينيه وسار على رؤوس
الأصابع. وسرعان ما لاحظت أنه كان في تلك الحالة من المرح الذي
ليس له سبب ظاهر، والذي كنت أحبه كثيراً فيه، وكنا نسميه جميعاً
باسم «السُّكر المتوحش». كان أشبه بتلميذ هارب من المدرسة، وكان
كيانه كله، من الرأس الى القدمين، يشع هناءة وسعادة وحدة كحدة
المراهقين.

قال بصوت خافت وهو يتقدم مني ويصافحني:

- هيه... طاب يومك أينها البنفسجة الفتية... كيف الصحة؟

ثم قال راداً على تحيتي:

- أوه... أنا صحتي رائحة. سني اليوم ثلاثة عشر عاماً. أشتهي أن لعب
لعبة النط على الظهور، وأن أتسلق الأشجار.

قلت له وأنا أنظر الى عينيه الضاحكتين وأحس بأن «سكره
المتوحش» قد سرت إليّ عدواه:

- أنت في ذروة «السُّكر المتوحش»، هه؟

فأجاب وهو يغمز بعينه ويحبس ابتسامة في فمه:

- نعم. ولكن لماذا تضربين أنف كاترين كارلوفنا؟

لم أكن قد لاحظت أنني وأنا ما أزال أحرك غصن الشجرة أثناء
كلامي معه قد أسقطت المنديل عن وجه كاتيا ولمست وجهها بأوراقه.
فأخذت أضحك. ودمدمت أقول همساً، كأنني أحب أن لا أوقف كاتيا:
- ول سوف تزعم أنها لم تنم.

ولكن الحقيقة أن دافعي الى الكلام همساً لم يكن هذا الدافع. وانما

كان يسرني أن أكلّم سرجي ميخائيلوفتش بصوت خافت.
 وراح سرجي ميخائيلوفتش يحرك شفّتيه ليقلّديني، كأن كلامي قد
 بلغ من شدة الخفوت أنه لا يُسمع. ثم أبصر طبق الكرز فهجم يستولي
 عليه بحركة مختلصة، ولحق بصونيا تحت شجرة الزيزفون، وجلس
 على لعبها. فغضبت صونيا في أول الأمر، ولكن سرجي ميخائيلوفتش
 سرعان ما حظي برضاها إذ اخترع لعبة يلعبانها، وهي لعبة: أيهما
 يستطيع أن يأكل من الكرز قدراً أكبر في وقت واحد؟
 قلت له:

- هل تريد أن أمر بمزيد من الكرز؟ بل هلموا نقطف كرزاً بأنفسنا.
 فحمل الطبق، ووضع اللُّعب عليه، واتجهنا نحن الثلاثة الى
 سياج البستان. فكانت صونيا تضحك وترقص وراءنا، وتشد سرجي
 ميخائيلوفتش من حواشي سترته ليرد إليها لعبها. فردّها إليها أخيراً،
 والتفت إليّ بهيئة وقور. وقال بصوت لا يزال خافتاً، رغم أنه لا أحد
 يمكن أن يستيقظ الآن إذا هو تكلم بصوت عال:

- كيف لا تكونين بنفسجة؟ إنني ما كدت أدنو منك بعد ذلك الغبار كله
 وذلك الحر وذلك التعب حتّى شممت عطر بنفسجة، لا عطر تلك البنفسجة
 الأرجة، بل عطر تلك البنفسجة القاتمة الأولى التي يشم فيها المرء شذى
 الثلج الذائب وضّوع عشب الربيع.

سألته لأخفي الاضطراب السعيد الذي ألقتني اليه كلماته وأغرقتني فيه:

- هل كل شيء يسير على ما نحب في العمل؟

- على خير ما أحب! إن هذا الشعب رائع في كل مكان، فكلما ازداد
 المرء معرفةً به ازداد حباً له.

- نعم، كنت منذ قليل أرقب العمال من حديقتي، فشعرت فجأة بخجل وخزي، اذ رأيتهم يتعبون بينما أنا أبلغ من السعادة أنني...
فقاطعني قائلاً وهو يلقي عليّ نظرة فيها رصانة ودماثة معاً:
- لا تتفندري في مثل هذا الامر. هذا أمر مقدس. أسأل الله أن يحميك من حب الظهور والتباهي بأمر هكذا.
- لا أقول هذا إلا لك «أنت».

- نعم، نعم، أعلم. ولكن ماذا عن الكرز؟
كان باب السياج مُرتجأً، ولم نر بستانياً (كان سرجي ميخائيلوفتش قد أمرهم جميعاً بالذهاب إلى الحقول). وركضت صونيا لتجيء بالمفتاح، ولكن سرجي ميخائيلوفتش لم ينتظرها بل تسلق زاوية الجدار الصغير، وأزاح الشبكة الحاجبة، ووثب إلى الجهة الأخرى. وناداني يقول:

- اعطني الطبق إذا أردت الكرز.
- بل أريد أن أقطف كرزاً بنفسِي. سأتي بالمفتاح. صونيا لن تجد...
لكنني شعرت في الوقت نفسه برغبة قوية في أن أرى ماذا كان يصنع وراء الجدار، وكيف ينظر ويتحرك إذا هو ظن أن أحداً لا يتجسس عليه. نعم، كنت لا أريد أن يغيب عني دقيقة واحدة. فدرت حول السياج راكضة على رؤوس الأصابع فوق النباتات القزاصة، حتى اذا بلغت موضعاً كان الجدار فيه أوطأ، تسلفت برميلاً فارغاً فأصبح الجدار لا يتعدى علوه صدري، وملت فوقه وجعلت أجيل طرفي في الأرض المسيجة ناظرة إلى أشجارها الملتوية ذات الأوراق المسننة، التي تنبجس منها الثمار الناضجة منتصبه ثقيلة. وأمررت رأسي تحت

الشبكة فرأيت سرجي ميخائيلوفتش تحت غصن معقوف من شجرة كرز مستنة. لا بد أنه كان يقدر أنني انصرفت وأن أحداً لا يراه. كان قد خلع قبعته، وجلس على جذع شجرة ساقطة، مغمضاً عينيه، واستغرق في تحريك كرة من راتنج شجرة كرز. ثم اذا هو يرفع كتفيه فجأة، ويفتح عينيه، وابتسم، ويقول كلاماً. فكان ذلك الكلام وذلك الابتسام يبلغان من الغرابة فيه، وقلة الشبه به، أنني أحسست بالخزي من تجسسي عليه هذا التجسس. بدا لي أن الكلمة التي قالها هي: «ماشاء!» فقلت لنفسى: «مستحيل!». وكرر يقول: «ماشاء العزيزة!»، بصوت فيه مزيد من الخفوت والعاطفة والحنان. لكنني في هذه المرة سمعت هاتين الكلمتين سماعاً واضحاً. فأخذ قلبي يخفق خفقاناً كنت أحسّه في كل جوارحي. واجتاحني فرح مقلق كأنه محظور، وقد بلغ من القوة أنني تمسكت بالجدار بكلتا يديّ حتى لا أسقط فيفتضح أمرى. رأى هو حركتي، فنظر إليّ، ثم خفض عينيه فجأة وقد أحمرّ وجهه كطفل. وأراد أن يقول لي شيئاً ولكنه لم يستطع، وظل وجهه يتخضب بالحمرة مرة بعد مرة. ولكنه ابتسم حين رأيته. وابتسمت أنا أيضاً. فأضاء الفرح وجهه. ما هو الآن عم عجوز، رقيق واعظ، بل هو الآن نذلّ لي، يحبني ويخشاني. وأخشاه وأحبه. كان كل منا ينظر الى الآخر صامتاً. ولكنه عبس فجأة، وزال ابتسامه، واختفى بريق عينيه، وقال يخاطبني بلهجة فيها برود، بلهجة أبوية، كأننا كنا نرتكب عملاً سيئاً، فهو يعدل عنه وينصحني بأن أعدل عنه أيضاً، قال:

- انزلي، وإلا أذيت نفسك! ورتّبي شعرك. ما هذه الهيئة التي لك؟

قلت أحدث نفسي غاضبة: «لم هذا التظاهر؟ لماذا يريد أن يجرح

شعوري؟». وشعرت في الوقت نفسه برغبة قوية لا تقاوم في أن أربكه هو أيضاً، وأن أحسن بسلطاني عليه. فقلت له:
- بل أريد أن أقطف كرزاً بنفسي.

وتمسكت بغصن شجرة قريبة فوثبت فلماذا أنا على الجدار. وهمّ أن يساعدي على النزول، ولكنني سبقته فوثبت الى داخل الأرض المسوّرة.

فقال وهو يحمرّ مرةً أخرى محاولاً أن يخفي ارتبাকে وراء مظهر الغضب:

- ما أحسن هذا الذي تفعلين! كان يمكن أن تجرحي نفسك. ثم كيف تستطيعين أن تخرجي بعد أن دخلت؟

وكان ارتبাকে أشدّ من ارتبাকে قبل ذلك. غير أن هذا الاضطراب الذي اعتراه لم يحدث لي أي رضى أو ارتياح، حتى لقد أزعجني اضطرابه وسرى إليّ: فاحمرّ وجهي، ولم أعرف بماذا أجيبه، وتحاشيت أن أنظر اليه، وطفقت أقطف كرزاً من دون أن يكون بيدي ما أضعه فيه. كنت ألوم نفسي، وأشعر بندم، وأحس بخوف، ويتراءى لي أنني قد ضيّعت نفسي في نظره الى الأبد. كنا صامتين، وكان يحشم على صدرينا حمل ثقيل يخنقنا خنقاً. وهرعت صونيا تحمل المفتاح، فأنقذتنا من هذا الموقف الشاق الأليم. وظللنا مدةً طويلة بعد ذلك لا نتخاطب تخاطباً مباشراً، وانما نكلم صونيا. حتى إذا رجعنا الى كاتيا، فحلفت لنا أنها لم تنم أبداً، وأنها لم تفتها كلمة واحدة مما قيل، استعدت هدوئي، وحاول سرجي ميخائيلوفتش من جهته أن يسترد لهجته الأبوية، لهجة الرعاية والحماية، ولكنه لم يفلح في ذلك، وأصبح لا يستطيع أن يخدعني.

واستعرضت في ذاكرتي حديثاً جرى بيننا قبل بضعة أيام.

كانت كاتيا تزعم أنه يسهل على الرجل أكثر مما يسهل على المرأة، أن يحب فيعبر عن حبه. قالت:

- الرجل يستطيع أن يعترف بأنه يحب، أما المرأة فلا.

فأجابها سرجي ميخائيلوفتش قائلاً:

- يبدو لي أن الرجل لا يجب عليه ولا يستطيع أن يعترف بحبه أكثر من المرأة.

فسألته أنا: لماذا؟

فقال:

- لأن ذلك سيكون كذباً! رجل يحب، يا له من اكتشاف! هل يظن أنه متى أعلن ذلك فلا بد أن يتفجر شيء. بم! هوذا يحب؟ كأن الكلمات متى قلت فلا بد أن يحدث شيء خارق، فتتحقق معجزات، وترعد مدافع؟ رأيي أن الرجال الذين يقولون: «أحبك»، إنما يخدعون أنفسهم، أو يخدعون غيرهم وهذا أنكى!

سألت كاتيا:

- فكيف تعلم المرأة أن الرجل يحبها إذا لم يقل لها إنه يحبها؟

أجاب:

- لا أدري! إن لكل امرئ كلمات خاصة به. فإذا وجدت العاطفة عرف كيف يعبر عنها. حين أقرأ روايات، فإنني أتخيل دائماً هيئة الارتباك على الليوتنان سترلسكي أو على ألفرد حين يقول: «أحبك يا إيلينور»، ويتصور أن شيئاً مذهلاً سيحدث، ثم لا يحدث شيء لا لها ولا له، وتبقى العينان والأنف وسائر الأشياء كما كانت.

وقد رأيت في رأيه المُغرب هذا كلاماً وقوراً موجهاً إليّ، منذ ذلك الحين، ولكن كاتياً لم تطق أن يعامل أبطال الروايات بهذا الاستخفاف، فقالت له:

- هذه واحدة من إغراباتك في الكلام. هيّا اعترف: ألم تقل لامرأة في يوم من الأيام إنك تحبها؟
قال ضاحكاً:

- لم أقل في يوم من الأيام، لا ولا جثوث على الأرض راکعاً. وأكثر من ذلك أنني لن أفعل هذا أبداً.

قلت اليوم لنفسى وأنا أتذكر ذلك الحديث: «نعم، ما هو في حاجة الى أن يقول لي إنه يحبني. هو يحبني. أعرف ذلك. وكل ما يتحمّله من عناء لينتظار بقلة الاكتراث لن يززع يقيني هذا».

لم يكلمني طوال تلك السهرة إلا قليلاً. ولكنني في كل كلمة يخاطب بها كاتياً أو صونيا، وفي أيسر حركة من حركاته أو إشارة من إشاراته، وفي كل نظرة من نظراته، كنت أرى حبه لي، فلا يراودني في هذا الحب شك. ولكن كان يحزنني ويغضبني أيضاً أن يرى أن من المفيد أن يظل يكتّم ما بنفسه مع أننا يمكن أن نسعد سعادة لا سبيل الى مغالبتها! وأخذت المغامرة التي قمت بها منذ قليل تعذبني عذاباً شديداً، كأنني قد قارفت جريمة. وتراءى لي أنه قد يكف عن احترامي بسبب سلوكي ذاك، فكنت ألوم نفسي أعنف اللوم.

بعد أن شربنا الشاي قمت الى البيانو. فتبعتني سرجي ميخائيلوفتش، وقال لي حين أدركني في الصالون:

- اعز في قليلاً، فإنني ما سمعت عزفك منذ مدة طويلة.

فقلت له وأنا أنظر في عينيه:

- هذا بعينه ما كنت أريده يا سرجي ميخائيلوفتش. هل زال زعلك؟

- لماذا تتصورين أن أكون زعلان؟

- لأنني عصيتك ولم أطلعك.

قلت ذلك وقد احمر وجهي.

ففهم ما أعني، وهز رأسه، وتبسم. وكانت نظراته تقول إنه ودّ لو يؤنّبني قليلاً ولكن أعوزته الشجاعة.

قلت وأنا أجلس الى البيانو:

- لم يبق شيء. ها قد رجعنا صديقين، أليس كذلك!

- طبعاً!

لم يكن في الصالون، العالي سقفه، إلا شمعتان وضعتا على البيانو، أما باقي الغرفة فكان غارقاً في ما يشبه الظلام. ومن النوافذ المفتوحة كان يدخل ليل الصيف الوضاء. وكان كل شيء صامتاً، الا حين تمشي كاتيا في الصالون المعتم فيسمع وقع خطواتها هادئاً خفيفاً، وحين يحمم حصان سرجي ميخائيلوفتش المربوط تحت النافذة، أو يضرب بحوافزه أعشاب البلسكاء الضارة. كان سرجي ميخائيلوفتش جالساً ورائي فلا أراه. لكنني كنت أشعر بحضوره في كل مكان: في ظلام الغرفة، وفي الموسيقى، وفي ذات نفسي. وكانت كل نظرة من نظراته وكل حركة من حركاته التي لا أراها تجدد صدى في قلبي. كنت أعزف سوناتا - فانتازيا، لموتسارت، التي أتاني هو بها وتعلمتها في حضوره من أجله. كنت لا أفكر في ما أعزف، ولكن كان يبدو لي أنني أحسن العزف، وأن عزفي يعجبه. أحسست بالرضا الذي لا بد أنه كان يشعر به. ومن دون

أن أراه، كنت أعرف النظرة التي يلقيها عليّ. وفيما أنا أوصل تحريك أصابعي بغير شعور، رأيتني التفت إليه فجأة كأنما رغم إرادتي. كان رأسه بين واضحاً في ظلمة الليل الوضاء. كان جالساً، قد أسند ذقنه الى يديه، وراح يتأملني بعينيه الملتصعتين. فلما التقى بصري بنظرته تلك، ابتسمت وتوقفت عن العزف. فابتسم هو أيضاً. ولكنه هزّ رأسه كاللائم، وأشار لي أن أوصل العزف. حتى إذا انتهيت كان القمر قد طلع، فكان ضياء فضي يتسلل من النوافذ وينضم الى نور الشمعتين الضعيف، فينير أرض الغرفة. قالت كاتيا إن توقفي عن العزف في أهم موضع كان أمراً غريباً، وأن عزفي كان سيئاً غاية السوء. ولكن سرجي ميخائيلوفتش زعم نقيض ذلك، فقال إنني لم أعزف خيراً من هذا العزف يوماً قط. وأخذ يذرع الغرفة ذاهباً وآيياً، ويتنقل من الصالون الصغير ثم يعود أدراجه، وينظر إليّ في كل مرة ويبتسم. وابتسم أنا أيضاً، حتى لأود أن أضحك، لا أدري لماذا، فالي هذا الحد كنت سعيدة بما حدث. وكنت ما إن يغيب سرجي ميخائيلوفتش حتى أضمت كاتيا الى صدري، وأعانقها، وأقبلها في الموضع المفضل من عنقها الربيلة تحت الذقن. حتى إذا عاد اصطنعت هيئة الجد والوقار، وحبت نفسي عن الضحك بكثير من المشقة.

فكانت كاتيا تسأل سرجي ميخائيلوفتش:

- ماذا جرى لها اليوم؟

ولكن سرجي ميخائيلوفتش لا يجيب، ولا يزيد على أن ينظر إليّ ضاحكاً. كان، هو، يعرف ماذا جرى لي.

قال منادياً من الصالون الصغير، وقد توقف أمام النافذة المطلة على الحديقة:

- انظروا الى هذا الليل ما أروعها!

فمضينا ننضم إليه. كانت الليلة رائعة حقاً، ما رأيت لها مثيلاً في حياتي من بعد. القمر بدر يعلونا وراء المنزل فلا نستطيع أن نراه. ونصف الظل الذي يسقطه السقف والأعمدة وطنف الشرفة يرقد مائلاً «مصرفاً» على ممر الأشجار المغروش بالرمل، وعلى العشب الأخضر. وكل ما عدا ذلك مضاء، مستحيم بالندى الفضي وبضياء القمر. والدرب، بين آجام الأزهار التي تتراقص فيها ظلال الدهليات مائلة، يشرق بضياء بارد، وتسطع حافته المتفاوتة، ويغيب هارباً في ضباب الأفق البعيد. وبين الأشجار يبدو ظهر الحوض الزجاجي واضحاً متلألئاً. ومن الوادي يصاعد الضباب. وأشجار اليلك التي تعرت قليلاً يغمرها النور، فيستطيع الناظر أن يميز جميع أزهارها المخضلة بالندى. وفي ممرات الأشجار يمتزج الليل والضياء، فلا يرى المرء طرقات وأشجاراً، وإنما يرى بيوتاً شفاقة ترتعش ارتعاشاً. وكل شيء على يمينك حالك السواد قليل الاكتراث مرعب ولكن الذروة الواسعة من شجرة الصفصاف التي تنبجس من ذلك الظلام تبدو غريبة مزيداً من الغرابة، فهي على جمودها وعلى شدة قربها من البيت، وعلى انسكاب نور السماء فوقها، تبدو كأنها تستطيع أن تطير، أن تطير الى هناك، الى الفضاء البعيد، الى السماء، الأزرق الذي لا نهاية له.

قلت:

- لنمش قليلاً.

فوافقت كاتيا على اقتراحى، ولكنها اشترطت أن أنتعل حذاءين من مطاط. فقلت معترضة:

- لا يا كاتيا، سيعطيني سرجي ميخائيلوفتش ذراعه فأنتكي عليها.

كأن ذلك كان يمكن أن يقي قدمي من الابتلال! ولكن الأمر بدا لنا نحن الثلاثة في ذلك الحين منطقياً لا غرابة فيه. كان سرجي ميخائيلوفتش لا يعطيني ذراعه أبداً. أما في ذلك المساء فقد استوليت على ذراعه استيلاءً، فلم يجد في ذلك شيئاً شيناً غير مألوف. ونزلنا نحن الثلاثة عن الشرفة. فكان ذلك العالم كله، أعني هذه السماء، وهذه الحديقة، وهذا الهواء نفسه، غير ما كنت أعرف من قبل.

حين تأملت ممر الأشجار الذي يمتد أمامي أحسست بأننا لا نستطيع أن نتقدم فيه، وأن عالم الممكن ينتهي هنا ويجب أن يثبت هنا، على هذا الجمال، إلى الأبد. ولكننا تقدمنا، فكان جدار الجمال، المسحور، ينشق لنا ويتلقانا. كنا كأننا نتعرف إلى حديقتنا وأشجارها وممراتها وأوراقها. كنا نسير فعلاً في ممر أشجار، فندوس دوائر الظل والنور، وتخشخش الأوراق المتساقطة تحت أقدامنا، ويلطم غصن طري من الأغصان وجهي. وكان هو الذي يمشي إلى جانبي بخطوات تساوي خطواتي، ويسند بحذر واحتراس ذراعي، وكانت كاتيا تتقدم بقربنا فيسمع لوقع حذاءيها على الأرض قرقرة. كان القمر في السماء يسقط علينا أشعته من خلال أغصان الأشجار الساكنة...

ولكن كلما خطونا خطوة جديدة كان الجدار المسحور ينسد أمامنا ووراءنا من جديد، فأصبحت لا أعتقد بأن في إمكاننا أن نوغل مزيداً من الإيغال، وأصبحت أشك في أن هذا كله موجود فعلاً!

صاحت كاتيا:

- أوه! ضفدعة!

فسألت نفسي: «من يقول هذا؟ ولماذا؟. لكنني سرعان ما أدركت أنها كاتيا، وأنها تخاف من الضفدع، ونظرت إلى الأرض. فوثبت ضفدعة صغيرة وجمدت أمامي. وكان الظل الصغير الذي تلقىه يرى واضحاً على الفضاء من أرض الممر.

قال يسألني:

- وأنت، ألا تخافين من الضفدعة؟

لم ألتفت إليه. كانت بجانبنا شجرة زيزفون في المكان الذي نمر به. ورأيت وجهه واضحاً. كان يبدو جميلاً جداً وسعيداً جداً...

هو قال: «وأنت ألا تخافين من الضفدعة»، ولكنني أنا سمعته يقول: «أحبك يا غالية!»، وكانت نظراته تؤكد قوله: «أحبك، أحبك!». وكانت ذراعاه، والنور، والظل، والهواء، كان كل شيء يردد هذه الكلمات نفسها. طفنا بالحديقة دائرين حولها. وكانت كاتيا تمشي مشينا، بخطوات صغيرة، وتلهث تعباً. قالت أن لنا أن نرجع إلى البيت، وأخذتني بها شفقة كبيرة. مسكينة!... «لماذا ليس كل انسان شاباً وسعيداً مثلنا أنا وهو؟».

ورجعنا إلى البيت. ومكث مدة طويلة، رغم أن الديكة قد صاحت، ورغم أن الجميع في البيت نائمون، ورغم أن حصانه أصبح يضرب بحوافره نباتات البلسكاء أكثر فأكثر، ويحمحم مزيداً من الحممة. فلما انصرف كانت الديكة قد صاحت ثالث مرة، وكان الفجر قد طلع. وقد ودّعنا وداعاً عادياً، ولم يكن أي شيء خاص. لكنني عرفت منذ ذلك اليوم أنه أصبح لي، وأنه لن يستطيع أن يفلت مني أبداً. فما إن اعترفت لنفسي بأنه يحبني حتى حكيت لكاتيا كل شيء. فسعدت بثقتي أكبر السعادة، وتأثرت لها أشد التأثر. واستطاعت المسكينة أن تنام في

تلك الليلة. أما أنا فظللت أذرع الشرفة ذاهبة آية، وأنزل الى الحديقة، وأسير في ممرات الأشجار التي سلكتها معاً، متذكرة كل كلمة من كلماته، وكل حركة من حركاته. لم أستطع أن أغمض عيني طوال تلك الليلة، ولأول مرة في حياتي رأيت شروق الشمس، وأبصرت فجر النهار. ثم لم أشهد مرة أخرى في حياتي ليلةً كذلك الليلة، ولا صبيحة كذلك الصبيحة. وقلت أسأل نفسي: «لكن لماذا يخترع المصاعب، ويعدّ نفسه عجوزاً، على حين أن كل شيء بسيط جداً، جميل جداً؟ لماذا يضيّع وقتاً ثميناً قد لا يرجع أبداً؟ ألا فليصار حني بحبه، ليعبر لي عنه بكلمات، ليتناول يدي بيده ويسند رأسه إليها ويقل لي: أحبك! فليحمرّ وجهه وليغضّ طرفه أمامي، حتى أقول له أنا كل شيء! ولكن ماذا إذا كان ظني خطأ؟ ماذا إذا كان لا يحبني؟»، كذلك خطر هذا السؤال في ذهني كومض البرق.

وخفت من عاطفتي. الله يعلم الى أين يمكن أن تقودني! وتذكرت ارتباكنا المشترك في البستان المسيح حين قفزت عن الجدار، فشعرت من ذلك بثقل في قلبي. وانبجست الدموع من عيني، وأخذت أصلي. ثم عاد إليّ الأمل، وراودتني مع الأمل فكرة تبث في نفسي الطمأنينة. قررت أن أستعدّ لتناول القربان المقدس، وأن أتقدم من المائدة المقدسة في يوم عيد ميلادي، وأن أصبح خطيئته في ذلك اليوم نفسه. أما كيف ولماذا وبأية طريقة سوف يتم الأمر، فذلك ما كنت أجهله، ولكنني منذ تلك اللحظة اعتقدت وعلمت أن الأمر سيتم. وكان النهار قد طلع تماماً، وكان الناس قد أخذوا ينهضون من نومهم، حين عدت الى غرفتي.

كان ذلك في زمن الصيام الذي يسبق عيد صعود العذراء فلم يدهش أحد للقرار الذي اتخذته، وهو أن استعد لتناول القربان المقدس.

وفي أثناء ذلك الأسبوع كله لم يجرى إلينا سرجي ميخائيلوفتش مرة واحدة. لكنني لم أشعر مع ذلك بدهشة ولا بقلق ولا غضب. بالعكس: أسعدني أن لا يجيء، ولم أنتظر أن يأتي إلا في يوم عيد ميلادي. وخلال تلك الأيام الثمانية كنت أنهض من نومي في ساعة مبكرة جداً من الصباح، وفيما كانوا يقرنون الخيل إلى العربدة كنت أنا أتجول في الحديقة مستعرضة بذاكرتي ما ارتكبت بالأمس من خطايا، مفكرة في ما ينبغي لي أن أفعله اليوم، لأكون راضية في نهاري، ولأتحاشى ارتكاب أية خطيئة. كان يبدو لي أنه حسبي أن أكلف نفسي هذا. وتتقدم الخيل، فأصعد إلى العربدة مع كاتباً أو مع خادمة، ونمضي إلى الكنيسة التي تبعد ثلاثة فراسخ. فإذا اقتربت من الكنيسة تذكرت في كل مرة أن عليّ أن أصلي لجميع الناس «في خشوع للرب»، وحاولت أن أحتفظ

بهذا الشعور وأنا أصعد درجتي الرواق الذي ينبت العشب بين بلاطات أرضه. ولا يكون بالكنيسة في تلك الساعة أكثر من عشرة أشخاص هم فلاحات أو خدم يقومون بعبادتهم من أجل العيد. وأحاول أن أردّ على تحياتهم في تواضع كبير، وأمضي بنفسني إلى صندوق الشموع، معتقدة أن هذا مأثرة من المآثر، فأتناول الشموع من يديّ وكيل الكنيسة، وهو جندي سابق، وأضعها أمام الأيقونات. ومن خلال أبواب المحراب، أبصر غطاء الهيكل، وهو غطاء طرزه أمني يديها، وفوق الحاجز المزدان بالأيقونات أرى ملاكين يسبحان بين نجوم كانت تبدولي ضخمة في صفري. وأرى حمامة تحفّ بها هالة مذهبة كانت تخطف بصري في الماضي كثيراً. ووراء الخورس، أرى جرن المعمودية الذي كثيراً ما أمسكت عليه أولاد خدمنا، والذي عُمِدْتُ عليه أنا نفسي. ويكون الكاهن لابساً حلة للقداس مصنوعة من غطاء تابوت أبي، ويأخذ يتلو القداس بذلك الصوت نفسه التي طالما سمعته منه حين كان يقيم الصلاة عندنا، سواء يوم تعميد صونيا، أو حين توفي أبي، أو حين دُفِنْتُ ماما. ويترجّع ذلك الصوت المشدوخ نفسه، صوت المرتل في الخورس. وأرى تلك العجوز القصيرة نفسها التي طالما رأيتها في الكنيسة منحنية الظهر مستندة إلى الحائط، تتأمل أيقونة الخورس بعينين دامعتين، قابضة بأصابعها المثنية على منديلها الحائل لونه، مهمة بالدعاء والتضرّع بفمها الأهم. فلا يكون ذلك كله أموراً تثير فضولي أو توقظ ذكريات عزيزة في نفسي فحسب، وإنما هو الآن في نظري شيء عظيم ومقدس، مثقل بمعنى عميق. وأنا في أثناء تلاوة الصلاة أتنتصت على كل كلمة محاولة أن أستجيب لها في قرارة نفسي. فإذا لم

أفهم فهماً واضحاً سألت الله في سرِّي أن ينير عقلي، أو استعصت عن الدعاء الذي لم أفهمه بضراعات أبتكرها ابتكاراً. حتى إذا تليت صلاة التوبة جعلت أستعرض ذكريات الماضي، فيبدو لي ذلك الماضي البريء الطاهر أسود مظلماً بالقياس الى ما أنا فيه الآن من حالة روحية صافية راتقة، فإذا أنا أبكي على نفسي مرتاعة ملتاعة، ولكنني أحسن في الوقت نفسه بأن ذلك كله سوف يُغفر، وأن التوبة لن تزداد إلا عذوبة إذا كان عدد خطاياي أكبر. حتى قال الكاهن في ختام الصلاة: «لتصحبكم بركة الله»، أحسست في جسمي على الفور براحة العفو والمغفرة، حتى لكان شيئاً من الضياء والدفء قد نفذ الى قلبي على حين فجأة. وينتهي القداس، فيدنونني الكاهن ويسألني ألا يجب عليه أن يجيء إلينا لإقامة صلاة العصر، فأشكر له بحرارة ما يريد أن يفعله من أجلي أنا، في ما أخمن، وأجيبه بأنني سأعود الى الكنيسة بنفسني.

فيقول: أتريدين أن تفرضي على نفسك هذه المشقة؟

فلا أدري بماذا أجيبه من دون أن أرتكب إثم الزهو والغرور.

وبعد القداس أصرف العربة اذا كانت لا تصحبني كاتيا، وأعود وحدي سبراً على القدمين، وأنحني بتواضع لجميع الذين ألقاهم في الطريق، وأبحث عن فرصة أخدم فيها أحداً، إما بنصيحة أسديها، وإما بالمساعدة في إنهاض عجلة، وإما بهددة طفل، جاهدة أن أمحي فلا أظهر، ملوثة ثيابي بالغبار أو الوحل.

وفي ذات يوم سمعت الوكيل يقول لكاتيا إن سيميون، وهو أحد الفلاحين، يطلب خشباً لتابوت ابنته وروبلاً لوليمة الجنازة، وأضاف الوكيل أنه قد لبي طلبه. سألت:

- أهم فقراء إذاً الى هذا الحد؟

فأجابني الوكيل: فقراء جداً يا آنسة، يأكلون بلا ملح.

فانقبض قلبي، ولكنني في الوقت نفسه شعرت بما يشبه الفرح. وكذبت على كاتبها عامدة، فزعمت لها أنني ماضية أنتزعه. ولكنني في الواقع اسرعت الى غرفتي، فتناولت كل ما كنت أملك من مال (وهو زهيدا)، ثم رسمت إشارة الصليب واجتزت الشرفة فالحديقة، ومضيت الى القرية، الى بيت سيميون. كان بيته يقع في آخر القرية. فاقتربت من النافذة من دون أن يراني أحد، ووضعت المال على حافتها، ونقرت الزجاج بضع نقرات. فخرج من الكوخ أحد، فسمعت لفتح الباب صريراً، وسمعت صوتاً يناديني. لكنني وليت راکضة وأنا أرتعش من الخوف كمجرمة. وسألتنى كاتباً أين كنت وماذا حدث لي. غير أنني لم أفهم ما قاله لي فلم أجبها. وبدأ لي كل شيء على حين فجأة تافهاً لا قيمة له. وحسبت نفسي في غرفتي، وجعلت أذرعها طولاً وعرضاً، لا أستطيع أن أفعل شيئاً، فلا أفكر، ولا أحلل مشاعري. وجعلت أتصور فرح الأسرة كلها، وأتصور الكلام الذي تقوله عمّن وضع المال على حافة النافذة، وأسفت أنني لم أسلم المال بنفسني. وتساءلت عما عسى أن يكون رأي سرجي ميخائيلوفتش في عملي، وأسعدني أن أحداً لن يعرف عن الأمر شيئاً في يوم من الأيام. وبلغت من شدة الفرح، ومن شدة الاستخفاف بالعالم كله، وبنفسي، أنني أصبحت أنظر الى جميع الأشياء ذليلة خاشعة، حتى لقد بدا لي الموت نفسه حلم سعادة. فكننت أبتسم، وأبكى، وأصلّي، وصرت في تلك اللحظة أحب كل انسان حباً مشبوباً وأحب نفسي حباً مشبوباً كذلك.

وكنت بين كل قداس وقداس في الكنيسة، أقرأ الأناجيل، فإذا بالكتاب يبدو لي أيسر على الفهم شيئاً بعد شيء. صارت قصة الحياة الإلهية تبدو لي بسيطة مزيداً من البساطة، مثيرة للمشاعر مزيداً من الاثارة، وغدت العواطف والأفكار التي أجدها في تعاليم المسيح أعمق غوراً، وأشدّ هولاً. ولكن، في مقابل ذلك، ما كان أعظم الوضوح والبساطة في كل ما كنت أراه حين أَدع الكتاب وأعود أسترسل في الحياة التي تحيط بي! أصبح يبدو لي أن من العسير جداً على الانسان أن يحيا حياة سيئة، وأن من السهل جداً على الانسان أن يحب أخاه وأن يحبه أخوه. فالتناس جميعاً طيبون جداً، لطاف جداً معي. حتى صونيا التي ما أزال أعطيها دروساً، قد تبدّلت حالها، فهي تحاول أن تفهم، وتتجنب أن لا ترضيني. واستعرضت في الخيال أعدائي الذي يجب أن أستغفرهم قبل الاعتراف، فلم أجد إلا آنسة من جيران قريتنا كنت قد سخرت منها قبل سنة، فانقطعت عن زيارتنا. فكُتبت إليها معترفة، متوسّلة إليها أن تغفر لي. فأجابني برسالة تسامحني فيها وتطلب مني أن أسامحها أيضاً. فبكيت من شدة الفرح وأنا أقرأ تلك الأسطر البسيطة التي رأيت فيها عاطفة عميقة مؤثرة. وقد بكت مريتنا العجوز حين سألتها أن تعفو عني وأن تغفر لي. وتساءلت: «لماذا هم طيبون معي الى هذا الحد؟ ماذا فعلت حتى أستحق هذه العاطفة كلها؟». وكان فكري يعود دائماً الى سرجي ميخائيلوفتش، كأنما رغم إرادتي، فأفكر فيه ملياً. لم يكن في إمكاني أن لا أفعل ذلك، ولم أكن أعدّ تفكيري فيه إثماً. ولكنني في هذه الأيام أفكر فيه تفكيراً يختلف عن تفكيري فيه أثناء تلك الليلة التي أدركت فيها أول مرة أنني أحبه. أنا الآن أفكر فيه تفكيري في نفسي،

وأشركه على غير إرادة مني في ما يساورني من أحلام المستقبل. وزال من خيالي ما كنت أحسّه في حضوره من سلطان له عليّ. صرت أشعر بأنني أساويه وأنه ندّ لي، وصرت أعتقد، وأنا في ما أنا فيه من سمو روحي، أنني أفهمه. فالأشياء التي كنت في الماضي أقف منها محتارة مربكة، صرت أراها الآن رؤية واضحة وأدركها إدراكاً جلياً. الآن إنما أصبحت أدرك ما كان يقوله من أن السعادة الوحيدة الممكنة هي أن يحيا الإنسان في سبيل غيره، وأصبحت أوافقه على رأيه. ويت أعتقد بأننا سنكون كلانا سعيدين سعادة لا نهاية لها، سعادة هادئة راضية الى أبعد حدود الهدوء والرضا. وغدوت لا أتخيل رحلات إلى الخارج، وتألّقاً في المجتمع الراقي، بل حياة عائلية هادئة في الريف ترين عليها تضحية أبدية وتفان متصل وحب متبادل مستمر، وثقة لا تنزلزل بالعناية الإلهية المغيثة الرفيقة دائماً.

وكما تصورت، تناولت القربان المقدس في يوم عيد ميلادي. فلما رجعت من الكنيسة كنت أشعر بسعادة تبلغ من الكمال أنني أخشى الحياة، وأنجنب أي شعور جديد، وأتقي كل ما يمكن أن يحطم تلك الهناءة. وما إن نزلنا من المركبة وأخذنا نصعد درجات الباب، حتى سمعت ضجة عربته، المألوفة لي، ورأيت سرجي ميخائيلوفتش. فأزجى لي تهنئاته، ودخلنا الصالون معاً. إنني منذ عرفته، لم أشعر بمثل ما أشعر به الآن من هدوء النفس، ورباطة الجأش، وقوة الإحساس بالاستقلال إزاءه. كنت أحس بأن عالماً جديداً قد قام في نفسي، عالماً لا يستطيع أن يدركه، لأنه أعلى منه. لم يبق في نفسي أثر لذلك الحرج الذي كنت أشعر به حين ألقاه. وكان واضحاً أن سرجي ميخائيلوفتش

قد أدرك أسباب هذه الحالة النفسية التي كنت فيها، فكان في سلوكه كثير اللطف والرفق والدمائة والاحترام الصادق. وأردت أن أقرب من البيانو، ولكنه أغلقه ووضع مفتاحه في جيبه وقال لي:

- لا تفسدي ما أنت فيه من حالة نفسية، فموسيقى روحك الآن هي أجمل موسيقى في العالم.

وقد حمدت له ذلك في قرارة نفسي، ولكنني شعرت في الوقت نفسه بشيء من الامتناع اذ رأيت أنه يفهم فهماً مسرفاً في السهولة ومسرفاً في الوضوح، كل ما كان ينبغي أن يبقى في نفسي سرّاً مكتوماً عن غيري. وفي أثناء الغداء، قال إنه أتى ليهنتني ويودعني، لأنه مسافر غداً الى موسكو. وكان وهو يتكلم ينظر الى كاتيا، ثم ألقى علي نظرة سريعة، فأدركت أنه يخشى أن يقرأ في وجهي اضطراباً. ولكنني لم أشعر بدهشة، ولا شعرت بقلق، حتى إنني لم أسأله هل سيطول غيابه. كنت أعلم أنه سيقول إن غيابه سيطول، وكنت أعلم أيضاً أنه لن يسافر. من أين أتاني ذلك اليقين؟ لا أدري كيف أشرح هذا. ولكنني كنت في ذلك اليوم الذي لا يُنسى أحس بأنني أعرف كل ما كان وكل ما سيكون. كنت كمن يرى حلماً سعيداً يحس فيه أنه يعرف منذ زمن طويل كل ما يحدث، ويعلم فيه علم اليقين كل ما لا بد أن يحدث ثم يحدث.

أراد أن ينصرف بعد الغداء فوراً، ولكن كاتيا التي أتعبها القداس مضت تستريح، فاضطر أن ينتظر استيقاظها من النوم ليودّعها. وكانت الشمس تنفذ الى الصالون الكبير، فخرجنا الى الشرفة، فما إن جلسنا حتى أخذت أتكلم بهدوء كامل عما سيقدر مصير حبي في ذلك المساء نفسه. أخذت أتكلم في الوقت المناسب، لا قبله ولا بعده، أي في

اللحظة التي كنا نجلس فيها بالشرقة، قبل أن يقول أحد منا شيئاً، وقبل أن يجري الحديث مجرى يمكن أن يصرفني عما عقدت العزم على الكلام فيه. لا أعرف أنا نفسي من أين جاءني ذلك الهدوء، وكيف جاءني تلك الدقة في اختيار الألفاظ. لكأنني كنت لا أتكلم من نفسي، وإنما تملي علي الكلام إرادة مستقلة عن إرادتي. كان جالساً أمامي، متكئاً بكوعه على الدرازين، يشد إليه غصناً من أغصان شجرة ليلاً، ويتنزع أوراقه. فلما شرعت في الكلام، أرخى الغصن، وأسند رأسه إلى يده. ذلك أمر يفعله المرء في إحدى حالتين، فإما هو هادئ كل الهدوء، وإما هو منفعل أشد الانفعال.

قلت برصانة، من دون تعجل، وأنا أحدّق إليه: لماذا تسافر؟ فلم يجب على الفور. صمت للحظات. ثم قال وهو يخفض عينيه: - الأعمال!

فأدركت كم يصعب عليه أن يكذب، لا سيما في الإجابة عن سؤال يلقي بمثل هذه الصراحة. قلت:

- إصغ إلى كلامي. أنت تعرف ما لهذا اليوم عندي من شأن كبير. ثمة أسباب كثيرة تجعله بالغ الخطورة. وإذا كنت قد ألقيت عليك ذلك السؤال، فإنني لم أفعل ذلك إظهاراً للاهتمام بك فأنت تعلم أنني متعلقة بك وأنني أحبك، وإنما أنا أفعل ذلك لأنني يجب أن أعرف. لماذا تسافر؟

- يصعب عليّ جداً أن أقول لك الحقيقة. لقد فكرت كثيراً طوال هذا الأسبوع، فكرت فيك وفي نفسي، فقررت أن عليّ أن أرحل. هل تدركين لماذا؟ إذا كنت تحبينني فلن تلقي علي أسئلة أخرى. وحكّ جبينه، وغطى عينيه بيده. وأردف يقول:

- يشق عليّ هذا جداً... ولكنك فهمت كل شيء...

أخذ قلبي يخفق خفقاناً شديداً. وقلت:

- لا أستطيع أن أفهم... لا «أستطيع». عليك أن تتكلم. في هذا اليوم

تكلم، ناشدتك الله. يجب أن تتكلم وإني لأستطيع أن أسمع كل شيء بهدوء.

فغيّر وضعه، ونظر إليّ، وشدّ غصن شجرة الزيزفون مرة أخرى.

وبعد صمت قصير، عاد يتكلم فقال بصوت يحاول أن يجعله ثابتاً

فلا يفلح، قال وقد تبدّلت قسّمات وجهه كأنه يعاني ألماً جسيماً:

- سأحاول أن أشرح لك الأمر، وإن كان التعبير عنه بالكلام غباء

واستحالة...

- هيه...

- تخيلي أن هناك رجلاً... ولنسمّه «أ»... مسناً استنفذته الحياة...

وأن هناك امرأة... ولنسمّها «ب»... شابة سعيدة، لا تعرف عن الحياة

وعن الرجال شيئاً. إن ظروفاً عائلية شتى قد جعلت هذا الرجل يحب

هذه المرأة كأنها ابنته، وكان يخشى أن يحبها حباً غير هذا الحب...

وصمت، وانتظرت أن يتابع كلامه. ثم عاد يتكلم فقال فجأة بتدفق

سريع جازم من دون أن ينظر إليّ:

- ولكن الرجل نسي أن «ب» شابة في مستقبل الممّة. وأن الحياة لا

تزال تبدو لها لعباً، وأن من السهل أن يحبها حباً غير ذلك الحب، فتجد

هي في ذلك تسليّة سارة. ولكنه أخطأ ظنه، فها هي عاطفة أخرى، عاطفة

ثقيلة كعذاب الضمير، تتسلل الى نفسه فتروّعه. لقد أوعبه أن يرى علاقات

الصداقة بينهما تزول، فقرر أن يرحل قبل أن تزول هذه العلاقات.

وفيما كان يقول هذا الكلام ويصطنع طلاقة مفتعلة، أخذ يفرك عينيه، وغطاهما بيده. فقلت:

- ولكن لماذا كان يخشى أن يحبها حباً غير ذلك الحب؟

ولا شك أن لهجتي بدت له مسرفة في الخفة، فها هو ذا يجيبني وقد ظهر على وجهه أنه مجروح:

- وأنت شابة وما أنا بشاب. أنت تريدان أن تتسلي وأنا في حاجة الى شيء آخر. العبي ولكن لا تلعب معي، وإلا فقد أصدقتك، فأشقى أنا وتشعرين أنت بعذاب الضمير.

ثم أضاف يقول:

- إن «أ» هو الذي يكلمك. على كل حال، هذه كلها سخافات وأنت تفهمين لماذا أرحل. فلا نتكلمن بعد في هذا الأمر، أرجوك...

قلت بصوت قريب من الدموع:

- بل فلتكلم في الأمر. أكان يحبها أم لا؟

لم يجب. وتابعت كلامي فقلت:

- إذا لم يكن قد أحبها، فلماذا لعب بها كما يلعب بطفلة؟

قال يقاطعني متعجلاً:

- نعم، نعم. لقد كان «أ» أثماً. ولكن كل شيء انتهى. واقتربا الآن...

صديقين!

دمدمت أقول مرتاعة مما قلت:

- ولكن هذا رهيب! أليس هناك مخرج آخر؟

قال وهو يكشف عن وجهه المضطرب ويحدق إليّ:

- بلى! هناك مخرج آخر. بل هناك مخرجان اثنان. ولكن، رحماك، لا

تقاطعي، وحاولي أن تفهمي ما أقول.

وتابع كلامه، فقال وهو ينهض ويتسم ابتسامة أليمة:

- بعضهم يدّعي أن «أ» فقد عقله، وأنه جنّ بحب «ب» جنوناً وأنه صارحها بذلك فلم تزد على أن ضحكت. لقد كان الأمر في نظرها لعباً ولهواً، أما في نظره فكان قضية حياة أو موت.

ارتعشتُ، وأردت أن أقاطعه، وأن أمنعه من التحدث بلساني والكلام نيابة عني، لكنه توقع ردي هذا فوضع يده على يدي، وقال بصوت متهدج:

- وبعضهم يزعم أنها قد أخذتها به شفقة، وتخيلت هي المسكينة التي لم تعرف من الحياة شيئاً أنها تستطيع أن تحبه، وظن هو المسكين المجنون أنه يستطيع أن يبدأ حياته من جديد، ولكنها أدركت من تلقاء ذاتها أنها قد خدعته وأنها قد انخدعت هي نفسها.

وختم كلامه بقوله: لا تتكلمن عن هذا بعد!

وكان واضحاً أنه عاجز عن إتمام حديثه. فأخذ يذرع أرض الشرفة. لقد قال «لا تتكلمن عن هذا بعد!». لكنني رأيت أنه كان بكل خلجة فيه ينتظر جوابي. وكنت أود أن أتكلم ولكنني لا أستطيع، فإن حملاً ثقيلاً كان يجثم على صدري ويخنقني خنقاً. ونظرت إليه، فرأيت شاحب اللون، ورأيت شفته السفلى ترتجف. فأشفقت عليه، وبذلت جهداً، ثم إذا أنا أقطع جبل الصمت الذي كان يكبلني، وأخذ أتكلم بصوت هادئ عميق كنت أخشى أن أراه يتحطم في كل لحظة قلت:

- والمخرج الثالث...

وانتظرت، لكنه ظل صامتاً. فتابعته أقول:

- الافراض الثالث هو أنه لم يكن يحبها، وأنه آلمها كثيراً، واعتقد بأن من حقه أن يرحل، فرحل فألمها مزيداً من الإيلام، رحل وهو يشعر بنوع من الفخر والاعتزاز. في نظرك أنت لا في نظري أنا إنما كان ذلك كله لعباً ولهواً. لقد أحبيتك منذ اليوم الأول....

ورددت أقول مرة أخرى:

- أحبيتك.

ورأيت أن صوتي الهادئ العميق قد استحال حين ترديد كلمة «أحبيتك» هذه، الى صرخة أرعبتني أنا نفسي.

كان واقفاً أمامي شاحب الوجه، وكانت شفته السفلى ترتجف مزيداً من الارتجاف شيئاً بعد شيء، وسالت على خديه دمعان.

صحت أقول وأنا أكاد أختنق بدموعي المكبوحة:

- سيء هذا الذي تفعله! ماذا صنعت حتى أستحق منك هذا الشر؟

ونهمضت لأتركه. لكنه لم يدع لي أن أمر، بل أراح رأسه على ركبتيّ وجعل يقبل يديّ اللتين كانتا لا تزالان ترتجفان، فتبتل بدموعه راحتي. وقال: يا رب... لو أنني علمت...

وظللت أردد قولتي: ماذا فعلت حتى أستحق منك هذا الشر؟

ولكنني نفسي كانت تفيض بالسعادة، بالسعادة التي ذهبت الآن ثم لم تعد أبداً.

بعد خمس دقائق، كانت صونيا تصعد الى كاتيا ركضاً وهي تصيح: «ماشا تريد أن تتزوج سرجني ميخائيلوفتش».

- 5 -

لم يكن هناك أي سبب يدعو إلى تأخير زواجنا، ولم نكن نريد هذا التأخير، لا أنا ولا هو. صحيح أن كاتيا أفصحت عن أمنيتها أن تسافر إلى موسكو لتوصي على الجهاز. وصحيح أن حماني المقبلة تمت أن يقتني ابنها قبل الزفاف مركبة، وأن يشتري أثاثاً جديداً، وأن يتجدد فرش المنزل. ولكننا أصررنا على أن هذا كله يمكن أن يتم بعد الزفاف إذا مسّت الحاجة إليه. وقررنا أن نتزوج بعد عيد ميلادي بخمسة عشر يوماً، بلا جهاز، ولا دعوات، ولا غلمان شرف، ولا عشاء، ولا شمبانيا، أي بلا أي شيء من هذه الأشياء الإضافية التي اصطلاح الناس عليها في احتفال كهذا الاحتفال. وقد حكى لي سرجي كيف أن أمه قد ساءها أن يحتفل بالزواج بلا موسيقى، وبلا أكداش من الصناديق، وبلا تجديد للمنزل كله. فان هذا لا يشبه عرسها هي، الذي كلف ثلاثة آلاف روبل! وعلى غير علم منه أخذت تنبش صناديقها وتجري أحاديث خطيرة مع خادمتها ماريوشا عن السجاجيد والستائر والصينيات وما إلى ذلك مما

تري أنه لا بد منه في رأيها لسعادتنا. وكذلك أخذت كاتيا تفعل مع مربيتنا كوزميتشا، ولم يكن ثمة مجال للهزل معها في هذا الأمر. لقد كانت مقتنعة اقتناعاً راسخاً بأننا حين نتحدث أنا وسرجي عن مستقبلنا لا نزيد على أن نتبادل كلمات عاطفية ولا نهتم إلا بترهات وسفاسف، فهذا شأن من كان في مثل حالتنا، على حين أن سعادتنا في المستقبل إنما هي مرهونة بحسن تفصيل قمصاني وتطريزها، ودقة شغل الأغطية والمناشف. وكانت بوكر وفسكوبا ونيكولسكوبا يتبادلان في كل يوم أنباء سرية عن الاستعدادات الجارية. ورغم أن العلاقات بين حماتي وكاتيا كانت في الظاهر دمة كل الدماء فقد كان المرء يلاحظ في الواقع أن بينهما عداوة صامتة تطفها «دبلوماسية» رقيقة. إن تاتيانا سيميونوفنا، التي صرت أعرفها الآن معرفة أكمل، امرأة متعجرفة، وربة بيت صارمة، وسيدة كبيرة من الطراز القديم. وكان سرجي ميخائيلوفتش لا يحبها حب الابن لأمه قياماً بالواجب فحسب، بل كان يحبها حباً صادقاً خالصاً، ويقدرها قدراً عظيماً، ويعدها أحسن نساء العالم، وأذكاهن، وأكثرهن مودة ومحبة. ولقد كانت تاتيانا سيميونوفنا تعاملنا دائماً أطيب معاملة، وتعاملني أنا خاصة أطيب معاملة، ولكن لم يفتها حين زرتها، وأنا خطيبة ابنها، أن تلمع الى أن ابنها كان يستطيع أن يوفق الى زوجة أحسن، وانني أحسن صنعا إذا لم أنس هذا في يوم من الأيام... ففهمت رأيها كل الفهم.

أصبحنا نلتقي خلال هذين الأسبوعين كل يوم. كان سرجي يعجيء الى الغداء، ويمكث الى منتصف الليل. ورغم ما كان يقوله من أنه في البعد عني لا يحيا (ولقد كنت أعلم أنه صادق في ما يقول)، فما من يوم

واحد قضيناه معاً الى آخره. لقد استمر في الاهتمام بأعماله. ولم يتبدل مظهر علاقاتنا الى أن تم الزواج، فهو لا يزال يخاطبني بصيغة الجمع، وهو لا يقبل يدي، وهو لا يسعى الى أن يخلو بي، بل هو كمن يتجنب هذه الخلوة تجنباً مقصوداً. فكأنه يخشى الاستسلام لحبه الكبير المخيف. لا أدري من منا تغير، ولكنني شعرت حينئذ بأنني أساويه في كل شيء، فلست أرى فيه تلك البساطة المصطنعة التي كانت لا ترضيني، اختفى الرجل المهيب الذي يثير الخشية والاحترام، ولم يبق أمامي إلا طفل وديع طاش صوابه سعادة. «لا شيء فيه غير هذا!». وصار يتراءى لي أن نفسه لا تشتمل على أسرار خافية عني، وأنني قد فهمته فهماً كاملاً. وكل ما اكتشفه فيه، أصبحت أراه بسيطاً غاية البساطة، مطابقاً لما في نفسي. حتى مشاريعه للمستقبل هي مشاريعي، باستثناء فرق طفيف هو أنها ربما كانت عنده أكثر وضوحاً وأشدّ تحديداً.

الجوردي، فنحن نقضي أكثر يومنا في البيت وأحاديثنا الحميمة انما تجري في زاوية من الصالون بين البيانو والنافذة. وعلى النافذة ينعكس ضياء الشموع، وعلى زجاجها تسيل قطرات المطر. وابل المطر يقرع السقف قرعاً، وماؤه يساقط في البركة تحت المزراب ويتراقص عليها، والرطوبة تنفذ من مصاريع النافذة، فلا يزداد ملاذنا من ذلك كله إلا اشراقاً وطرارة وفرحاً.

قال لي ذات ليلة وقد لبشنا في ركننا الى ساعة متأخرة:

- هل تعلمين؟ أنني أريد منذ مدة طويلة أن أقول لك شيئاً: بينما كنت

تلعين كنت لا أفكر إلا في هذا الأمر.

- لا تقل شيئاً فأنا أعلم كل ما قد تقوله.

- نعم، صحيح، لا نتكلمَن في هذا.

- بل قل. ما هو الأمر؟

- هل تذكرين اليوم الذي كلمتك فيه عن «أ» و «ب»؟

- كيف لا أذكر تلك المسألة السخيفة؟ من حسن الحظ أنها انتهت الى

خير...

- كنت على وشك أن أفقد سعادتي الى الأبد بخطأي. فأنقذتني أنت،

ولكن أخطر ما في الأمر هو أنني كنت أكذب، وإنني لأشعر الآن من ذلك

بخزي، فأود أن أعترف لك بكل شيء الى النهاية.

- أرجوك، لا تفعل!

قال مبتسماً:

- لا تخشي شيئاً، فإنما أنا في حاجة الى أن أجد لنفسي مسوِّغاً. لقد

بدأت الكلام رغبة مني في الاستدلال المنطقي.

- علام هذا! لا حاجة إليه أبداً.

- نعم، لقد أسأت الاستدلال ولم أحسنه، ذلك أنني حين عدت الى

الريف بعد كل ما منيت به من خيبات الأمل، وكل ما وقعت فيه من أخطاء،

قلت لنفسي جازماً إن الحب قد انتهى بالنسبة إليّ، فلم يبق لي إلا الواجب.

ولم أستطع أن أتبين على الفور ما تحمله نفسي من عواطف، ولا كنت

أستطيع طبعاً أن أتخيل ما ستقودني إليه هذه العواطف. كنت آمل من دون

أن آمل. تارة يترأى لي أنك لا تزيدني على الغنج، وتارة أثق بك وأطمئن

إليك. وفي الحالين كليهما لا أعرف ماذا أعمل. ولكن بعد تلك الأمسية...

تذكرين أمسية نزهتنا في الحديقة ليلاً... اعتراني خوف: بدت لي سعادتي

الحاضرة مسرقة في السعة، مستحيلة البلوغ. ما عسى كان يقع لي لو أبحت

لنفسي أن آمل في غير طائل؟ وكنت لا أفكر طبعاً إلا في نفسي، فأنا امرؤ أنانيّ كرهه.

وصمت لحظة وهو ينظر إليّ. ثم أردف:

- مع ذلك لم يكن كل ما قلته لك حينذاك خالياً من المعنى. لعلني كنت أشعر بخوف، بل لا بد أنني أشعر بخوف. إنك تجيئني بأشياء كثيرة، وأنا لا أجيئك إلا بالقليل القليل. أنت طفلة، أنت برعم سيتفتح، أنت تحبين أول مرة، أما أنا...

قلت: نعم، كلمني بالصدق كله...

لكنني سرعان ما خفت من جوابه، فاستدركت قائلة:

- بل لا تقل شيئاً.

فقال وقد حزر ما دار في خلدي:

- ماذا؟ تقصدين هل أحبيت من قبل؟ أهذا ما تعنين؟ لا، لم أحب في يوم من الأيام. لم أشعر يوماً بشيء يشبه ما أشعر به الآن من عاطفة... ولكن كأن ذكرى اليمعة قد انبجست فجأة في خياله، فقال برقة وحنان:

- لا، هنا أيضاً أنا في حاجة إلى قلبك كله ليحس لي أن أحبك. ألم أكن على صواب إذ قررت أن أفكر قبل أن أعترف لك بحبي. بماذا أجيئك؟ بالحب؟ نعم، هذا صحيح.

سألته وأنا أنظر إلى عينيه:

- أليس هذا كافياً؟

وتابع هو كلامه فقال:

- هذا قليل جداً يا صديقتي، قلبك عليك. إنك تملكين الجمال والشباب!

كثيراً ما أقضي الآن لياليّ برمتها مسهّداً لا أنام من فرط سعادتي، مفكراً في الحياة التي سنحياها معاً. لقد عشت طويلاً فساظن أنني قد اكتشفت ما أنا في حاجة إليه حتى أكون سعيداً: حياة هادئة، معتزلة، في ريفنا المنعزل، والقدرة على فعل الخير لهؤلاء الناس الذين نسهل خدمتهم كثيراً، لأن ذلك أمر لم يألفوه، ثم العمل، العمل الذي ينفع، وأخيراً الراحة، والطبيعة، والكتب، والموسيقى، وحب الحبيب. تلك هي السعادة التي لا أتخيّل شيئاً عداها ولا أحلم بسواها. ثم توافيني فوق ذلك كله صحبة كصحتك، وربما أرزق أسرة فأوهبُ كل ما يمكن أن يتمناه انسان.

قلت: نعم.

- تصدق كلمة نعم هذه على رجل تقدم في السن فما هو الآن بشاب، ولكنها لا تصدق عليك أنت. أنت لم تعيشي بعد، وقد تبحثين عن السعادة في غير هذا الذي وصفت، وقد تجددين هذه السعادة فعلاً في غير ما ذكرت. اليوم يترأى لك أن السعادة هنا لأنك تحبينني.

- بل أنا تمنيت دائماً وأحييت دائماً هذه الحياة العائلية الهادئة. وأنت في ما قلته لم تزد على أن عبّرت عما يدور في خاطري أنا نفسي.

ابتسم. ثم قال:

- يترأى لك يا صديقتي!... ذلك لا يمكن أن يكفيك.

ثم ردد جملة التي قالها منذ حين، ردها شارد الفكر:

- إنك تملكين الجمال والشباب!

حنقت عليه لأنه لا يصدّقني، ولأنه يأخذ عليّ أن أكون شابة. وأن أكون جميلة. فقلت له غاضبة:

- فلماذا تحبني إذا؟ أتحبني لشبابي أم تحبني لذاتي؟

- لا أدري. ولكنني أحبك.

أجاب بذلك وهو يحرق الي بنظرة متنبهة جذابة.

لم أرد عليه، وشخصت ببصري الى عينيه متفرسة كأنما رغم إرادتي. فاذا بشيء غريب يعتريني فجأة: أصبحت في أول الأمر لا أرى ما حوله، ثم غاب عني وجهه إلا عينيه تتألقان بقرب عيني في ما يبدو لي، ثم أحسست أن عينيه قد صارتا فيّ، واختلطت الأمور كلها، فأصبحت لا أميز شيئاً، وخففت حاجبيّ لا تخلص من ذلك الإحساس اللذيذ بالخوف الذي تثيره في نفسي نظراته...

صحا الجو في عشية اليوم المحدد موعداً للزواج. فكانت تلك أول أمسية صافية باردة من أماسي الخريف بعد أمطار الصيف. كان كل شيء بارداً مبتلاً مضيئاً، حتى ليري المرء في الحديقة منذ ذلك الحين ما يأتي به الخريف من تعري الأغصان وتنوع الألوان وانفساح المكان. والسماء رائقة باردة شاحبة. وصعدت الى غرفتي لأنام، فكنت أسعد حين أتصور أن الغد، وهو يوم عرسي، سيكون الجو فيه جميلاً.

واستيقظت مع شروق الشمس، وتذكرت أن هذا اليوم هو يوم عرسي... فدهشت حتى لكدت أرتاع. ونزلت الى الحديقة. الشمس قد طلعت منذ هنيهة، فهي تتلألأ متمزقة بين أغصان أشجار الزيزفون التي تعرت من أوراقها. وكان ممر الأشجار مفروشاً بالأوراق الميتة تخشخش تحت القدمين. وكانت العناقيد الذابلة من ثمار أشجار الغبيراء بقعاً ساطعة بين الأوراق القليلة التي غصنها الصقيع. وكانت أشجار الدهلية سوداء زاوية. ولأول مرة كانت الملححة تلون ببريق الفضة خضرة العشب الحائلة وحشائش البلسكاء قرب المنزل. وكانت السماء الصافية الباردة خالية من أية غمامة.

تساءلت وأنا لا أجزؤ أن أصدّق سعادتي: «اليوم عرسي حقاً؟ هل يعقل أن لا أستيقظ من نومي غداً هنا بل في المنزل ذي الأعمدة بأرض نيكولسكويّا؟ أصبح أني لن أنتظره بعد الآن، ولن أتكلّم عنه في الليل مع كاتيا؟ وأنني لن أبقى جالسة معه أمام البيانو في صالون بوكروفسكويّا؟ وأنني لن أمضي أشيئعه ولن أقلق عليه حين ينصرف في الليل المظلم؟». وأذكر أنه قال بالأمس إن هذه هي المرة الأخيرة التي يجيء فيها إلينا. وقد أجبرتني كاتيا على أن أجرب فستان الزفاف قائلة لي: «ستلبسينه غداً». وصدقت كلامها لحظة ثم عاد الشك يساورني، وأخذت أحدث نفسي قائلة: «هل يعقل أنني سأمضي أعيش هناك في هذا اليوم نفسه مع حماتي، محرومة من مربّيتي، ومن العجوز جريجوار، ومن كاتيا؟ وأنني لن أقبل بعد اليوم مربّيتي، متمنية لها ليلة سعيدة، وأنني لن أرى بعد اليوم إشارة الصليب ترسمها علي بعادة قديمة، قائلة لي: «أرجوك نوماً هانئاً يا آنسة؟» وأنني لن أعمل ولن ألعب بعد اليوم مع صونيا، ولن أفرع جدار غرفتها في الصباح، فأسمع ضحكها الرنان؟ هل يعقل أنني سأصبح منذ اليوم غريبة عن نفسي، وأن تحقّق آمالي ورغباتي سيفتح لي باب حياة جديدة؟ وهل يعقل أن تكون هذه الحياة الجديدة هي خاتمة المطاف؟». وانتظرت سرجي ميخائيلوفتش نافذة الصبر، فقد كان يشق علي أن أخلو إلى خواطري وحيدة. ووصل سرجي مبكراً، وحين وصل إنما صدقت أخيراً أن زواجي واقع في هذا اليوم حقاً، فكفت هذه الفكرة عن تعذيبي.

وقبل الغداء ذهبنا إلى الكنيسة لأقامة صلاة على روح أبي. وحدثت نفسي أثناء العودة قائلة: «لو أنه لا يزال حياً...»، واستندت إلى ذراع

الرجل الذي كان خير صديق لمن كنت أفكر فيه. كنت أثناء القداس، حين ألمس بجبهتي البلاطات الباردة في الكنيسة، أتخيل أبي تخيلاً قوياً حتى لا أكاد أراه، وأؤمن إيماناً راسخاً بأن روحه تفهمني وتحبّذ ما وقع عليه اختياري، وبلغت من ذلك كله أنني ظللت الى تلك اللحظة أتصور أن روحه تحلّق فوقنا وتباركنا. وانصهرت ذكرياتي وآمالي وسعادتي وأساي، انصهر ذلك كله في إحساس واحد قوي مُسكِر يناسب ذلك السكون الطري، وذلك الصمت الساجي، وذلك العري في الحقول، وذلك الشحوب في السماء التي تسقط منها على جميع الأشياء أشعة مضيئة لكنها واهنة تحاول أن تحرق خدي فلا تغلح. وكان يبدو لي أن زوجي يفهمني ويشاركني عواطفني. كان يتقدم صامتاً، وكان وجهه الذي أختلس النظر اليه يعبر ذلك التعبير نفسه عن الفرح والأسى الناعم، الذي كان يتجلى في الطبيعة وكان يملأ نفسي. والتفت الي فجأة، فعرفت أنه يريد أن يقول لي شيئاً. فقلت لنفسي: «ماذا لو كلمني عما أنا أفكر فيه؟»، فإذا هو يحدثني عن أبي، حتى من دون أن يذكر اسمه. قال:

- قال لي ذات يوم مازحاً: ماذا لو تزوجت ماشا؟

فقلت وأنا أضغط ذراعه التي أتكئ عليها مزيداً من الضغط:

- لو كان حياً لسعد اليوم سعادة عظيمة!

قال سرجي ميخائيلوفتش وهو ينظر إلى عيني:

- نعم، لم تكوني إلا طفلة في ذلك الحين، وكنت أقبل عينيك لا لشيء

إلا لأنهما تشبهان عينيه، ولم أكن أتنبأ بأنني سأحبهما لذاتهما. وكنت أنا ديك في ذلك الزمان ماشا.

قلت: خاطبني بصيغة المفرد.

قال:

- هممت أن أخاطبك بصيغة المفرد. اليوم إنما أحس بأنك لي حقاً.
وتلبثت عليّ نظرتة الهادئة السعيدة الأسرة.

وظللنا نتقدم خلال الحقول في طريق لا يكاد يبين، وكانت خطانا
وصوتانا تقطع وحدها الصمت. في إحدى الجهتين يمتد حقل يضرب
لونه الى سمرة، قد غطته الحشفة، وأخذ فلاح يشق فيه بمحراثه سُلماً
أسود ما ينفك يزداد عرضاً. فمنظر هذا الحقل يشمل الأفاصي من فوق
الوادي، ويصل الى الغابة التي تعرت أشجارها من الأوراق، ويضم
قطيع الأفراس الذي يمر عند سفح الأكمة ويبدو قريباً كل القرب. وفي
الجهة الأخرى، وأمامنا حتى البستان والمنزل الذي يلمح في آخره،
يعلو قمح الخريف مخضوضراً هنا وهناك في الحقل الأسود الذي
ذاب عنه الصقيع. وعلى كل شيء تتلألأ شمس باردة، على كل شيء
تستريح خطوط طويلة من الكوكب البكر، تتموج حولنا، وتسقط على
حشفة يئسها الجليد، وتلتصق بأعيننا وشعرنا وثيابنا. فإذا تكلمنا ترجع
صوتانا وتلبثا فوقنا في الهواء الساكن كأننا وحيدان في هذا العالم تحت
قبة هذه السماء الزرقاء التي تتوهج فيها شمس لا حرارة لها ترنesh
كالمتراقصة.

أنا أيضاً كنت أود أن أخاطبه بصيغة المفرد لكنني لا أجرؤ. ثم
عزمت أمري فقلت له بهذه الصيغة مدممة:

- لماذا تسرع في السير هذا الاسراع؟
واحمراً وجهي احمراراً شديداً رغم إرادتي.

فأبطأ في خطوه، ونظر إليّ بمزيد من العاطفة والحنان، ومزيد من السعادة أيضاً.

حتى إذا وصلنا البيت وجدنا أمه تنتظرنا مع الضيوف الذين كانت دعوتهم أمراً لا غنى عنه. فلم أخلُ إليه ولم أتفرد به الى أن ركبنا العربة عند خروجنا من الكنيسة ذاهبين الى نيكولسكوبا.

كانت الكنيسة شبه خالية. فكنت أرى حماتي واقفة على سجادة بقرب الخورس، وأرى كاتيا وقد وضعت على رأسها طاقية لها شريط بلون البنفسج، وأخذت الدموع تسيل على عينيها، وأرى خادمين أو ثلاثة يتأملونني مستظلمين. لم أنظر الى سرجي ميخائيلوفتش، ولكنني كنت أحس بحضوره الى جانبي. وحرصت على أن أسمع كلمات الصلوات سماعاً واضحاً، حتى لقد كنت أرددها، ولكن نفسي لم ترجع أي صدى لها. كنت لا أستطيع أن أصلي. فأنا أنظر، مبهوّة، الى الأيقونات، والشموع، والصليب المطرز على حلة القداس التي يلبسها الكاهن، وحاجز الأيقونات، والزجاج المعشق، ولا أفهم شيئاً. لكنني أحسُّ بأن حادثاً خارقاً يتم حولي. حتى إذا التفت الكاهن إلينا مع صليبه، هتأني وقال إنه هو الذي عمّدني، وإن إرادة الله شاءت أن يزوّجني هو أيضاً. وقبلتنا حماتي وكاتيا، ودوّى صوت جريجوار منادياً المركبة. فأدهشني ورؤّعني أن يكون كل شيء قد انتهى، وأن نفسي لم يحدث فيها أي شيء استثنائي يناسب السر الذي تحقق. وقبل كل منا الآخر، ولكن هذه القبلّة بدت لي غريبة لا علاقة لها بعاطفتنا. حتى لقد قلت بيني وبين نفسي: «أهذا هو الأمر كله؟». وخرجنا الى فناء الكنيسة، وترجعت جلبة العجلات ثقيلة تحت القبة، ولطمت

وجهي نسمة هواء بارد، ووضع سرجي ميخائيلوفتش قبعة على رأسه، وساعدني في صعود العربة. وأبصرت القمر من خلال الزجاج وقد حفت به هالة أيام الجليد. وجلس زوجي بقربي، وأغلق باب المركبة. شعرت بما يشبه أن يكون طعنة في قلبي. لكن ما أراه فيه من ثقة هادئة يجرح شعوري ويؤذي كرامتي. ودوى صوت كاتيا تحضني على أن أغطي رأسي، وسارت العجلات على الطريق المرصوف أولاً، ثم انخرطت في الطريق اللين الرخو، ورحلنا!... غصت في ركن من العربة، وأخذت أتأمل، من خلال الزجاج، الحقول البعيدة، والطريق الذي يوغل في سناء القمر، البارد. ومن دون أن أنظر الى سرجي، كنت أحس بجانبي، وأقول لنفسني: «هذه اللحظات التي طالما انتظرتها لم تجنني بشيء كثير»، وبدا لي أنه من المهانة والمذلة أن أبقى هنا وحيدة قريبة منه هذا القرب كله. فالتفت وقد عقدت العزم على أن أقول له شيئاً. ولكن الكلمات لم تسعفني، فكان ما كنت أحمله من حنان قد زال وحل محله إحساس بالمهانة والخوف.

قال سرجي برقة ولطف، رداً على نظرتي إليه:

- كنت إلى هذه الدقيقة لا أصدق أن هذا ممكن.

قلت: نعم... ولكن... لا أدري لماذا أنا خائفة!

- خائفة مني يا صديقتي؟

قال ذلك وهو يتناول يدي ويميل عليها. فسكنت يدي في يده بلا حياة، وشعرت بقلبي الموجع ينقلص برداً. وقلت مدمدمة: نعم. ولكن قلبي أخذ يخفق في تلك اللحظة خفقاناً أشد، وارتجفت يدي وضغطت يده، واجتاحني حرارة، وراحت عيناي تبحثان عن نظره في

ما يشبه الظلام، وأدركت فجأة أن الخوف قد بارحني، وأن تلك الخشية كانت حباً، حباً جديداً كل الجدة، حباً أعمق مما كان يملأ قلبي قبل ذلك من حب. وأحسست بأنني ملك يمينه، فأسعدني ما له عليّ من سلطان.

القسم الثاني

- 1 -

انقضت الأيام والأسابيع. ومرَّ شهران من حياة في الريف هادئة معتزلة لا نحس بمرورها، أو ذلك ما اعتقدته حينذاك على الأقل. والواقع أن الانفعالات والاحساسات والسعادة التي عرفناها في تلك الأسابيع القليلة يمكن أن تكفي حياةً بكاملها. صحيح أن الأحلام التي بنيناها عن أسلوب حياتنا المعتزلة لم تتحقق كما كنا نتمنى. ولكن حياتنا نفسها لم تكن أقلَّ مما حلمنا به. كان ينقصنا العمل الصارم، وشعور القيام بالواجب، والتفاني، والتضحية بالنفس في سبيل الغير مما كنت أتخيله أثناء الخطوبة، فلم يكن بيننا إلا حب أناني، ورغبة لدى كل منا في أن يحبه الآخر، وفرح دائم ونسيان كامل لكل ما عدا ذلك في الكون. صحيح أن زوجي كان في بعض الأحيان يعتزل بمكتبه ليعمل، أو كان يسافر إلى المدينة، أو كان يمضي يهتم بشؤون أعماله. لكنني كنت أرى رؤية واضحة أنه كان عليه كثيراً أن يتركني. حتى لقد كان يعترف لي هو نفسه أن كل ما عداي يبدو له خليقاً بأن يهمل فلا

يتصور أن في وسعه بعد الآن أن يهتم به. وكذلك كان شأنني أنا. كنت أقرأ، وأعزف على البيانو، وأعنى بأمر المدرسة، أو أصحب حماتي. ولكنني كنت لا أفعل شيئاً من هذا كله لأن له علاقة به، فمتى غابت صورته عن عمل من الأعمال، هجرت ذلك العمل، لاعتقادي بأنه لا يمكن أن يوجد في العالم شيء غير زوجي! لعل هذا لم يكن إلا أنانية. ولكن هذه الأنانية كانت تحمل إلي السعادة، وترفعني فوق مستوى الحياة اليومية. كان العالم في نظري خالياً إلا من زوجي، وكنت أعد زوجي أحسن رجل على وجه الأرض. فكنت لا أستطيع أن أحيا إلا من أجله، كيما أظل في نظره ما كان يريد أن يراه فيّ. وكنت في نظره أجمل امرأة في العالم، وكان يراني متحلية بجميع المزايا والفضائل. وكنت أحاول أن أكون كذلك في نظر هذا الرجل الذي أعده أحسن رجل على وجه الأرض.

في ذات يوم دخل غرفتي بينما كنت أصلي. فنظرت إليه واستمررت في تلاوة صلواتي. فجلس بقرب النافذة حتى لا يزعجني، وفتح كتاباً. وبدأ لي أنه ينظر إلي، فالتفت نحوه، فابتسم، فانفجرت ضاحكة، ولم أستطع أن أستانف تلاوة صلواتي.

قلت أسأله:

- هل صليت؟

- نعم. أكملتي صلاتك.

- آمل أن تصلي حقاً.

وأراد أن يخرج من دون جواب. لكنني استوقفته، وقلت له:

- عزيزي، أرجوك، افعل هذا من أجلي، اتل صلواتك معي. فوقف إلى

جانبني، ودلّى ذراعيه بحركة خرقاء، وبدأ يتلو صلاته متردداً عابس الوجه،
وينظر إليّ من حين إلى حين ناشداً مساعدتي ورضاي.

فلما انتهى عانقته ضاحكة.

قال وهو يحمّر ويقبل يديّ:

- دائماً أنت، دائماً أنت! لكانني عدت إلى السنة العاشرة من عمري!

كان منزلنا واحداً من تلك المنازل الريفية العريقة التي تعاقبت عليها
عدة أجيال يملأ قلوبها الحب والاحترام. ففي هذا المنزل تشيع ذكريات
عائلية نبيلة أصبحت ذكرياتي أنا منذ حللت فيه. الأثاث والترتيب الذي
أقامته تاتيانا سيميونوفنا يذكّرنا بالأزمة القديمة. لا يمكن أن نزعّم أن
كل شيء في هذا المنزل كان جميلاً وأنيقاً. ولكننا نستطيع أن نقول
إن كل شيء فيه، ابتداءً من الخدم وانتهاءً بالأثاث ومروراً بالطعام،
كان وافرأً، ونظيفاً، ومتيناً، وكان في حالة حسنة، وكان يحمل على
الاحترام. الأثاث في الصالون رُتب متناظراً، وكذلك الصور المعلقة
في الجدران. وعلى الأرض مُدّت بسط وحصر. وفي المقصورة وُضع
بيانو ذو ذيل، وخزانتان مختلفتان لهما أدراج، ودواوين واسكمالات
مرصعة. وفي غرفتي التي زيتها تاتيانا سيميونوفنا، وُضعت أجمل قطع
الأثاث التي تنتمي إلى عصور مختلفة، ومنها مرآة قديمة كنت في أول
الأمور لا أستطيع أن أنظر إلى صورتي فيها إلا وأرتاع، لكنها غدت بعد
ذلك عزيزة على نفسي كصديق قديم. وكان صوت تاتيانا سيميونوفنا
لا يُسمع في المنزل أبداً. كل شيء يجري بدقة تامة كساعة مضبوطة،
رغم كثرة الخدم. فجميع الخدم يتعلّون أحذية مرنة ليست بذات كعب
(إن تاتيانا سيميونوفنا ترى في ضجة وقع الأقدام إزعاجاً لا يضارعه في

هذا العالم إزعاج) وكانوا كالفخورين بما هم فيه، وكانوا يرتعدون أمام السيدة العجوز نهيباً، وينظرون إلينا، أنا وزوجي، نظرة رقيقة تحمل معنى الحماية والرعاية. الخلاصة أن كل واحد كان يبدو عليه أنه يقوم بواجبه راضياً كل الرضا مبتهجاً أعظم الابتهاج. وفي كل يوم من أيام السبت كانت أرض المنزل تُغسل حتماً وكانت تُنظف السجاجيد، وفي مطلع كل شهر كانت تُقام الصلاة مع التبرك بالماء المقدس، وفي عيد تاتيانا سيمونوفنا، أو في عيد ابنها (أو في عيدي أنا الذي احتفل به لأول مرة في هذا الخريف) كانت تولم ولائم يدعي إليها جيران أرضنا جميعاً. إن هذه الطقوس الثابتة والعادات الراسخة يرجع عهدها إلى أبعد زمان تذكره تاتيانا سيمونوفنا. وكان زوجي لا يتدخل في شؤون المنزل، ولا يهتم إلا بشؤون الأراضي والفلاحين، واقفاً على هذه الشؤون وقته كله. إنه ينهض من نومه في ساعة مبكرة جداً، في الصيف وفي الشتاء على السواء، فإذا استيقظت أنا لم أجدّه. وكان يرجع إلى البيت عادة في موعد الشاي، وكنا نشرب الشاي معاً في هذا الموعد وحيدين، كل يوم تقريباً، بعد أن يكون قد عانى أنواع المتاعب والهموم، فإذا هو عند موعد الشاي يعود إلى ذلك المرح الخاص الذي كنا نسميه «الشكر الوحشي». وكنت في كثير من الأحيان أسأله أن يحكي لي ما جرى له في الصباح، فكان يتدفق في هراء يبلغ من شدة الهزل أننا كنا نختنق بالضحك اختناقاً. وربما سأله في بعض الأحيان أن يقصّ علي شيئاً فيه جد، فيكبح ابتسامته، ويطيع أمري، فكنت أتأمل عينيه، وأنظر إلى شفثيه اللتين تتحركان ولا أفهم شيئاً، وإنما يسعدني أن أراه وأن أسمع صوته. فكان يسألني قائلاً:

- ماذا قلت؟ هيا كرري ما قلت!

ولكنني أعجز عن تكرار أي شيء. وكان يبدو لي أمراً غريباً كل الغرابة أن يتحدث «هو» إليّ «أنا» لا عنه ولا عني، بل عن شيء آخر. لكن كل ما عدانا كان لا يمكن أن يستحق منا الاكتراث. وبعد ذلك بزم من طويل إنما بدأت أفهم همومه وأشاركه فيها. وكانت تانيانا سيميونوفنا لا تظهر إلا حين نجلس الى المائدة للغداء، وكانت تشرب الشاي وحدها، ولا تكلمنا إلا بواسطة سفراء. وفي عالمنا الخاص، السعيد، المجنون قليلاً، كانت أصدقاء ذلك العالم الآخر الرصين، المحترم اللائق، تترجع ترجعاً غريباً، حتى إني كثيراً ما كنت أفقد تحكّمي بنفسي وأنفجر ضاحكة حين كانت خادمتها تأتي إلي، عاقدة يديها على صدرها، قائلة إن تانيانا سيميونوفنا تود أن تعرف كيف قضينا ليلتنا بعد حفلة الليلة البارحة، وتبلغنا أنها قد شعرت بألم في جنبها طوال الليل، وأن كلباً غيباً قد حرّمها النوم بنباحه.

- وتساءلك مولاتي هل أحببت فطائر هذا الصباح، لأن مولاتي تحب أن تذكرك بأن الذي صنعها ليس هو تاراس بل هو نيقولا، على سبيل التجربة. ومولاتي ترى أن البسكويت كان طيباً، أما البسكوت فكان شواؤه زائداً.

قلما كنا نجتمع قبل الغداء. فأنا أقرأ أو أعزف، وسرجي يكتب أو يخرج مرة أخرى. وكنا، قبل الجلوس الى المائدة في الساعة الرابعة، نجلس في الصالون، فكانت حماتي تطلع علينا مهية محاطة بنساء نيبيلات أخنى عليهن الدهر، أو بجوابات لا يخلو منزلنا من اثنتين منهم أو ثلاث. وكان زوجي، على عادته القديمة، يقدم ذراعه الى أمه، ولكنها كانت تطلب منه أن يقدم ذراعه الأخرى إليّ أنا دائماً، فإذا

وصلنا الى الباب كان لا بد أن نتصادم هناك. وكانت تاتيانا سيميونوفنا ترأس المائدة، وكانت الأحاديث تدور على أمور فيها جد وأبهة. والكلمات التي نتبادلها أنا وزوجي تتخلل هذه الجلسات المتفخمة أثناء الغداء تخللاً ممتعاً. وكانت تشب بين الابن وأمه في بعض الأحيان مناقشات، يتبادلان بعض اللذعات، وكنت أحب كثيراً هذه المناقشات واللذعات، لأنها تدل على الرابطة القوية التي تربط بين سرجي وحماتي. وبعد الغداء كانت «ماما» تستقر في الصالون جالسة على المقعد الضخم، وتأخذ تسحق تبغاً أو تقص أوراق كتاب وصلها حديثاً. وكنا في أثناء ذلك نقرأ بصوت عال، أو ننسل إلى الصالون الصغير بقرب البيانو. كنا نقرأ كثيراً، ولكن الموسيقى كانت مسرتنا المفضلة، فهي في كل مرة تثير فينا إحساسات جديدة، وتتيح لكل منا أن يكشف صاحبه مرة أخرى. فإذا عزفت مقطوعات جديدة، جلس هو على ديوان، بعيداً عني، فلا أكاد أبصره، وحاول من شدة الحياء أن يخفي المشاعر التي تحدثها الموسيقى في نفسه. ولكنني كنت في كثير من الأحيان أدنو منه في لحظة لا ينتظر فيها ذلك، فأرى في قسमत وجهه ما كان يحاول أن يخفيه من انفعالات من دون أن يفلح. وكثيراً ما كانت «ماما» تحب أن ترانا في الصالون الصغير، ولكن كان واضحاً أنها تخشى أن تضايقنا. فكانت أحياناً تجتاز الصالون الصغير متظاهرة بأنها لا ترانا، مصطنعة عدم الاكتراث، ولكنني كنت أعلم أنه لا شيء كان يوجب عليها أن تذهب إلى غرفتها ثم تعود بهذه السرعة. وفي المساء كنا نحتمي الشاي في الصالون، وكنت أنا التي أقدم الشاي، فبذلك كان يجتمع شمل المنزل مرة أخرى. وقد ظل هذا الاحتفال بالشاي، أمام

السماور الملتمع، وهذا التوزيع للأقداح والفناجين، يربكني ويحدث في نفسي اضطراباً خلال مدة طويلة. كان يبدو لي دائماً أنني غير جديرة بهذا الشرف، وأنني أصغر سناً وأقل خبرة من أن أدير حفية سماور فخم هذه الفخامة، وأن أضع الكؤوس على الصينية التي تحملها نيكيثا وأن أقول لها: «لبطرس ابفاتش... لماري مينيشنا...»، أو أن أسأل هل الشكر كاف؟ وأن أفكر في الاحتفاظ بشيء منه للمربية العجوز والخدم المستحقين. وكان زوجي يقول دائماً:

- ممتاز! ممتاز! لكأنك شخص كبير!

وبعد الشاي كانت «ماما» تلعب بالورق لعبة الصبر، أو تطلب من ماري مينيشنا أن تتنبأ لها بالمستقبل، ثم نقبلنا كلينا وترسم علينا إشارة الصليب، فنمضي الى غرفتنا. وكنا في أكثر الوقت نظل نتحدث الى ما بعد منتصف الليل، فكانت تلك أجمل فترة من فترات يومنا. كان سرجي يقص عليّ ماضيه، وكنا نبني مشاريع، أو نسترسل في بحوث فلسفية، محاولين أن نتكلم بصوت خافت، حتى لا نسمعنا أحد فوق، وحتى لا نعرف تاتيانا سيميونوفنا أننا ساهران، لأنها كانت تطلب منا دائماً أن ننام في وقت مبكر. وقد يعصنا الجوع أحياناً، فتتسلل الى حجرة الخدمة، فنهيء وجبة باردة، مستظليين بحماية نيكيثا، ثم نأكل في غرفتنا ما نكون قد هيأناه، مستضيئين بنور شمعة واحدة. كنا كلانا نعيش كالغرباء في هذا البيت الواسع القديم الذي لا تبارح أرواح الماضي ركناً من أركانه، والذي تملأه روح تاتيانا سيميونوفنا القاسية بحضورها في كل مكان. وكان كل شيء، لا تاتيانا سيميونوفنا وحدها، بل كذلك الخدم الرجال، والخدمات العجائز، والأثاث، واللوحات،

كل ذلك يشيع في نفسي شعور الاحترام، بل يشير فيها نوعاً من الخشية، وإحساساً بأننا، أننا وسرجي، لسنا في مكاننا، وأن علينا أن نكون حذرين وأن نكون متبهيين أشد الانتباه. حين أتذكر الآن ذلك، أرى أن أموراً كثيرة، وهذا النظام الثابت المطرد الذي لا يتغير، وهذا الجمهور من الناس العاطلين المتطفلين، أن ذلك كله ليس مما يكفل الراحة، بل لعله يثقل على النفس. أما في ذلك العهد فقد كانت تلك المضايقة نفسها لا تزيد على أن تشحذ حبنا وتزيد أواره. فلا أنا ولا سرجي أظهرنا شيئاً من الامتعاض أو البرم. حتى إن زوجي كان يتحاشى أن يرى ما يمكن أن يستحق اللوم. كان خادم «ماما»، دمتری سيدوروف، وهو من عشاق الغليون، يدخل دائماً بعد الغداء الى مكتب سرجي، بينما نكون نحن في الصالون الصغير، فيأخذ لنفسه تبغاً من أحد الادراج. فليتك ترون الخوف الفرح الذي كان يعبر عنه وجه زوجي إذ يقترب مني على رؤوس الأصابع، غامزاً بعينه، ملوحاً بأصبعه، ليدلني على دمتری الذي لا يخطر بباله أن أحداً يراه. حتى إذا خرج الخادم من المكتب من دون أن يبصرنا، فرحاً بأن كل شيء قد انتهى على خير، قال لي زوجي إنني ملاك رائع، وقبلني، على عادته في جميع الأحوال. وكان هذا الهدوء وهذا التسامح وهذه اللامبالاة بأي شيء، كان ذلك كله يضايقني أحياناً، من دون أن أرى أن سلوكي هو هذا السلوك نفسه، فأخذ ألوم سرجي قائلة لنفسني: «لكنه طفل لا يجرؤ أن يظهر إرادته!». وفي ذات يوم لمت سرجي على ضعفه، فهتف يقول لي:

- هل لإنسان أن يستاء حين يكون سعيداً كسعادتي؟ لأن يخضع المرء لغيره فذلك أسهل من أن يخضع غيره له. هذه قناعتي منذ زمن طويل. وما

من ظرف من الظروف إلا يمكن أن يسعد المرء فيه. إن سعادتنا كبيرة جداً. لا أستطيع أن أغضب. الآن لا وجود للشر في نظري، ولست أرى إلا ما يبعث على الشفقة أو ما يبعث على الضحك! لا تنسي خاصة أن «الأحسن عدو الحسن». هل تصدِّق أني حين أسمع الجرس أو حين تُحمل إليَّ رسالة، يعتريني خوف؟ إنني أخاف من الحياة، أخاف أن أرى الأشياء تتغير، ولا شيء يمكن أن يكون أفضل من الحاضر.

كنت أصدِّق كلامه من دون أن أفهمه. كنت سعيدة. وكنت أظن أن الأمور لا يمكن أن تجري على غير هذا النحو، وأنها تجري هذا المجرى لدى جميع الناس. ومع ذلك كنت أتخيَّل أنه لا بد أن توجد سعادة أخرى، ليست أكبر من هذه السعادة ولكنها مختلفة عنها.

هكذا انقضى شهران. وجاء الشتاء بيرده وعواصفه الثلجية. فأخذت العزلة تثقل على نفسي، رغم أن سرجي لا يزال بقربي، وأخذت أحس بأن الحياة رتيبة تجري على وتيرة واحدة، وأصبحت لا أرى جديداً أكتشفه لا فيه ولا في نفسي، حتى لقد كنا نبذو كمن يتراجع دائماً إلى وراء. صار زوجي يمضي إلى أعماله ويهتم بها أكثر من أي وقت مضى، وتصورت أن له عالماً مستقلاً عني لا يريد لي أن أنفذ إليه. أصبح هدوؤه الكامل الذي لا يعكره شيء، يثير غيظي. صحيح أن حبي له لم يضعف، وصحيح أن سعادتي بأنه يحبني لم تنقص. ولكن حبه أصبح لا يزداد، بل هو ثابت على حاله، فتسلل إلى نفسي شعور آخر هو نوع من القلق. صار لا يكفي أني أحبُّ، بعد أن ذقت سعادة هذا الحب. صرت كأني أؤثر حياة صاخبة مضطربة، على هذه الحياة الهادئة الساكنة. صرت أتوق إلى انفعالات ومخاطر يمكن أن

تتطلب مني توضيحات. صرت أحس بفيض من الطاقة لا أستعمله في حياتي الهادئة هذه، وأخذت تعتريني نوبات غمٍّ أحاول أن أخفيها عن زوجي كما يخفي المرء شيئاً مخزياً، ثم تعقب هذه النوبات اندفاعات حنان رقيق ومحبة عارمة مجنونة ترعّج زوجي. بل إن زوجي قد أدرك حالتي النفسية هذه قبل أن أدركها أنا بمدة طويلة، فاقترح عليّ أن نسافر الى المدينة. ولكنني رجوته أن لا يغير من حياتنا شيئاً حتى لا نحطم سعادتنا. ذلك أنني كنت سعيدة حقاً. وانما كان يعذبني أن أرى أن هذه السعادة لا تكلفني أي جهد، ولا تقتضي أي تضحية، مع أن نفسي تفيض بطاقة كبيرة يمكن أن أنفقاها في جهود وأن أبذلها في توضيحات. كنت أحب زوجي، وكنت أعلم أنني في نظره كل شيء. ولكنني كنت أتمنى أن يرى جميع الناس حبنا، وأن أمنع من حبه، فأظل أحبه مع ذلك. كان فكري وقلبي ممتلئين، ولكن الشعور بالشباب لا يزال قوياً في نفسي، وما زلت أحتاج الى أن أتحرك، وذلك لم يكن يتاح لي في حياتنا الساكنة هذه. لماذا قال لي سرجي إن في وسعنا أن نسافر الى المدينة متى شئت أنا ذلك؟ لولا أنه قال لي هذا الكلام، فلعلني كنت سأدرك أخيراً أن ما أشعر به من عنت وإرهاق ليس إلا سخفاً ضاراً، وأنني أنا المذنب الوحيدة، وأن النصيحة التي أتوق إليها هي في متناول يدي، فليس عليّ إلا أن أتغلب على ما أعانيه من غمٍّ!

ولكن الفكرة التي تصوّر لي أن السفر يمكن أن ينقذني من حالة الغم هذه، أصبحت لا تفارقني. وظللت أشعر في الوقت نفسه بخجل وخزي، بل أشعر بالهم ومضض، حين أتصور أنني سأنتزع سرجي من كل ما يحبه ويؤثره. ويمضي الوقت، وتتراكم الثلوج مزيداً من

التراكم على جدران المنزل، ونحن لا نزال وحدنا، لم يتغير أحد منا تجاه الآخر، على حين أن عالماً بكامله، عالماً متألّفاً صاخباً، كان يتألم ويلهو، هناك، من دون أن نخطر له على بال، ومن دون أن يفكر في حياتنا التي تنقضي. وأسوأ ما في الأمر أننا كنا نرى عاداتنا تجمّد حياتنا يوماً بعد يوم في قالب ثابت لا يتغيّر شكله، وأنا كنا نرى حبنا يفقد كل حرية ليطابق مجرى الزمن الذي يجري مطرداً هادئاً. فنحن عند الصباح في مرح، ونحن بعد الظهر في احترام، فإذا جاء المساء ضربنا في حنان وحب. أصبحت أقول لنفسي: «طيب... إنه لشيء عظيم أن يفعل الإنسان الخير، وأن يعيش حياة مستقيمة، كما يقول، ولكن لدينا متسع من الوقت للوصول الى هذه المرحلة، أما الآن فثمة أشياء كثيرة أخرى نخزن نفسي طاقة كبيرة للفوز بها». ليست «الحياة البسيطة السهلة» هي ما أريد، وإنما أنا أريد حياة نضال وصراع. أريد أن أحس بأن العاطفة هي التي تقودني. أما الآن فإن الحياة هي التي تقود عاطفتي. وددت لو أتقدم أنا وسرجي من حافة هاوية، وأن أقول له: «خطوة أخرى فأسقط في الهاوية، حركة واحدة فأهلك»، فإذا هو يمسكني بذراعيه القويتين وقد شحب لونه، ثم اذا هو يحملني الى أي مكان.

أخذت هذه الحالة النفسية تؤثر في صحتي، وأخذت أعصابي تهتاج. وشعرت في ذات صباح بأنني أسوأ حالاً مما ألفت أن أكون فيه من سوء الحال، وعاد سرجي من مكتبه معتكر المزاج، وهذا أمر كان لا يقع له إلا في النادر القليل. فسرعان ما لاحظت ذلك، وسألته عما به. فلم يشأ أن يجيبني، وقال إن الأمر لا يستحق أن يحدثني فيه. ثم علمت بعد ذلك أن رئيس الشرطة كان قد استدعى فلاحينا، وطلب

منهم مطالب غير مشروعة، وهذّدهم بالملاحقة اذا هم لم يلبوا تلك المطالب، وما ذلك إلا لأنه كان لا يحب زوجي. ولم يفلح زوجي في التفاوضي عن هذا الحادث، واعتباره أمراً مضحكاً تافهاً. وإنما هو غضب غضباً شديداً، ثم لم يشأ أن يكلمني في ما حدث. ولكن بدالي أنا أنه إنما يتجنّب الخوض معي في الحديث لأنه يعدّني طفلة عاجزة عن فهم ما يشغل باله. فأشحت عنه، وأرسلت الى ماري مينيشنا خادمة ترجوها باسمي أن تجيء إلينا لتناول الشاي معنا. حتى إذا فرغنا من الشاي التي تعجلت الانتهاء منها، اقتدت ماري مينيشنا الى الصالون الصغير، وأخذت أكلمها في أي شيء، متعمدة أن يكون صوتي عالياً. وكان سرجي يذرع الغرفة ذاهباً آيماً، ويلقي علينا نظرات سريعة من حين الى حين. فكان لنظراته هذه تأثير غريب في نفسي، إذ اشتدت رغبتني في الكلام اشتداداً أكبر، بل أصبحت أرغب في الضحك أيضاً، فكان كل ما أقوله، وكل ما تقوله ماري مينيشنا يبدو لي باعثاً على الضحك والقهقهة. وهذا هو سرجي ينسل ذاهباً الى مكتبه من دون أن يقول شيئاً، ويغلق الباب وراءه. فما إن غاب عني، حتى زابلني مرحي دفعةً واحدة، فدهشت ماري مينيشنا دهشةً شديدة، وسألتنني عما يحدث. فلم أجبها، وجلست على الديوان كابحةً رغبتني في البكاء. وقلت أحدث نفسي: «ما الذي يشغل باله ويحمله على هذا التفكير؟ إنه يجعل من الحبة قبة. فلو أفضى إليّ بالأمر، لعرفت كيف أبين له تفاهة ذلك كله. ولكنه يصرّ على الاعتقاد بأنني لا أستطيع أن أفهمه، كأنه في حاجة إلى إذلالني بجلال هدوئه وورصاته، وفي حاجة الى أن يكون دائماً على صواب، وأن أكون دائماً على خطأ. ولكنني أنا أيضاً

على حق حين أشعر بالضجر والسأم، وحين أرغب في أن أحيا وأن أتحرك بدلاً من أن أبقى في مكاني وأحسّ بالزمان يتعداني. إنني أريد أن أتقدم، أن أرى جديداً في كل يوم، وفي كل ساعة، أما هو فيريد أن يلبث ساكناً جامداً وأكون بقربه. وما أسهل الأمر عليه مع ذلك! ليس حتماً عليه أن يرحل بي الى المدينة، وحسبه أن يكون مثلي، فلا يشغل باله في ما لا طائل تحته، ولا يكتفم ما يعتمل في نفسه، حسبه أن يحيا ببساطة! وذلك بعينه ما ينصحني به، ثم لا يستطيع أن يلزم به نفسه. إنه ليس بسيطاً. كذلك هو!«.

وأحسست بالدموع تفيض بها عيناى، واشتد غيظي منه وحنفي عليه. ثم أحسست برعب من هذا الغيظ وهذا الحق، فمضيت ألحق به. كان جالساً في مكتبه، مكباً على كتابة شيء. فلما سمع وقع خطاي التفت إليّ لحظة، ثم عاد يستأنف كتابته هادئاً غير مكترث. واذ لم تعجبني نظرتة، لم أقرب من الطاولة، بل فتحت كتاباً وطفقت أقلب صفحاته. وقطع سر جي كتابته مرة أخرى ونظر إليّ.

قال:

- ماشا، أنت معتكرة المزاج!

فلم أجبه إلا بنظرة باردة تعني: «لم هذا السؤال! يالها من ملاحظات!».

فهزّ رأسه، وابتسم بخجل ورقة وعاطفة. ولكن ابتسامتي لم تستجيب لابتسامته، وذلك يحدث أول مرة.

قلت أسأله:

- ماذا وقع لك اليوم لماذا لم تقل لي؟

- أمر تافه، انزعاج طفيف! ومع ذلك يمكنني الآن أن أحكيه لك. ذهب فلاحان الى المدينة...

ولكنني لم أدعه يكمل كلامه، بل قاطعته سائلة:
- ولماذا لم تحك لي حين سألتك، وبينما كنا نحسو الشاي؟
فأجاب:

- كان يمكن أن أقول سخافات، لأنني كنت غاضباً.
- في ذلك الوقت إنما كان ينبغي لك أن تحكي لي.
- لماذا؟

- أنتظن أنني لا أستطيع أن أساعدك في أي أمر من الأمور، في أي يوم من الأيام؟

قال وهو يرمي قلمه:

- كيف هذا؟ أعتقد أنني من دونك لا أستطيع أن أعيش أصلاً. فأنت لا تقتصرين على مساعدتي دائماً في كل أمر، وإنما أنت تعملين كل شيء.
ثم أضاف يقول ضاحكاً:

- ما هذه الأفكار التي تساورك؟ أنا لا أحيأ إلا بك. كل شيء يبدو لي كاملاً لسبب واحد هو وجودك، وهو أنه يجب عليّ أن...

- نعم، نعم، أعلم، أنا طفلة مدللة يجب عليك أن تهديها. ألا فاعلم أنني لا أريد الهدوء، وأنني يكفيني هدوؤك الشديد أنت! نعم، يكفيني ويزيد!
قلت ذلك بلهجة لم يملك سرجي إزاءها إلا أن ينظر إليّ مبهوراً اذ يكتشف فيّ شيئاً لا عهد له به. ثم اذا هو يستأنف حديثه مقاطعاً كلامي، خائفاً أن أمضي فيه الى نهايته فأفصح عن كل ما يعتمل في نفسي وقال يختم كلامه:

- ذلك هو الأمر إذاً، فكيف كان يمكن أن تفصلي فيه؟

فأجبت:

- لم أعد أريد أن أناقش في هذا.

الحق أنني كنت أحب كثيراً أن أصغي إليه، ولكنتي كنت أشعر من تعكير هدوئه بلذّة كبيرة. وأردفت أقول:

- لا أريد أن أمثل أنني أحيا، وإنما أريد أن أحيا، كما تحيا أنت.

فعبّرت قسماته المتحركة الحسّاسة عن انتباه شديد.

وتابعت كلامي فقلت:

- أريد أن أحيا معك مساويةً لك مساواة الند للند... أريد أن...

ولم أستطع أن أكمل جملي، فقد لاح في وجهه حزن عميق. ولبث ساكناً لحظة. ثم قال أخيراً:

- في أي شيء لا تساوينني مساوية الند للند؟ لماذا تقولين هذا الكلام؟

الأنني أنا الذي أجادل رئيس الشرطة والفلاحين السكارى، لا أنت...

قلت:

- ليس هذا فحسب!

وتابع كلامه فقال:

- رحماك يا صديقتي، حاولي أن تفهميني. أنا أعلم أن القلق يعذب

كثيراً، فقد عشت كثيراً فعرفت هذه الحقيقة. وأنا أحبك، فأريد أن أجيبك

القلق. وهذا ما يجعلني أتمسك بالحياة، فأنا لا أحيا إلا بحبي لك. فيجب

عليك من جهتك أن لا تمنعي عني الحياة.

قلت من دون أن أنظر إليه:

- أنت دائماً على حق.

لقد أحقنني مرةً أخرى أن أراه محتفظاً بهدوئه، محتفظاً بنظرته الواضحة الى الأمور، بينما أنا غاضبة حانقة مع شعوري بشيء يشبه الندم في الوقت نفسه.
قال:

- ماشا! ما بك؟ ليس الأمر أن أكون على صواب أو أن أكون على خطأ: الأمر غير هذا تماماً: ماذا تأخذين عليّ؟ ماذا يحقّك مني؟ فكّري قبل أن تجيبي، وحديثي عما في قرارة نفسك. أنت مستاءة مني، ساخطة عليّ، ولا بد أنك على حق. فأشرح لي ما ارتكبت من خطأ وما ارتكبت من ذنب.
كيف كان يمكنني أن أكشف له عمّا بنفسي؟ ومما زاد اضطرابي أنه فهمني فوراً، فما أنا ازاءه إلا طفلة، ولا يمكنني أن أفعل شيئاً إلا حزره وأدركه.

قلت:

- لا آخذ عليك شيئاً. كل ما في الأمر أنني أضجر وأود أن لا أضجر. لكنك تقول إن هذا ما يجب أن يكون، وأنت على حق دائماً...
وقد نظرت إليه وأنا أتكلّم. فرأيت أنني بلغت غايتي وفزت بمأربي، فقد زايله هدوؤه، وعبرت قسّات وجهه عن حزن شديد وهول. وها هوذا يقول بصوت يخنقه الانفعال خنقاً:
- ماشا! ليس هذا لعباً. مصيرنا سيقرر. أرجوك. لا تقولي شيئاً قبل أن تسمعي. لماذا تتعمدين تعذيبي؟

فقاطعت قائلة ببرود، كأنني لست أنا التي أتكلّم، وإنما تتكلّم بلساني روح شريرة.

- أعرف. سوف تكون على حق أيضاً. الأفضل أن لا تتكلّم. إنك على حق.

فقال بصوت مختلج:

- لو علمت ما الذي تفعلينه...

فطفقت أبكي، وشعرت بتخفف.

كان سرجي جالساً بقربي، صامتاً لا ينطق بكلمة. وكنت أحس بشفقة عليه، وأشعر بخزي من نفسي، وكنت غاضبةً ساخطة على ما اجترحت. كنت لا أنظر إليه. وكان يخيل إليّ أنه في هذه اللحظة يتفرّس فيّ إما بقسوة وشدة، وإما بارتباك وحيرة. فالتفت إليه: فإذا أنا أرى نظراته تفيض رقة وعاطفة وحناناً، وكأنها تسألني الصفح والعفو والغفران فأمسكت يده، وقلت له:

- سامحني! كنت لا أعرف ماذا أعمل أو ماذا أقول!...

- نعم، ولكنني أنا أعرف، ولقد قلت الحقيقة.

- ماذا تعني؟

قال:

- يجب أن نساfer إلى بطرسبرغ.

ثم أردف

- لا بقاء لنا هنا!

قلت:

- لك ما تشاء.

فضمّني إلى صدره وقبّلني. وقال:

- سامحيني. أنا مذنب في حقك.

عزفت له في ذلك المساء مدةً طويلة، فكان يذرع الغرفة مجمّماً ببعض الكلام. كان من عاداته أن يكلم نفسه على هذا النحو همساً،

وكثيراً ما كنت أسأله عما يحدث به نفسه، فكان يفكر قليلاً، ثم يذكر لي ما كان يناجي به نفسه. كان في أكثر الأحيان يتلو أبياتاً من الشعر، أو يقول أشياء تافهة، ولكنني كنت أستطيع أن أستخرج من هذه الأشياء التافهة ما يكون عليه من حالة نفسية.

فلما سألته في هذه المرة:

- بمَ تحدث نفسك؟

توقف عن السير، وتفكر قليلاً، ثم أنشدني بيتين من شعر ليرمونتوف:
... كان المتمرّد ينشد العاصفة

كأنه فيها سيجد الهواء.

قلت لنفسني: «إنه أكثر كثيراً من رجل. إنه يعرف كل شيء. كيف لا يُحبّ؟».

ونهضت فأمسكت يده وأخذت أسير الى جانبه محاولة أن أساير بخطواتي خطواته.

سألني وهو ينظر إليّ مبتسماً:

- أليس كذلك؟

فدمدمت أقول: نعم

واجتاحنا كلينا مرح مجنون على حين فجأة، فكانت عينانا تضحكان، وأخذت خطواتنا تكبر ثم تكبر، وكدنا نسير على رؤوس الأقدام.

وما كان أشد انشداه جريجوار، وانبهات ماما التي كانت تعبث بورق اللعب في الصالون، حين اجتزنا جميع الغرف بهذه الخطوات نفسها، الى أن بلغنا غرفة الطعام، فتوقفنا وانفجرنا ضاحكين ينظر كل منا الى صاحبه!

وبعد خمسة عشر يوماً، في عشية الأعياد، وصلنا بطرسبرغ.

- 2 -

كانت رحلتنا الى بطرسبرغ، والأسبوع الذي قضيناه بموسكو، وأهلي وأهله، وتجهيز مسكننا الجديد، والطريق، والمدن والوجوه التي لا أعرفها، كان ذلك كله أشبه بحلم. وكان وجود سرجي وحبّه يزيدان هذه المشاعر الجديدة المتنوعة الفرحة تأججاً وضياءً، حتى بدت لي حياتنا الهادئة في الريف بعيدةً لا قيمة لها. وما كان أشدّ دهشتي حين وجدت المجتمع الراقي لا يصدمني بتكبر بارد، وإنما رأيتني أستقبلُ في كل مكان بحفاوة كبيرة ومودة صادقة «لا عند أقربائي فحسب، بل عند سائر من لقيت من ناس أيضاً»، حتى لكانهم جميعاً كانوا لا يفكّرون إلا فيّ، ولا يتظرون إلا وصولي ليكونوا سعداء. وكذلك لم أكن أتوقع كثيراً أن أرى لزوجي في حلقات المجتمع الراقي، التي كنت أعدّها جديرة بأكبر الاهتمام، أصدقاء كثر لم يحدثني عنهم في يوم من الأيام. وكثيراً ما تعجبت وتألّمت حين كنت أسمعه يصدر أحكاماً قاسية في حق هؤلاء الناس الذين كنت أراهم طيبين جداً. وكنت لا

أفهم لماذا يبدي لهم هذه الجفوة كلها، ولماذا يتجنب لقاءات كانت تجذبني وترضيني أكبر الرضا. كان يبدو لي أن المرء كلما عرف عدداً من خيار الناس أكبر كان له ذلك أحسن وأفضل وكان جميع أولئك الناس يبدوون لي طيبين أخياراً.

لقد قال سرجي قبل رحيلنا عن الريف:

- اسمعي، نحن هنا أشبه بقارون ثراء أما هناك فلن نكون فاحشي الغنى، لذلك يجب علينا أن لا نمكث في المدينة الى ما بعد «أسبوع الألام»، ولا أن نختلف الى المجتمع كثيراً، والا ارتبكت أحوالنا. ثم إنني لا أريد لك أنت أن...

وقد أجبته عندئذ بقولي:

- المجتمع؟ ما لنا وللمجتمع؟ سوف يكفيننا أن نذهب الى المسرح، وأن نرى أقرباءنا، وأن نشهد الأوبرا، وأن نختلف الى بضع حفلات موسيقية، فما يجيء «أسبوع الألام» الا ونكون قد قفلنا راجعين.

ولكن ما إن وصلنا الى بطرسبرج حتى كانت هذه النيات كلها قد نسيت. ورأيتني أتنقل فجأة الى عالم جديد زاخر بالحركة، مترع بأشياء جذابة لا عهد لي بها، فإذا أنا - ربما على غير شعور - أطرده ماضي من خيالي حالاً، وأتذكر لكل مشاريع هذا الماضي. فكنت أحدث نفسي قائلة: «لم يكن ذلك كله الا مزاحاً. ما كان قبل اليوم شيء. الآن تبدأ الحياة حقاً! ما الذي سيحدث لي أيضاً؟».

- أما القلق والغم اللذان كانا يعذباني في الريف، فسرعان ما زالا بما يشبه المعجزة. وأصبح حبي لسرجي هادئاً رصيناً، فانا الآن لا أتساءل هل نقص حبه له. ثم إنني أصبحت لا أستطيع أن أشك في حبه: فهو يحزر على الفور

أيسر ما يدور في ذهني من أفكار، وهو يشاركني كل ما يجيش في قلبي من عواطف، وهو يحقق لي كل ما يقوم في نفسي من رغبات. وقد زال هدوؤه، أو قل إن هذا الهدوء أصبح لا يحقني. وكثيراً ما كان يقول لي، بعد زيارة قمتا بها، أو بعد لقاء لنا بأناش جدد، أو في بيتنا مساء، حين يأخذني خوف من أن أكون قد ارتكبت غلطة من الغلطات في قيامي بواجبات ربة الدار:

- مرحى للبت الممتازة! عظيم! لا تخشي شيئاً! كنت عظيمة حقاً! فكان ثناؤه هذا يرضيني أعظم الرضا.

ولقد أسرع يكتب رسالة الى أمه بعد وصولنا، فلما ناداني لأضيف الى الرسالة بضع كلمات، سم يشأ أن أقرأ ما كتبه الى أمه، فلما أصررت أذن لي بقراءة الرسالة، وقد وقعت عيني على هذه الأسطر:

«لسوف تنكرين ما شأ اذار أيتها، بل إنني لأنكرها أنا نفسي. من أين جاءت هذه الثقة الفتانة الأخاذة، وهذه «اللطافة» التي تأسر قلوب من يرونها، وهذه الروح الاجتماعية الراقية، وهذه الكياسة واللباقة في معاملة الناس؟ وكل ذلك الى بساطة وطيبة وذوق. إنني التهب حماسة لها، ومهما أعجب بها فلن أوقها حقها من الإعجاب! ولولا أن حبي كامل لا يحتمل زيادة لأحبتها مزيداً من الحب!».

قلت لنفسي: «كذلك أنا إذا!». وشعرت بفرح بلغ من القوة أنني اعتقدت بأن حبي قد كبر واشتد.

إن أنواع النجاح التي لقيتها عند جميع من قامت بيننا وبينهم صلوات، كانت شيئاً لم ترق اليه آمالي. من كل حذب وصوب كان يقال لي إنني فتنت لب عم هنا، وأنني قد جُئت بحبي عمه هناك، فلان يؤكد أن بطرسبرج كلها ليس فيها امرأة يمكن أن تضاهي بي. وفلانة تؤكد أنني لو

شئت لأصبحت «أرق» امرأة في المجتمع بأسره. وهذه قريبة لزوجي، الأميرة «د...»، وهي سيدة من سيدات المجتمع تقدمت في السن قليلاً فما هي الآن في ريعان الشباب، هذه هي تولع بي فجأة، وتغرقني أكثر من أي سيدة أخرى بمدح يبلغ من القوة أنه أدار رأسي فإذا أنا منه في سُكْر. وحين دعنتي قريته هذه أول مرة إلى حفلة رقص والتحت على زوجي أن نلبي الدعوة، التفت زوجي الي وهو يتنسم ابتسامة مأكرة لا تكاد تُلحظ، وسألني هل أحب أن أحضر الحفلة، هززت رأسي موافقة، وشعرت بحمرة تصبغ وجهي. فقال وهو يضحك ضحكة طيبة كريمة:

- ولكأنك مذنبة تعترف بما في نفسها من رغبات!

- ألم تقل لي أنت إن علينا أن لا نختلف الى المجتمع؟ ثم إنك لا تحب

هذه الحفلات...

كذلك أجبته مبتسمة وأنا ألقي عليه نظرة توّسل. قال:

- نحضر الحفلة ان كنت تحبين ذلك كثيراً.

- لا، حقاً ربما كان الأفضل أن لا نحضرها.

سألني مرة أخرى:

- هل ترغبين في حضورها؟ هل ترغبين في ذلك كثيراً؟

فلم أجبه. فأردف يقول:

- ليس المجتمع في ذاته شراً كبيراً، ولكن كبت الرغبات شيء سيئ.

وختم كلامه بلهجة حاسمة:

- يجب أن نحضر الحفلة... حتماً...

قلت:

- الحقيقة أنني لا شيء بغربي كما يغربني حضور حفلة الرقص هذه.

وذهبنا الى تلك السهرة، فكان سروري بها يفوق كل ما كنت أتوقع،
 اذ أحسست أكثر من أي وقت مضى، أنني كنت مركز الكون، فكل شيء
 ينجذب إليّ ويدور حولي. الصالة مضاءة لي وحدي، الموسيقى تُعزف
 من أجلي، وهذه الجمهرة من الناس الذين يُعجبون بي احتشدوا ليروني.
 الجميع، من الحلاق والخادمة، الى الراقصين والسادة المسنين الذين
 يجتازون الصالة، كانوا كمن يقولون لي أو يفهمونني أنهم يحبونني.
 والرأي الذي قام في أذهان الحشد كله عني في تلك الحفلة، وهو الرأي
 الذي نقلته إليّ قريتي، هو أنني لا أشبه أية امرأة أخرى، وأن فيّ شيئاً
 خاصاً، شيئاً من الريف بسيطاً رائعاً أخاذاً أسراً. وقد راق لي هذا النجاح
 وبلغت من الابتهاج به أنني اعترفت لسرجي برغبتني في حضور حفلتين
 أو ثلاثاً من حفلات الرقص هذه «لأصل منها الى حد الشَّبَع والتخمة»
 (أضفت ذلك رياءً).

وقد وافقني زوجي على هذه الرغبة راضياً، وأصبح في الآونة
 الأولى يصحبني مغتبطاً اغتباطاً واضحاً، فكانه نسي ما سبق أن قاله أو
 كأنه عدل منه.

وبعد ذلك أخذ يبدو عليه الضجر. صار واضحاً أن الحياة التي نحيها
 قد أخذت تثقل على نفسه. ولكنني لم أبالي. فاذا وقع بصري أحياناً
 على نظرت الرصينة المتفرسة محدقة إليّ كتساؤل أخرس، تظاهرت
 بأنني لا أفهم معنى هذه النظرة. لقد بلغت من النشوة بما حسبته حباً
 أثيره حولي، وبما أنا غارقة فيه من جو الأناقة والمسرات والجدة لأول
 مرة في حياتي، أن ما كان لسرجي عليّ من سلطان روحي قد كفَّ عن
 الجثوم على صدري، وصار يفرحني أن لا أكون في هذا العالم مساوية

له مساواة الند للند فحسب، بل أن أحس بأنني متفوقة عليه أيضاً. ومن أجل ذلك كان حبي له يزداد، مع استقلال عنه وانعتاق من ربة رأيه، فكنت لا أفهم ما خوفه عليّ من حياتي في هذا المجتمع، ولا أدرك الضرر الذي يتصوّر أن يلحقني من اختلافي اليه وترددي عليه. كنت أشعر بعاطفة جديدة من الزهو والعجب بالنفس حين أصل الى سهرة، فإذا بجميع الابصار تتجه اليّ، وإذا بسرجي يسارع الى الاختفاء في جمهرة الناس الذين يرتدون جميعاً ملابس سوداء، كأنما هو يخجل أن يعلن أنه سيدي على مرأى من الجميع.

وكثيراً ما كنت أقول بيني وبين نفسي، وأنا أبحث بعيني بين القامات في آخر الصالة عن قائمه التي تمر مستخفية وقد ظهر على وجهه الضجر: «انتظر قليلاً فحين نعود ستعرف وستدرك من الذي كنت أريد أن أتلق من أجله، وستعرف وستدرك أنك أنت من كنت أحب في كل ما أحاطني هذا المساء!».

وكننت أعتقد صادقة أن كل ما كنت أفوز به من نجاح انما يملأني بهجة من أجله وحده، لأنني أستطيع أن أضحي به في سبيله متى أردت. وكان الشيء الوحيد الذي يبدو لي خطراً عليّ هو أن يهيم بي أحد ممن ألقاهم في المجتمع، فيغار زوجي. ولكن سرجي كان واثقاً بي أشد الثقة وكان هادئاً أعظم الهدوء، وكان قليل الاكتراث الى أبعد حد، وكننت من جهتي أرى أن جميع هؤلاء الشبان تافهون أكبر التفاهة إذا قيسوا به، فلذلك غدا الأمر الوحيد الذي يحمل على القلق في هذا المجتمع الراقى، لا يشير في نفسي أي خوف، ولا يبعث في نظري على أي خشية. ولكن الاهتمام الذي كنت أحاط به كان يهيم لي مع

ذلك غبطة كبيرة وبهجة عظيمة، ويرضي حبي لنفسي، ويحملني على الاعتقاد بأن ما أحمله لزوجي من حب إنما هو ماثرة من المآثر، فكان ذلك يضيفي على علاقتنا مزيداً من الثقة بل من الطلاقة.

قلت له في ذات مساء، ونحن عائدان من حفلة رقص:

- رأيتك تكلم «ن...» بكثير من الحرارة...

قلت له ذلك وأنا أهذده ملوحةً باصبعي، وأسمّي واحدة من مشاهير جميلات بطرسبرج كان قد حدثها أثناء السهرة حديثاً طويلاً بالفعل. وإنما قلت له ذلك بغية أن أهزّه وأن أحرّكه: فقد كان سرجي يبدو صامتاً مسرفاً في الصمت. فدمدم يقول من بين أسنانه وقد تجعّد وجهه بما يشبه أن يكون تعبيراً عن ألم جسمي:

- لماذا هذا الكلام يا ماشا؟ أنت تقولين هذا؟ هذا الكلام لا يليق بنا نحن، لا أنا ولا أنت! دعي مثل هذا الكلام لغيرنا. إن هذه الصلات الزائفة يمكن أن تفسد الصلات الصادقة، وأنا ما زلت آمل أن ترجع إلينا الصلات الصادقة.

فشعرت بخجل وخزي، ولزمت الصمت. فسألني:

- هل نرجع يا ماشا؟ ما قولك؟

- هي لم تفسد ولن تفسد أبداً.

قلت له ذلك، وكنت في تلك اللحظة مؤمنة بما قلت إيماناً راسخاً لا يتزعزع.

- أسأل الله ذلك، وإلا يكون قد آن لنا أن نعود إلى الزيف.

ولم يتكرر مثل هذا الحادث، واعتقدت طوال الوقت بعد ذلك أنه كان مغتبطاً، وكنت أنا مغتبطة كثيراً. وإذا اتفق أن ضجر في بعض

الأحيان، عزَّيت نفسي بأنني قد ضجرت أنا أيضاً من أجله في الريف. أما علاقاتنا فهبها تغيّرت فإنه ليكفي أن نرجع صيفاً إلى منزلنا القديم في نيكولسكويّا ونستقر وحيدين مع تاتيانا سيميونوفنا حتى نستقيم جميع الأمور.

وانقضى الشتاء من دون أن أشعر بانقضائه، وقضينا «أسبوع الآلام» ببطرسبرج على خلاف ما كنا نتتوبه. وفي الأسبوع الذي أعقب عيد الفصح، كنا على أهبة الرحيل: أعددنا حقائبنا، واشترى سرجي ما كان يريد أن يحمله الى الريف من هدايا وأمتعة، وكان سرجي في حالة نفسية مفعمة بالحنان زاخرة بالفرح. فاذا بابنة عمي تجيء إلينا على غير توقع، فترجوننا أن نبقى الى يوم السبت، من أجل أن نحضر الحفلة التي ستقيمها الكونتيسة «ر...». وقالت ابنة عمي إن الكونتيسة قد ألحت كثيراً على ضرورة حضوري الحفلة، وأن الأمير «م...» الذي كان حينذاك ماراً ببطرسبرج، يحاول منذ حفلة الرقص الأخيرة أن يتعرّف إليّ، وأنه لم يقبل حضور حفلة الكونتيسة إلا لهذه الغاية وحدها، وأنه ينادي بأنني أجمل امرأة في روسيا. وأضافت ابنة عمي قولها إن المدينة كلها ستشهد الاستقبال الفخم وإن تفويتنا هذه الحفلة أمر لا يُعقل أبداً. كان سرجي في الطرف الآخر من الصالون آخذاً في حديثٍ مع أحد. وسألني ابنة عمي:

- أتجيئين إذا يا ماري؟

فأجبته مترددة. وأنا أنظر الى جهة زوجي:

- علينا أن نساfer غداً غد.

ونلاقى بصرانا، فأسرع بشيح وجهه.

قالت ابنة العم:

- سأقتعه بالبقاء. وفي يوم السبت سندوِّخ الرؤوس، هه؟

قلت معترضة وقد بدأت أستسلم:

- ولكن هذا سيقلب مشاريعنا. لقد أعددنا حقائبنا.

وهبَّ زوجي يقول من آخر الصالة محاولاً أن يكظم غيظه، هبَّ

يقول بصوت لم أعهده فيه من قبل:

- خير لها أن تمضي الى الأمير منذ هذا المساء لتتحني له احتراماً

وإجلالاً.

فقالت ابنة عمي ضاحكة:

- ...أيمنأ إنه لغيرو! هذه أول مرة أراه فيها على هذا الحال. يا سرجي

ميخائيلوفتش، أنا لا ألخّ هذا الإلحاح من أجل الأمير بل من أجلنا جميعاً.

إن الكونتيسة «ر...» قد أصرّت إصراراً شديداً على ضرورة مجيئها!

فقال سرجي بيروود:

- هذا شأنها وحدها.

وغادر الغرفة.

رأيت أنه أشد اضطراباً مما عهدت أن ألاحظ فيه من اضطراب،

فأقلقني ذلك وعذبني، فلم أقطع لابنة العم أي وعد، حتى إذا انصرفت

مضيت الحق به.

كان يذرع الغرفة شارد الذهن حالماً، فلم يرني، ولم يسمع وقع

خطاي حين دخلت سائرة على رؤوس الأصابع.

قلت لنفسي وأنا أنظر اليه: «إنه يتخيل نفسه منذ الآن في منزل

نيكولسكوييا القديم! يتخيل طعام الفطور في الصالون النير، ويتخيل

الحقول، وفلاحيه، وسهراتنا في الصالون الصغير، ووجبات عشائنا في الليل سرّاً... لا، لا، إن جميع ما في الدنيا من حفلات رقص، وجميع ما يزيجه أمراء العالم من معسول الثناء والمديح، لا يساوي عندي خجله المضيء المشرق، وعاطفته الرقيقة الحنون».

وفيما أنا أهتم أن أعلن أنني لن أذهب إلى الحفلة، وأنني لا أرغب في حضورها، التفت على حين فجأة، فلما رأي قطب حاجبيه، وزال ما كان يعبر عنه وجهه من شرود الذهن والاستغراق في الحلم، وعادت نظرتة تعبّر من جديد عن رجاحة العقل وحصافة الرأي والحكمة والتعقل، وعن معنى الرعاية الهادئة والحماية النيرة، فكانه لا يريد أن أرى فيه انساناً من البشر، وإنما يريد أن أرى فيه إلهاً أو نصف إله، فسألني وهو يلتفت نحوي بقلة اكتراث ويصطنع الوقار والهدوء:

- ماذا يا صديقتي؟

فأغضبني أن أراه يتظاهر هذا التظاهر، ويمنع عني وجهه الحق الذي أحبه. فلم أجبه.

- هل ترغيبين في حضور تلك الحفلة يوم السبت؟

قلت:

- كنت أرغب. ولكن ذلك لا يرضيك. وقد حزننا جميع أمتعتنا على كل حال.

لم يسبق في يوم من الأيام أن رمقني بنظرة باردة هذه البرودة كلها، ولا أن خاطبني بلهجة جافة هذا الجفاف كله. قال:

- لن أسافر قبل يوم الثلاثاء، وسأمر بفتح جميع الحقائب، ففي وسعك إذاً أن تحضري تلك الحفلة إذا أحببت. أحضرها. لن أسافر.

وعلى عادته حين يحتاج، أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً من دون أن ينظر إليّ.

قلت من دون أن أتحرك من مكاني وأنا أتابعه بنظري:

- حقاً إنني لا أفهمك. تزعم أنك لا تفقد هدوءك أبداً (الحق أنه لم يزعم هذا في يوم من الأيام)، فلماذا تكلمني بهذه اللهجة الغريبة؟. انني مستعدة لأن أضحي في سبيلك بهذه المسرة، فإذا أنت تطالبني بأن أذهب إليها، والأنكى من ذلك أنك تتبع في هذا أسلوباً ساخراً لا عهد لي به فيك!

- طيب!... أنت «تضحين بنفسك» (قال ذلك مشدداً على هذه الكلمة)، وأنا أضحي بنفسي أيضاً. فهل يرغب الإنسان في أكثر من هذا؟ كلانا سمح كريم. هل يمكن أن يكون الإنسان سعيداً في حياته الزوجية معادة أكثر من هذه السعادة؟

تلك أول مرة أسمعته ينطق فيها بكلمات ساخرة سخراً قاسياً إلى هذا الحد. فجرحتني تهكمه بدلاً من أن يخجلني، وسرى إليّ احتياجه بدلاً من أن يخيفني. أهو الذي يتكلم بهذه اللهجة حقاً، هو الذي كان دائماً ينتقي العبارات الطنانة في علاقاتنا، هو الذي كان صريحاً وبسيطاً في جميع الأحوال؟ ولماذا؟ لأنني مستعدة لأن أضحي في سبيله بمسرة لا أجد فيها أي ضير، لأنني قبل دقيقة واحدة فهمت كل الفهم، وأحبته أعظم الحب؟ لقد تغير حالانا، فالآن هو الذي يتحاشى الكلمات المباشرة البسيطة، وأنا التي أنشدها وأتحررها.

قلت له متتهدة:

- لقد تبدلت كثيراً! ماذا جنيت من ذنب في حقك؟ ليست المسألة مسألة هذه السهرة، فلا بد أنك تحمل لي حقداً قديماً، لماذا لا تكون صريحاً؟ هلاً قلت لي ما تأخذه عليّ، من دون مواربة!

وقلت لنفسي: «بماذا عساه يجيب»، كنت مرتاحة الى أنه ليس هناك ما يأخذه عليّ خلال هذا الشتاء.

وتقدمت الى وسط الغرفة، بحيث لا بد أن يلامسني أثناء مروره. وكنت لا أحول عنه بصري. وبرق في خاطري أنه «سيقترّب مني، فيقبلني، فيتهي كل شيء»، حتى لقد شقّ على نفسي أن أنصوّر أنني سيكون عليّ أن أبرهن له على مدى الخطأ الذي ارتكبه. ولكنه وقف جامداً في آخر الغرفة، ونظر إليّ، وقال يسألني:

- ألم تفهمي بعد؟

- لا.

- سأقول لك إذاً. انني أشمّز، إنني لأول مرة في حياتي أشمّز مما أشعر به ويستحيل عليّ أن لا أشعر به.

قال ذلك وصمت، وكان واضحاً أنه ارتاع من نبرة صوته الخشنة.

سألته والدموع في عينيّ:

- ولكن ماذا هنالك؟

- انني أشمّز حين أعلم أن الأمير قد وجدك جميلة، وحين أراك مستعدة كل الاستعداد لأن تركضي إليه ناسية زوجك ونفسك، مهملة ما لك من كرامة المرأة، رافضة أن تفهمي ما لا بد أن أشعر به عنك إذا لاحظ أنك تفتقدين الإحساس بالشرف، حتى لتعلنني لزوجك أنك «تضحين» بنفسك، فكانك تقولين: «كان يشرفني كثيراً أن أظهر لعيني صاحب السمو، لكنني أضحي بنفسي».

وكان كلما أوغل في الكلام ازداد اندفاعاً وحرارة، وازدادت نبرات صوته مراة وقسوة ولذعاً. لم يسبق أن رأيته على هذه الحال في يوم

من الأيام، ولم أكن أتوقع منه مثل هذه الغضبة. وأحسست بالدم يزدحم في قلبي، وشعرت بجزع وهلع، ولكنني في الوقت نفسه شعرت بأنني أمان إهانة لا أستحقها، وبأن كرامتي تُجرح جرحاً بالغاً، فاضطربت وأردت أن أنتقم.

قلت له: كنت أتوقع هذا منذ مدة طويلة. تكلم. أكمل!

فأردف يقول:

- لا أدري ما الذي كنت تتوقعينه. أما أنا فقد كنت أتوقع أسوأ النتائج، حين كنت أراك كل يوم في ذلك الحمأ، وفي ذلك الفراغ، وفي ذلك الترف، وفي ذلك المجتمع الغبي بأسره. وتحققت مخاوفي... وأحسست اليوم بخزي وعار، وتألمت كما لم أتألم من قبل قط. تألمت لك، حين دسّت صاحبك يديها الوسختين في قلبي فتكلمت عن الغيرة، بل كلمتني عن غيرتي! وعن غيرتي ممن؟ من رجل لا نعرفه كلانا... ثم ترفضين أنت، بما يشبه العمد، أن تفهمي، فتكلميني عن تضحية قومين بها في سبيلي. بماذا تضحين لي؟ ألا إني لأشعر عنك بالعار... ألا إني لأرثي لحالك الذليلة... ألا إني لأحس بخزي!... مسكينة ضحية!

هكذا ختم كلامه. فقلت لنفسي: «ها... هذه هي إذاً سلطة الزوج على زوجته. يهين امرأة بريئة ويذلها إذلالاً! هذه هي إذاً حقوق الزوج. ولكنني لن أخضع!».

قلت وقد أحسست بمنخريّ يتسعان اتساعاً غير طبيعي، وشعرت بالدم يبرح وجهي:

- لا. لا أضحي لك بشيء. سوف أحضر السهرة يوم السبت. سوف أحضرها حتماً.

فصرخ يقول وقد اجتاحتني سورة غضب رهيبه لم يستطع كبجها:
- أتمنى لك المسرة، ولكن كل شيء بيننا قد انتهى! ولن يعذبني أمرك
بعد اليوم أبداً.

ثم عاد يتكلم. فقال:
- لقد كنت غيباً حين...

ولكن شفتيه اختلجتا، ورأيت يسهل جهداً قوياً من أجل أن يسيطر
على نفسه فلا يكمل الجملة التي أو شك أن يقولها.
خشيت وكرهته في تلك الدقيقة. أردت أن أقول له أشياء أخرى كثيرة،
انتقاماً للآهانة التي نالني بها. ولكن لو قد فتحت فمي لانفجرت أبكي
ولانحط قدري أمامه. فغادرت الغرفة من دون أن أقول شيئاً. ولكن ما
إن انقطع عن سمعي صوت وقع خطاه، حتى أحسست فجأة بخوف
مما فعلنا. شعرت بخوف شديد إذ تصورت أن الرابطة التي كانت كل
سعادتي قد تتحطم إلى الأبد، وأغراني أن أقفل راجعة إليه. ولكنني
تساءلت: «هل استرد من هدوئه ما يكفي لأن يفهمني حين سأمدُّ إليه
يدي صامتةً وأنظر إليه حزينة؟ هل سيدرك عندئذ شهادتي ونبل نفسي؟
أم تراه سيصف أساي بأنه تصنع ونظاهر؟ وماذا لو غفر لي وقبّل ندمي
وتوبني بتكبر هادئ وشعور بأنه كان على حق؟ ثم لماذا، لماذا أهانني
بتلك القسوة الشديدة أنا التي أحبه هذا الحب كله؟».

ولم أرجع إليه، بل مضيت إلى غرفتي، وطفقت أبكي مدة طويلة،
وأذكر حديثنا كلمة كلمة، وأحلُّ محلَّ الجمل التي قيلت جملاً غيرها،
وأضيف إليها تعابير أرق، فأخذ الواقع يظهر لي بكل هوله مرة أخرى،
فيؤجج إحساسي بالإهانة مزيداً من التأجج. ولما خرجت من غرفتي

في المساء لتناول الشاي مع «س....» الذي جاء يزورنا، فالتقيت بزوجي، أدركت أن هوةً سحيقة قد قامت بيننا منذ هذا اليوم. وسألني «س...» متى ننوي أن نساfer، فانبرى زوجي يجيبه فوراً قبل أن أنطق أنا بشيء:

- يوم الثلاثاء. لأننا سنحضر حفلةً تقيمها الكونيسة «...».
وأضاف يسألني أنا:

- ذلك أنك ستحضرين الحفلة، أليس كذلك؟
روّعتني هذه النبوة المألوفة في صوت زوجي، فألقيت عليه نظرة وجلّة. كانت عيناه منصبتين عليّ انصباباً، وكأننا تعبران عن فيض من الغضب والسخرية، مع بقاء صوته مطرداً بارداً.
قلت أجيبه:

- نعم
وحين خلونا في المساء، دنا مني، ومدّ اليّ يده، وقال:
- أرجوك أن تنسي كل الكلام الذي أقلت مني.
فأخذت يده، وألمت بشفتي ابتسامة مترددة، وأوشكت دموعي أن تسيل، ولكنه أسرع يستلّ يده، كأنه يخشى أن ترقّ نفسه، وجلس على مقعد بعيداً عني.

قلت لنفسني: «ألا يزال يعتقد بأنه على حق؟». وكنت أهم أن أشرح له ما بنفسي، وأن أعلن له رغبتني في العدول عن حضور الحفلة، فجمد الكلام على شفتي ولم أقل شيئاً.
قال:

- يجب أن أكتب الى ماما أننا أرجأنا سفرنا، وإلا قلقنا.

- فسألته: متى تنوي أن نسافر؟

فأجاب:

- يوم الثلاثاء، بعد السهرة.

قلت وأنا أنظر في عينيهِ:

- أرجو أن لا أكون أنا سبب هذا التأخير.

ولكن عينيهِ كانتا تنظران إليَّ من دون أن تعبّرا عن شيء، فكأن حجاباً يخفي عني نظرتَه. وبدا لي وجهه شائخاً منفراً على حين فجأة. ومضيّنا الى السهرة. حتى ليتمكن أن يُظن أن علاقائنا قد عادت علاقات صداقة. والواقع أن هذه العلاقات لم ترجع الى ما كانت عليه من قبل.

وفي أثناء السهرة، بينما كنت جالسةً مع ضيوف آخرين، تقدم مني الأمير، فوجدت نفسي مضطّرةً الى النهوض لأكلمه. وبحثت عن زوجي بعينيّ كأنما رغم ارادتي، فلمحتَه في آخر الصالة ينظر إليّ ويشيح عني. فاذا أنا أحس بضيق وخجل بلغا من الشدة أنني شعرت بحرج قوي واصطبغت بحمرة بلغت مني العنق على مرأى من الأمير، ولكن كان لا بد لي من البقاء واقفةً ومن الاستماع الى ما كان يقوله لي وهو ينظر إليّ من الرأس الى القدمين. ولم تطل محادثتنا، اذ لم يكن للأمير مقعد يجلس عليه بقربي، ولا بد أنه أدرك ما أنا فيه من ارتباك. تكلمنا عن حفلة الرقص الماضية، وعن اصطيافي، وما الى ذلك. وحين تركني أعرب لي عن رغبته في التعرف الى زوجي، ورأيتهما يلتقيان ويتكلمان في آخر الصالة. ولا شك أن الأمير قال شيئاً عني، لأنه التفت الى جهتي في وسط محادثتهما مبتسماً.

وقد احمرّ وجه زوجي فجأة، وحيّا الأمير بانحناء شديدة، وبادر الى تركه. فاحمر وجهي أنا أيضاً، وخجلت مما لا بد أن الأمير رأى من رأيي فيّ وفي زوجي خاصة. وتراءى لي أن جميع الناس لاحظوا خجلي الأخرق حين كنت أكلّم الأمير، ولاحظوا بادرته الغريبة. والله يعلم كيف فسروا هذه كله، وبماذا عللوه. تُرى ألم يحزروا المناقشة التي كانت قد نشبت بيني وبين سرجي؟

أوصلتني ابنة عمي الى بيتي، فتحدثنا في أثناء الطريق عن زوجي ولم أستطع أن أملك زمام نفسي، فحكيت لها كل ما حدث بصدد هذه السهرة المشؤومة. فأخذت تواسيني، وقالت إن هذا شجار عادي لا يدل على شيء، وليس له شأن أو قيمة، ولن تبقى له آثار. ووصفت لي طبع سرجي، وأعربت لي عن رأيها هي، فقالت إنه أصبح شديد الكبرياء قليل الإفصاح عما بنفسه. فأضفت أنا في الكلام بهذا المعنى، وخيل إليّ أنني أصبحت الآن أشد هدوءاً، وأصبحت أفهم زوجي أكثر مما كنت أفهمه من قبل.

ولكنني حين خلوت الى سرجي ثقل على ضميري هذا الحكم الذي أصدرته في حقه، وأحسست بأنني في إصدار هذا الحكم قد قارفت جرماً، وشعرت بأن الهوة التي أصبحت تفصل أحداً عن الآخر قد اشتد عمقها.

- 3 -

منذ ذلك اليوم تبدلت حياتنا وتبدلت علاقاتنا تبديلاً كاملاً. لسنا الآن سعيدين معاً كما كنا سعيدين معاً من قبل. صرنا نتحاشى الخوض في بعض الموضوعات، وصار تخاطبنا بحضور شخص ثالث أسهل علينا من تخاطبنا حين يخلو أحدهنا الى صاحبه. ومتى دار الحديث على الحياة بالريف، أو جاء الحديث على ذكر السهرة، اضطرب بصرانا، فالتقى كل منا توجيه نظره الى الآخر. لكأننا نشعر كلانا بموضع الهوة التي تفصل بيننا، فنحن نخشى أن نقرب من ذلك الموضع. اقتنعت بأنه شديد الكبرياء سريع الغضب، وبأن عليّ أن أكون حذرة حتى لا أمس النقاط الحساسة في نفسه. وظل هو مقتنعاً بأنني لا أستطيع أن أحيأ بعيدة عن المجتمع، وبأن عليه أن ينصاع لهذا الميل الذي يؤسف له. وتحاشينا كلانا أن نتكاشف ونتصارح في هذه الامور، وحمل كل منا آراء خاطئة في الآخر. وأصبحنا منذ مدة طويلة لا نعدّ نفسينا أكمل مخلوقات الله على هذه الارض، وصرنا نقارن بيننا وبين غيرنا، وأصبح

كل منا يصدر حكماً في حق الآخر بينه وبين نفسه.

وقد أصبت بوعكة قبل سفرنا، فلم نرحل الى الريف، وانما ذهبنا الى مصيف، ومن المصيف رجع سرجي الى أمه وحده. وكنت حين تركني قد أبللت من مرضي إيلالاً كافياً فأستطيع أن أتبعه، ولكنه أقنعني بالبقاء كالخائف على صحتي. فأحسست بأن ما يشغل باله ليس حالتي الصحية، وانما هو طراز الحياة التي سنحياها في الريف، فلم ألحف كثيراً، وبقيت في المصيف. وقد خلف لي سفره فراغاً، وشعرت بوحدة موحشة، ولكنني لاحظت حين عاد أنه أصبح لا يحمل الى حياتي ما كان يضيفه إليها في الماضي. وزالت علاقاتنا القديمة شيئاً بعد شيء، وحلّت محلها علاقات أخرى، فلا الفكرة التي نخطر ببالي أو العاطفة التي تجيش في نفسي تعذبني كذنب حين لا أنقلها اليه وأحدثه عنها، ولا كل فعل من أفعاله أو كل قول من أقواله يبدو لي مثال الكمال، ولا الضحك الذي كنا نضحكه فرحين لغير سبب ظاهر حين ينظر أحدنا الى الآخر قد بقي منه أثر. وحين لاحظنا هذا التبدل، كان الأوان قد فات. أصبح لكل منا هموم خاصة تشغل باله فلا يحاول أن يشرك فيها صاحبه. وأصبح لا يقلقنا أن نرى أن لكل منا عالماً مستقلاً لا ينفذ إليه الآخر. وقد بلغنا من التعود على هذه الحال أننا أصبحنا بعد سنة لا يضطرب بصرانا إذا التقيا. واختفت فورات مرحه، وزالت انطلاقة الصبائية، وانقضى ما كان يغیظني منه في الماضي من جلال التسامح وقلة الاكتراث. وغابت نظرتة العميقة تلك التي كانت تملأني تهيأً وتملأني ارتياحاً. وانقطعت الصلوات المشتركة، وكفّت اندفاعات الحماسة. وأصبحنا في كثير من الأحيان لا نلتقي لعدة أيام، فسرجي

يغيب ولا يؤسفه أن يتركني وحيدة، وأنا من جهتي محاطة بالناس فلا أشعر بالحاجة الى وجوده.

خلت حياتنا من المشاجرات والمشاحنات. كنت أحاول أن أرضيه، وكان هو ينفذ جميع رغباتي، فكان يبدو أننا نعيش في وفاق تام وتفاهم كامل.

فإذا خلا أحدنا الى صاحبه - وهذا يحدث نادراً - لم أشعر لا بحرج، ولا بفرح، ولا بانفعال، فكانني قد خلوت الى نفسي لا إليه. كنت أعلم أن هذا زوجي وليس انساناً جديداً مجهولاً، وأنه رجل طيب... زوجي الذي أعرفه كما أعرف نفسي. كنت على ثقة بأنني أعرف سلفاً ما قد يفعل، وما قد يقوله، وبأنني أعرف سلفاً كيف سينظر اليّ، فإذا لم تصدق تنبؤاتي، اعتقدت أنه أخطأ وضلّ الطريق. الخلاصة أنه كان زوجي، لا أكثر من ذلك! وكنت أرى أن الأمر لا بد أن يكون كذلك، وأن ليس ثمة علاقات أخرى يمكن أن تقوم بيننا، وإن لم يكن بيننا غير هذه العلاقات في يوم من الأيام. كان إذا غاب - ولا سيما في الآونة الاولى - أشعر بعزلة، وأشعر بخوف. كنت في غيابه أدرك أنه سند لي أكثر مما أدرك ذلك في حضوره. فإذا عاد وثبت الى عنقه فرحة، ثم لا تنقضي ساعتان إلا أكون قد نسيت ذلك الفرح نسياناً تاماً، ولم يبق عندي ما أقوله له. في لحظات الحنان وحدها، وهو حنان هادئ معتدل، إنما كنت أستشف ما بيننا من خلاف فيحز في نفسي ذلك ويحزنني، ويتراءى لي أنني أقرأ هذه المعاني نفسها في عينيه أيضاً. وكنت أعرف أن لهذا الحنان حداً، لا يريد أن يتجاوزه، وأنني أصبحت أنا عاجزة عن تجاوز ذلك الحد. وكان يعتريني حزن في بعض الأحيان ولكن

وقتي لا يتسع للتوقف عند أي شيء، فكنت أحاول أن أتلهى عن ذلك الحزن بتسلّيات ما أكثرها! إن حياة المجتمع التي أسكرني تألقها في البداية وأرضى حبي لنفسي، قد استولت على ميولي في النهاية استيلاء تاماً، وأصبحت عادة متأصلة، وكبلتني بأغلالها وحلت في نفسي محل العاطفة. أصبحت لا أدخل إلى نفسي، وأخشى أن أتعلم في تحليل وضعي. وصار وقتي مشغولاً من الضحى إلى ساعة متأخرة من الليل، فأنا لا أملكه وإن لم أخرج. وأصبح هذا لا يحمل إليَّ بهجةً ولا يحمل إليَّ ضجراً: وبُتُّ أعتقد بأن الأمور يجب أن تجري هذا المجرى، لا مجرى آخر.

ثلاث سنين انقضت على هذا الحال، ما تغيرت في خلالها علاقاتنا، بل بقيت ثابتة جامدة، فلا هي تسوء ولا هي تتحسن. وقد طرأ على حياتنا الزوجية في هذه المدة حادثان، لكنهما لم يبدلا حياتنا في شيء. فأما الحادث لأول فهو ولادة ابني الأول، وأما الحادث الثاني فهو وفاة تاتيانا سيميونوفنا. وقد استولى عليَّ حب الأم في أول الأمر استيلاءً بلغ من القوة، وأحسست بنشوة بلغت من الشدة ومن قلة توقعي لها، أنني انتظرت أن أرى حياتي تتبدل. ولكن ما إن انقضى شهران، وما إن استأنفت الخروج، حتى أخذت تلك العاطفة تتناقص ثم إذا هي تصبح عادة من العادات، وقياماً بواجب. ولم يكن هذا حال سرجي، فإنه منذ ولادة ابنتنا قد أصبح رقيقاً هادئاً يحب البقاء في البيت، وعاد إليه حنانه القديم ومرحه السابق، إلا أنه يصب الآن هذا الحنان وهذا المرح على الطفل. وكثيراً ما اتفق لي، حين كنت أدخل مخدع ابني بثوب المساء لأتمنى له ليلة سعيدة، أن ألقى زوجي عنده، فأرى نظره المثقلة باللوم

تحدّق إليّ، فأحس بخجل. ثم روعتني قلة اكتراثي بالطفل على حين فجأة، فكنت أسأل نفسي: «أأكون أسوأ من النساء الأخريات؟ ما العمل؟... إنني أحب ابني، ولكنني لا أستطيع أن أقضي بجانبه سحابة نهاري، وإلا شعرت بضجر. وما أنا بقادرة على التظاهر!».

وقد سبّب موت حماتي حزناً شديداً لسرجي، حتى لقد كان يقول: «يؤلمني أن أعيش في نيكولسكويّا من دونها». أما أنا فرغم ما أحسست به من حسرة لموتها، ورغم أنني شاركت سرجي ألمه، أصبحت أجد الحياة في الريف أهدأ وأمتع. وفي خلال هذه السنين الثلاث، قضينا الشطر الأكبر من وقتنا في المدينة، ولم أعد إلى نيكولسكويّا إلا مرة واحدة منذ شهرين. وفي السنة الثالثة سافرنا إلى الخارج. فقضينا فصل الصيف في مدينة من مدن المياه المعدنية.

كنت حينذاك في الحادية والعشرين من عمري. وكانت أحوالنا زاهرة في ما أتصور، وكنت لا أطلب من حياتي الزوجية شيئاً أكثر مما كانت تعطيني. كان يبدو على جميع من يعرفوني أنهم يحبونني. وكنت في كمال الصحة والعافية، وكانت زينتني من أشد الزينات أناقة، وكنت أعرف أنني جميلة، وكان الجو رائعاً، وكان يحيط بي جو ساحر من الجمال والأناقة، وكنت أحس بغبطة كبيرة. ما أشعر به الآن ليس هو ذلك الفرح الذي عرفته في نيكولسكويّا، حيث كنت أشعر بأنني سعيدة بنفسي، وأنني أستحق تلك السعادة التي كانت كبيرة ولا شك، ولكنها كانت لا تروي كل ظمأي إلى السعادة. ذلك كان شيئاً آخر. على أنني في هذا الصيف كنت مغتربة. كنت لا أتمنى شيئاً، ولا أمل في شيء، ولا أخشى من شيء وكانت حياتي تبدو لي ملأى، وكنت

هادئة البال مرتاحة الضمير. ولم يكن بين جميع الشباب المصطفائين من أستطيع أن أميّزه على غيره، ولا حتى عن الأمير «ك...»، سفيرنا الذي كان يغازلني. وكان بين المصطفائين شباب، وكان بينهم مسنون. فمن فرنسي أشقر، الى انجليزي ذي لحية صغيرة. ولكنهم جميعاً متساوون في نظري، لا أكثرث بهذا أكثر مما أكثرث بذلك، وإن يكن وجودهم ضرورة لا غنى عنها، فهم الذين كانوا يخلقون ذلك الجو المرح الذي كان يحيط بي. واحد فقط، هو المريكز الايطالي «د...» استطاع أن يجتذب انتباهي أكثر من غيره، وذلك بجرأة التعابير التي كان يستعملها في التعبير عن إعجابه بي. كان لا يفوّت فرصة واحدة تمكنه من مصاحبتي للرقص أو ركوب الخيل أو الذهاب الى الكازينو، أو غير ذلك، وتمكّنه من أن يعلن لي أنني جميلة. ولقد رأيت من النافذة مراراً يحوم حول منزلنا، وكثيراً ما كانت نظرة عينيه المضايقتين، المحدثتين، تجعلني أحمرّ وأشيح وجهي. كان شاباً، وكان وسيماً، وكان أنيقاً، وكانت ابتسامته وجهته، خاصة، تذكّراني بسرجي، وإن يكن المريكز أجمل كثيراً من سرجي. لقد أذهلني هذا الشبه، رغم أنه شتان بين ما يعبر عنه مظهره العام وفمه ونظرته وذقنه المستطيلة من حيوانية تفسد جميع قسّمات وجهه، وبين ما تعبر عنه طلعة زوجي من طيبة رائعة وهدوء كامل يجذباني إليه ويفتّاني به. وقد افترضت حينذاك أنه هائم بحبي، حتى لقد اتفق لي أن أحسست باعتزاز بنفسي واشفاق عليه وأنا أفكر فيه. وكنت أحاول في بعض الأحيان أن أهده وأن أردّه الى سكينه تشبه سكينه الصداقة، ولكنه كان يتغافل عن محاولاتي هذه، ويظل يضايقني بتولّيه الذي كان يكظمه ولكنه يهّم أن ينفجر في كل لحظة.

كنت أخشى هذا الرجل من دون أن اعترف لنفسي بذلك، وكنت أفكر فيه كثيراً. وقد عرفه زوجي فكان يخاطبه بلهجة جافة باردة، وكان يعامله بتكبر واستعلاء، كما كان يفعل ذلك مع الآخرين الذين لم يكن في نظرهم إلا زوجي، بل ولكن جفونه للأمير وتكبره عليه كان أشد وأوضح. وقد مرضت في آخر الصيف فلزمت غرفتي خمسة عشر يوماً، فلما خرجت أول مرة، علمت أن ليدي «س...» التي كانت تنتظر منذ مدة طويلة، وكانت معروفة بجمالها، وصلت أثناء غيابي. ولقد تكونت حولي حلقة من الناس، واستقبلت استقبالاً حاراً فيه كثير من الفرح الشديد، ولكن الحلقة التي أحاطت باللبوة الجديدة كانت ألمع من حلقتي. وكان الذين حولي لا يتحدثون إلا عنها وعن جمالها. وقد دلوني عليها، فرأيت أنها حلوة فعلاً، ولكن أزعجني عجبها بنفسها ولم أكنم رأيي. ثم إذا بكل ما كان يبدو لي قبل ذلك مسلياً، أصبح يبدو لي الآن مضجراً. وقد نظمت ليدي «س...» في الغد رحلة الى القصر، فرفضت أن أنضم الى الرحلة. فما كان أشد دهشتي حين رأيت أن أحداً لم يبق في صحبتي تقريباً، فإذا كل شيء يتغير في نظري تغيراً حاسماً، فكل شيء ممل، وكل انسان غبي، وهممت أن أبكي، وقررت أن أختم علاجي بالمياه المعدنية بأقصى سرعة فأعود الى روسيا. واجتاحني عواطف خبيثة، ولكنني لم أشأ أن أعترف لنفسي بها. وكان الوهن لا يزال يبدو عليّ من آثار المرض، فانقطعت عن الظهور في المجتمع الواسع، وصرت أكتفي بأن أخرج الى المياه وحيدة في الصباح من وقت الى وقت، أو أمضي أنتزه في ظاهر المدينة مع «ل.م.» الصديقة الروسية. وكان زوجي في تلك الآونة غائباً، فقد سافر الى هايدلبرغ

أياماً، بانتظار انتهاء مدة علاجي ثم العودة الى روسيا، وكان لا يلثم بي إلا نادراً.

وفي ذات يوم قادت ليدي «س...» الجماعة كلها الى الصيد. فذهبت بعد الظهر أنا و«ل.م.» الى القصر. فقيما كانت العربية تجتاز السور سائرة على طريق متعرج تحفه من جانبيه أشجار الكستناء القديمة التي تُرى من خلالها أرباض المدينة وقد أضاءتها أشعة الشمس الغاربة، أخذنا نتحدث حديث جد، كما لم يحدث لنا ذلك من قبل أبداً. فإذا بالسيدة «ل.م.» التي كنت أعرفها معرفة حسنة، تبدو لي لأول مرة، امرأة طيبة ذكية يستطيع الانسان أن يقول لها كل شيء ويسرّه أن يعدّها صديقة. تكلمنا عن الأسرة، وعن الأولاد، وعن الحياة الخالية من المعنى التي نعيشها هنا، وتمنينا أن نرجع الى روسيا، الى الريف، واعترانا شيء من حزن عذب. كان الظل بين أسوار القصر أميل الى البرودة، وفي أعلى كانت الشمس تتلاعب على الانقراض، وكانت تُسمع أصوات خطى وكلام، وكان باب كبير من أبواب السور أشبه باطار يُرى منه منظر مدينة بادن الجميل الذي يبدو لنا، نحن الروس، باهتاً بارداً. وجلسنا لنستريح، وأخذنا نتأمل غروب الشمس صامتتين. وأخذت أصوات الكلام تترجع جليةً بعض الجلاء، وخيل إليّ أنني أسمع أحداً ينطق باسمي. فانصت فإذا أنا أسمع كل كلمة من الكلمات. إنني أعرف الصوتين اللذين يتكلمان: هما صوت التركيز «د...» وصوت صديق فرنسي له كنت أعرفه أيضاً. كانا يتكلمان عني وعن ليدي «س...». وكان الفرنسي يقارن بيني وبينها، محللاً جمالي وجمالها. لم يقل عني شيئاً يهينني، ولكن الدم ازدحم في قلبي حين

فهمت الآراء التي كان يعرضها. كان يذكر بالتفصيل عناصر جمالي وعناصر الجمال في ليدي «س...». فقال إن لي ولداً، على حين أن ليدي «س...» لا يتجاوز عمرها التاسعة عشرة. وقال إن شعري أجمل ولكن قامة ليدي «س...» أرشق، وقال إن الانجليزية عدا ذلك سيدة عظيمة، أما صاحبك فليست الا واحدة من تلك الأميرات الروسيات اللواتي أصبحنا نرى منهن أعداداً كبيرة هنا، وختم كلامه بقوله إنني كنت على حق حين لم أحاول أن أنافس ليدي «س...»، وإنني قد دُفنت في بادن دفناً، فلن تقوم لي فيها قائمة بعد الآن.

- إنني أرثي لحالها وتأخذني بها شفقة.

فأضاف الفرنسي وهو يضحك ضحكة فرحة قاسية:

- إلا أن تقرر أن تسرّي عن نفسها بك.

فانبرى الصوت ذو اللكنة الإيطالية يقول:

- إذا سافرت فسوف أتبعها.

- يا للإنسان السعيد! إنه لا يزال قادراً على الحب.

كذلك قال الفرنسي ضاحكاً.

فقال الصوت الآخر بعد صمت قصير:

- الحب! إنني لا أستطيع الامتناع عن الحب! الحياة بغير حب ليست

شيئاً. لا أحلى من أن يجعل المرء حياته رواية. ورواياتي لا تنفد أبداً في

منتصف الطريق. وسوف أعرف كيف أمضي بروايتي هذه الى نهايتها أيضاً.

قال الفرنسي:

- أتمنى لك حظاً حسناً يا صديقي.

لم نسمع تنمة الحديث، لأنهما انعطفا عند الزاوية، وسمعنا وقع

أقدامهما يصل إلينا من الجهة الأخرى، ثم هبطا السلم، فما هي إلا بضع لحظات حتى دخلا من باب في جانب، فما كان أشد دهشتهما حين رأينا هناك. وقد احمرّ وجهي حين دنا المريكيز «د...د» مني، وخفت كثيراً حين قدّم إليّ ذراعه ونحن نغادر القصر. لم يكن في وسعي أن أصدّه، وسرنا متجهين إلى العربة في إثر «ل.م.» التي مشيت أمامنا مع الفرنسي. كنت ملسوعة مما قاله عني هذا الفرنسي، رغم اعترافي في دخيلتي بأنه عبّر عمّا كنت أحسّه أنا نفسي. ولكن أقوال المريكيز قد أدهشتني، وأثارتنني غلظتها. كان يعذبني أن أنصوّر أنه لا يخشاني رغم أنني سمعت كلامه. وشعرت باشمزاز شديد من إحساسي بشدة قربه مني. فكنت أحاول أن أمسك ذراعه من دون أن أشعر بملامستها، وكنت لا أنظر إليه، ولا أردّ على كلامه، وأحسّ الخطى وراء «ل.م.» والفرنسي. كلمني المريكيز عن جمال المنظر وعن سعادته بهذا اللقاء الذي لم يكن يأمل أن يحظى به، وكلمني عن أمور كثيرة أخرى، ولكنني كنت لا أصغي إليه، وإنما أفكر في زوجي، وأفكر في ابني، وأفكر في روسيا. كان شيء ما يُشعرني بخزي، وكنت أحسّ بحسرات وندامات، وأحسّ برغبات غامضة مبهمّة، وأسرع بالعودة إلى غرفتي المعترلة من «أوتيل بادي»، لأفكر في كل ما شَبّ في نفسي من مشاعر. ولكن «ل.م.» كانت تسير بخطى بطيئة، والعربة لا تزال بعيدة، وكان رفيقي كمن يصرّ إصراراً عنيداً على أن يجعل سيره بطيئاً، حتى لكانه يحاول أن يستوقفني.

قلت محدثةً نفسي: «مستحيل»، وحششت الخطى عازمة جازمة. ولكن ها هوذا يحبسني عن الإسراع، حتى إنه يضغط ذراعي. وغابت

«ل.م.» عند منعطف الطريق، فأصبحنا أنا والمركيز وحيدين تماماً.
خفت خوفاً شديداً.

قلت وأنا أحاول أن أخلص ذراعي: معذرة.

ولكن تخريمة كمي اشتبكت بأحد أزراره. فمال بجذعه عليّ وأخذ يخلص الزر من التخريمة، فكانت يدها، اللتين لا تلبسان قفازين، تلامس ذراعي. فإذا بإحساس جديد عليّ، إحساس هو مزيج من هول ولذة معاً، يُجري في ظهري قشعريرة باردة. فرفعت بصري اليه لألقي عليه نظرة باردة تجعله يشعر بمدى ما يوقظ في نفسي من احتقار له. ولكن عينيّ عبّرتا عن شيء آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف، عبّرتا عن جزعي واضطرابي. وكانت عيناه الملهتهتان، المخضلتان، القريبتان مني كل القرب، تحدقان الى نحري وعنقي، وكانت يدها تنزلقان على ذراعي، وكانت شفاته المنفرجتان تتكلمان فتقولان إنه يحبني وإنني كل شيء عنده، وكانت شفاته تقتربان مزيداً من الاقتراب، وكانت يدها تضغطان يديّ مزيداً من الضغط فتحرقاني حرقاً. شعرت بنيران تجري في سراييني، وزاغ بصري، وارتجفت، وماتت في حلقي الكلمات التي كان يجب أن توقفه. وفجأة شعرب بقبلة على خدي، فرأيتني جامدة لا أتحرك، ورأيتني أنظر إليه مرتعشة. كنت عاجزة عن أن أقول شيئاً أو أن أقوم بحركة، وكنت مرتاعة ارتباعاً هائلاً، أنتظر شيئاً وأتمنى شيئاً... لم يدم ذلك كله الا لحظة واحدة. ولكن هذه اللحظة كانت رهيبه! لقد رأيته كله في تلك الثانية. قرأت ما في وجهه قراءة واضحة: رأيت جبهته المحدبة التي تظهر تحت قبعته والتي كانت تذكرني بزوجي، ورأيت أنفه، ذلك الأنف الجميل المستقيم ذا المنخرين الفاغرين، ورأيت

خديه الحليقين الناعمين، ورأيت رقبة الملوحة، فأبغضته، وخشيت،
وبدالي غريباً عني كل الغرابة، بعيداً عني كل البعد، لا يمت إليّ بصلة
من الصلات. ولكن ما كان أشد انعكاس اضطراب هذا الرجل البغيض
إليّ، الغريب عني، وما كان أشد انعكاس هواه المشبوب في نفسي!
شعرت برغبة قوية لا تكاد تقاوم في أن استسلم لقبلات هذا الفم
العامي الجميل، وأن أستسلم لعناق يديه البيضاء المزدانة أصابعهما
بالخواتم. شعرت برغبة قوية في أن أهوي منكسة الرأس الى الهاوية
التي تجذبني الى ملذات محرمة...

وقلت أحدث نفسي: «إنني شقية شقاء كبيراً، فلا بأس في أن أشقى
مزيداً من الشقاء، وأن ينزل عليّ مزيد من البلاء!...».
وضمني الى صدره بذراعه، ومال على وجهي.
وتابعت حديثي الى نفسي قائلة: «ألا فليقترب مني العار ولتقترب
مني الخطيئة مزيداً من الاقتراب!...».
دمدم يقول بصوت ذكّرني بصوت سرجي تذكيراً عجبياً:
- أحبك.

ووافاني خيال زوجي وخيال ابني كانسانين كانا عزيزين على نفسي
في الماضي، ولكن كل صلة لهما بي قد انقطعت الآن. وفي تلك
اللحظة ترجّع صوت «ل.م.» وراء المنعطف يناديني على حين فجأة.
فسرعان ما استرددت هدوئي، وسعيت الى «ل.م.» بما يشبه الركض
من دون أن أنظر الى المركز. وحين ركبنا العربة انما رفعت بصري
اليه. فخلع قبعته وطلب مني شيئاً وهو يتسم. كان لا يدرك التقزز
الشديد الذي كنت أشعر به منه في تلك اللحظة.

وبدت لي حياتي شقية أكبر الشقاء، وبدأ لي مستقبلي خالياً من كل أمل، وبدأ لي ماضي أسود شديد السواد. وأخذت «ل.م.» تكلمني فكننت لا أفهم منها شيئاً. كان يلوح لي أنها لا تكلمني إلا شفقة عليّ، واخفاء لما أوقفه في نفسها من شعور الاحتقار. فكننت أرى ذلك الاحتقار في كل كلمة من كلماتها، وفي كل نظرة من نظراتها، وقد مازجته شفقة تُهين الكرامة. كان عار القبلة يحرق خدي حرقاً، وكان تصور سرجي وابني يحطم نفسي تحطيماً. حتى إذا صرت في غرفتي أملت أن أستطيع التفكير في حالي، ولكن العزلة صعقتني. ولم أكمل حسو الشاي الذي أتيت به، ثم إذا أنا أشرع - لا أدري لماذا - في الاستعداد بسرعة محمولة للسفر على قطار المساء ذاهبةً إلى زوجي في هايدلبرغ.

فلما استقر بي المقام مع خادمتي في عربة القطار الخالية، وتحرك القطار قليلاً فهبت عليّ أنسام طرية من النافذة، استرددت قدرتي على التفكير وتصوّرت ماضيّ ومستقبلي تصوراً أوضح. فإذا بحياتي الزوجية كلها منذ وصولنا إلى بترسبرج تتراءى لي في ضوء جديد، وإذا هي تثقل على ضميري حملاً باهظاً يخنقني خنقاً. ولأول مرة تذكرت العهود الأولى من إقامتنا بالريف، وتذكرت ما كنا ننويه من مشاريع، ولأول مرة خطر ببالي هذا السؤال، ماذا كانت أفراحه هو خلال تلك السنين؟ وشعرت بأنني مذنب في حق سرجي. ثم تابعت تساؤلي: «ولكن لماذا لم يوقفني؟ لماذا كان يتظاهر ذلك التظاهر؟ لماذا تجنب كل مكاشفة ومصارحة بيتنا؟ لماذا أهانني؟ لماذا لم يستعمل ما لحبه من سلطان عليّ؟ أم أنه قد انقطع عن حيي؟». ولكن، مهما يكن خطاه،

فان قبلة الرجل الغريب هي التي كانت تحرق خدي، وكنت أحس ذلك إحساساً قوياً. وكنت كلما اقترب القطار من هايدلبرغ أتصور زوجي تصوراً أوضح. وأخاف من لقائنا القريب خوفاً أشد. قلت أحدث نفسي: «سوف أقول له كل شيء»، كل شيء، سوف أغسل كل شيء بدموع الندم، وسوف يغفر لي». ولكنني كنت أنا نفسي لا أعرف ما هذا «الكل شيء» الذي سأقوله له، وكنت لا أصدق كثيراً أنه سيغفر لي.

وما إن دخلت غرفة سرجي، ورأيت وجهه الهادئ رغم ما اعتراه من دهشة، حتى أحسست أن ليس هناك شيء أعترف له به، وأن ليس عليّ أن التمس مغفرته. وظل ألمي دفيناً، وبقيت ندامتي مستخفية في قرارة نفسي.

قال سرجي:

- يا لها من فكرة أن تجيني! كنت أنتوي أن أذهب اليك أنا في الغد.

ولكنه حين أنعم النظر في وجهي، بدا عليه الهلع، وهتف يسألني:

- ماذا بك؟ ماذا حدث لك؟

فأجبتته وأنا لا أكاد أستطيع حبس دموعي:

- لا شيء. جئت هكذا. لنرجع. لنسافر من الغد. لنعد الى روسيا.

فتأملني صامتاً مدة طويلة، ثم قال:

- ولكن هلاً قلت لي ماذا وقع لك؟

فإذا أنا أحمرُّ وأخفض عينيَّ برغم إرادتي. فبرقت في عينيه نظرة

غضب شديد. فخفت مما قد يساوره من أفكار، فإذا أنا أجييه بتظاهر

أدهشني ما فيه من مكر:

- لم يقع لي شيء. كل ما هنالك أنني شعرت بضجر، وأحسست بحزن

من وحدتي، وفكرت كثيراً في حياتنا وفيك. إنني أذنب في حقك منذ مدة طويلة. لماذا تصحبنني الى حيث لا تحب أن تصحبنني؟
وكررت أقول:

- انني أذنب في حقك منذ زمن طويل.
وترقرقت في عيني دموع جديدة. وأضفت:
- لنعد إلى الريف، لنعد إلى الريف ثم لا نغادره أبداً.
فقال يجيبنني ببرود:

- يا صديقتي، جئيني مشاهد العاطفة هذه! لأن تحبي أن تعودني الى الريف فهذا أمر حسن جداً، لأننا في ضيق مالي. أما أن تقولني إنك تحبين أن تعودني الى الريف ثم لا نغادره «أبداً» فذلك حلم. أنا أعلم أنك لن تستطيعي البقاء في الريف.

اسمعي: اشربي قليلاً من الشاي، فإن شرب الشاي سينفعك.
أضاف ذلك وهو ينهض ليقرع الجرس ويأمر بشاي.

تخيلت ما كان يفكر فيه، وجرح شعوري ما تصورت أنه يدور في خياله من أفكار حين وقع بصري على نظراته التي كانت تحدق إليّ معبرة عن قلة التصديق وغموض الفهم. لا! إنه لا يريد ولا يستطيع أن يفهمني. وخرجت من الغرفة متحججة بأنني ذاهبة الى الطفل، شاعرة برغبة قوية في أن أبكي، أبكي، أبكي...

استيقظ منزل نيكولسكويّا الخاوي البارد. غير أن ما كان يحيا فيه من قبل لم تعد اليه الحياة. لقد ماتت ماما، ونحن الآن وحيدان، وجهاً لوجه، لا نتمنى هذه الوحدة، بل هي تربكنا وتخرجنا. وانقضى الشتاء قاسياً عليّ، كنت متعبة، ولم أبلّ الا بعد ولادة ابنتا الثاني. وكانت صلاتي بسرجي على حالها لم تبدل، ففيها تحفظ وفيها صداقة معاً، كما كانت أيام إقامتنا في المدينة. ولكن في الريف كانت كل بلاطة من الأرض، وكانت جميع الجدران، وكان جميع الأثاث، كان ذلك كله يذكرني بما كان بمثله سرجي في نظري، وبما كان له من منزلة في قلبي، ويذكرني إذاً بما قد فقدت وما قد ضيّعت. لكن إساءة لم تغفره قد قامت الآن جداراً بيننا، يريد أن يعاقبني على ذنب قارفته، مع تظاهره بأنه لا يتبّه إليه. ولم يكن هناك أي سبب يحضّني على الاعتذار إليه، وعلى طلب مغفرته؛ كان عقابه لي هو أنه أصبح لا يسلم إليّ نفسه كلها كما كان يفعل في الماضي. ولكنه أصبح لا يسلم نفسه أيضاً الى شيء

ولا إلى أحد، كأنما هو أصبح بلا نفس البتة. وكنت أنخيل في بعض الأحيان أنه يتظاهر بذلك تظاهراً لا لشيء إلا أن يعذبني، وأن العاطفة القديمة لا تزال حية في نفسه، فكنت أحاول أن أوقف تلك العاطفة. ولكن سرجي يتحاشى دائماً نوبات الصراحة التي كانت تلثم بي، حتى لكانه يقدر أنه اصطنعها اصطناعاً، وكان يتهرّب من كل استسلام للعاطفة والحنان مخافة أن يكون ذلك مضحكاً سخيفاً. وكانت نظراته ونبرة صوته تقولان: «أنا أعرف كل شيء، أعرف كل شيء، فلا داعي إلى أن تتكلمي. كل ما تريد أن تقوليه أنا أعرفه. وأنا أعرف أيضاً أن أفعالك لا تنفق كلها وأقوالك». وكان هذا الخوف من الصدق يؤلمني في أول الأمر إيلاماً شديداً، لكنني تعودت ذلك في النهاية وألفته، مقدرة أن ما كان سرجي لا يشعر به ليس هو الصراحة نفسها بل هو الحاجة إلى الصراحة. أصبحت لا أجرو أن أسأله أن يتلو صلواته معي، أو أن يأتي يستمع إلى عزفي. وقد نشأت بيننا قواعد نلتزمها في حسن التعامل. كان كل منا يعيش حياةً مستقلة عن حياة الآخر. أما هو فمصرف إلى أعماله التي لا يجب عليّ ولا يمكنني أن أهتم بها، وأما أنا فماضية في فراغي الذي أصبح لا يضايقه ولا يسوؤه كما كان يضايقه ويسوؤه في الماضي. والولدان لا يزالان صغيرين، فلا يستطيعان أن يجمعا بيننا.

وحلّ الربيع، فجاءت كاتيا وصونيا تقضيان الصيف في الريف، وقامت في منزل نيكولسكويّا أعمال إصلاح وتغيير، فانتقلنا إلى منزل بوكروفسكويّا. أنه لا يزال ذلك المنزل القديم نفسه، بشرفته، ومائدته التي تُطوى، والبيانو في الصالون النير، وغرفتي القديمة ذات الستائر

البيض التي كانت أحلامي وأنا فتاة، كأنها منسية في ركن منها. كان في تلك الغرفة سريران: أحدهما هو السرير الذي كنت أنام عليه في الماضي، وقد خُصَّ به الآن كوكو السمين، الذي أتى إليه في كل مساء لرسم عليه إشارة الصليب، والذي كان يبعر أغطيته، والثاني سرير أصغر من الأول كان يظهر فيه رأس فانيا خارجاً من أقماطه. فإذا فرغت من رسم إشارة الصليب عليهما كليهما، كنت في كثير من الأحيان أقف في وسط الغرفة الصامتة، فإذا برؤى من الشباب نسيته منذ زمن بعيد تنبجس الآن فجأة من الزوايا والجدران والستائر. كانت أصوات من عهد الشباب تأخذ تغني ألحاناً ساذجة. أين كانت هذه الرؤى؟ هذه الأغنيات العذبة؟ إن كل ما تجرأت فعلمت به قد تحقق. إن أحلاماً غامضة قد تجسدت. ولكن الواقع قد أصبح حياة أليمة صعبة خالية من الفرح. ولم يكن قد تغير شيء مع ذلك: فمن النافذة ما تزال تُرى نفس الحديقة، ولا تزال تمتد نفس الأرض، ولا تزال تثوي نفس الدكة، وهناك، بعد الوادي، لا تزال تتردد نفس الأغاني التي يرسلها الشحرور من الغدير، ولا تزال تظهر نفس أشجار الليلك المزهرة، ولا يزال يطل على المنزل نفس القمر. ولكن كل شيء كان يبدو مع ذلك أنه تبدل بدلاً يبلغ غاية القسوة، وتغير تغيراً لا سبيل إلى الرجوع عنه! ما كان أشد الصقيع والبعد في كل ما كان يمكن أن يبدو غالياً وقريباً! وكما كنت أفعل في الماضي، أجلس الآن في الصالون مع كاتيا، ونأخذ نتكلم عنه. ولكن كاتيا قد تغضن وجهها، وشحَبَ لونها، وفارق عينيها ما كان يتلألأ فيهما من بريق الفرح والأمل، فهما تعبران عن حزن مشفق وحسرات عميقة. نحن الآن لا نتحمس لسرجي كما كنا نتحمس له

من قبل. فارقنا ما كنا نشعر به في الماضي من دهشة السعادة الكبرى،
والرغبة في أن نحدث العالم بأسره عما يدور في رأسينا: نحن الآن
نتكلم بصوت خافت كما تتكلم متأمرتان، ونساءل للمرة المائة لماذا
تبدل مجرى الأمور هذا التبدل المحزن!

ولا يزال سرجي كما كان، إلا الغضن بين الحاجبين فقد ازداد عمقا،
والأشعر الصدغين فقد اشتدّ بياضه. أما نظراته فلا تزال محجوبة عني
بغمامة قاتمة. وما أزال أنا أيضاً كما كنت، ولكن لم يبق في قلبي لا
حب ولا رغبة في الحب. وطارت الحاجة إلى العمل، وتبدد الرضا
عن النفس. وما أكثر ما أصبحت حماساتي الدينية الماضية تبدولي
الآن غريبة، وكذلك ما كنت أحمله له من حب، وما كنت أشعر به من
امتلاء حياتي! أصبحت لا أفهم الآن ما كنت أعتقد في سالف الزمان أنه
واضح وحق: أعني سعادة الإنسان بأن يحيا في سبيل غيره. علام يحيا
في سبيل غيره بينما هو قد فقد الرغبة في الحياة من أجل نفسه؟

وكنْتُ قد هجرت الموسيقى منذ سافرنا إلى بترسبرغ. ولكن البيانو
القديم ودفاتر الموسيقى القديمة أصبحت تجتذبني الآن من جديد.

وفي يوم من الأيام كنت أشعر باغواء، فبقيت في البيت وحدي.
وكانت كاتيا وصونيا قد ذهبتا مع سرجي لتفقد أعمال الإصلاح
والتجديد في منزل نيكولسكويّا. وهُيئَ الشاي، فنزلت، وبانتظار
عودتهم جلست إلى البيانو، فتحت دفتر الموسيقى على سوناتة «شبه
فانتازيا»، وأخذت أعزفها. لم يكن في المنزل أحد، وكانت النوافذ
مفتوحة تطل على الحديقة، وترجعت في الغرفة الأصوات المألوفة
الحزينة المهيبة. فلما أنهيت عزف القسم الأول رأيتني، على غير شعور

مني، بحكم عادة قديمة، ألثفت نحو الزاوية التي كان يقف فيها سرجي ليصغي الى عزفي. ولكنني لم أر سرجي. وكان الكرسي في ركنه من الغرفة، الكرسي الذي أصبح منذ زمن بعيد لا يُستعمل. ومن النافذة أبصرت شجيرة من شجيرات الليلك تتوهج وراءها الشمس الغاربة، وهبت طراوة المساء على الغرفة من المصاريع المفتوحة. وضعت كوعِيَّ على البيانو، ودفنت وجهي في يديّ، وأخذت أحلم. بقيت على هذه الحال زمناً، استعرض الماضي الذي مات إلى الأبد فأتألم، وأحاول أن أخلق مستقبلاً وأنا متهيبة وجلّة، لكنني لا أرى أمامي شيئاً، فكأنني أصبحت لا أتمنى شيئاً ولا آمل في شيء.

قلت أحدث نفسي وأنا أرفع رأسي مرتاعة: «هل يمكن أن تكون حياتي انتهت؟». ومن أجل أن أكفّ عن التفكير، ومن أجل أن أنسى، عدت أعزف على البيانو ما كنت أعزف.

وقلت مناجيةً نفسي: «اغفر لي يا رب إذا كنت مذنبّة، أو أعد إليّ كل ما كان في نفسي من جمال عظيم، أو أرشدني الى ما يجب عليّ أن أفعله! كيف ينبغي لي أن أحيأ الآن؟...».

ودوّت قرقعة عجالات على العشب، ووصل الى سمعي من درجات الشرفة وقع خطي متأنية مألوفة لم تلبث أن غابت. ولكن وقع هذه الخطي أصبح لا يحدث في نفسي ما كان يحدثه من صدى. فلما أنهيت عزفي ترجّع وقع تلك الخطي ورائي، وأحسست بيدٍ توضع على كتفي، قال:

- ما أحسنها من فكرة أن تعزفي هذه السوناتة.

فلم أجب.

- ألم تشربي الشاي؟

فحركت رأسي بإشارة النفي، ولم ألتفت الى وراء حتى لا أفضح ما كنت أعانيه من انفعال شؤّه ملامح وجهي تشويهاً.

قال:

- ستصلان حالاً. كانت الخيل توشك أن تجمع، فنزلنا في الطريق.

فأجبتة قائلةً وأنا أخرج الى الشرفة، آملة أن يتبعني:

- فلنتظرهما.

لكنه سألني عن ابنينا وذهب إليهما.

ومن جديد جعلني وجوده وصوته البسيط الصادق أعتقد بأنني لم أفقد شيئاً. ماذا أتمنى أكثر من هذا؟ ان سرجي رجل طيب رفيق عذب، نعم الاب هو ونعم الزوج! انني لأجهل أنا نفسي ماذا ينقصني! جلست تحت طنفي بالشرفة، على تلك الذكة نفسها التي جلست عليها يوم صارحته. كانت الشمس قد غابت، وكان الغسق يحل، وكانت سحابة سوداء من سحبات الربيع تظلّ المنزل والحديقة. ووراء الأشجار فقط إنما كان يرى طرف من السماء مع آخر انعكاسة حمراء تتوهج عليه وأول نجمة طلعت فيه. كان كل شيء ملقّع بظل السحابة ينتظر هطول مطر الربيع. وكانت الريح قد سكنت، فما من ورقة على أغصان الشجر، ولا من عشبة في الأرض تهتز. وكانت أشداء أزهار شجر الليلك والكرز البري تفوح قوية في الحديقة وعلى الشرفة، حتى لكان الفضاء كله مزهر. وكان العبق يصل موجات موجات، قوية تارة وضعيفة تارة، حتى ليستهي المرء أن يغمض عينيه فلا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً، وإنما هو يغتذي بهذا الأرج اللذيذ وحده. وكانت أجسام

الدهلية والورد التي لم تطلع أزهارها بعد، تعلو ساكنة فوق تربتها السوداء المعزوقة، كأنها تنمو نمواً بطيئاً على دعاماتها البيض المقلّمة منذ قليل. ومن الوادي كانت تصل الى السمع أصوات جوقة الضفادع متناغمة حادة، فهي تتعجل الغناء قبل أن يطردها هطول الأمطار الى جوف الماء. وكان يلفُّ غناءها هذا صوت خرير الماء ناعماً متصلاً. والشحارير تنافس على الزقزقة قلقلة طائرة من مكان الى مكان. ومن جديد أراد عندليب أن يستقر في الأجمة تحت النافذة، فلما خرجت سمعته يهرب إلى ممر الأشجار، ويأخذ يصدر هناك نغمة واحدة لا تتغير، ثم لا يلبث أن يسكت منتظراً ما سيكون.

ولم أفلح أنا أيضاً في أن أهدئ نفسي منتظرة ومؤملة أن يحدث شيء ما.

ونزل سرجي، وجلس بجاني. قال:

- يخيل إليّ أنهما سبتلان كلتاهما بالمطر.

فأجبت:

- نعم.

ولبنا صامتين برهة طويلة.

كانت السحابة تنخفض في الهواء الساكن مزيداً من الانخفاض واشتد الصمت عمقاً، وعبقاً، وسكوناً. وفجأة هطلت قطرة على طنف الشرفة وهو من قماش، فارتج الطنف وبدأ أن قطرة الماء ترتد عنه واثبة. وتحطمت قطرة أخرى على الحجر في ممر الأشجار. وسقطت قطرة ثالثة على نبات البلسكأ محدثة ضجة خفيفة، ثم إذا بمطر مدرار ينهمر انهماراً ما ينفك يشتد لحظة بعد لحظة. فصمت العنادل والضفادع

سكوتاً تاماً، ولم يبق إلا خرير الماء، ولكن خرير الماء يبدو الآن بسبب
المطر الغزير أنأى وأبعد، وكأنه معلق بالهواء. وهذا عصفور لا بد أنه
كان محتماً بالأوراق اليابسة غير بعيد عن الشرفة، يأخذ يصدر نغمتين
رتبتين على إيقاع مطرد.

نهض سرجي وأراد أن ينصرف. فسألته لأصدّه عن الانصراف:

- الى أين تمضي؟ نحن هنا في أحسن مكان.

فأجابني قائلاً:

- يجب أن أمر بأن تحمل إليهما مظلة وأحذية من مطاط.

- لا داعي الى هذا. فسوف يتقطع المطر حالاً.

وافق. وبقينا كلانا بقرب الدرايزين. واستندت بذراعي الى الدف
الترطب، وملت برأسي الى الخارج منزلة. قبل المطر البارد شعري
وعنقي. وما هي إلا برهة قصيرة حتى كانت السحابة التي تظلنا قد
انقشعت، وحلت محل أصوات انهمار المطر قطرات الماء تسقط
عن أوراق الأشجار متباعدة. وعادت الضفادع تنق تحت، وتحركت
العنادل واستأنفت صداها على جانبي الأجمات. وأضاء أمامنا كل
شيء.

قال سرجي وهو يجلس فوق الدرايزين، ويطوف بيده على شعري
المخض.

- ما أحلى هذا الجو!

فكان لهذه الملاطفة البسيطة أثر اللوم والتأنيب في نفسي، حتى لقد
هممت أن أبكي.

قال:

- هل يحتاج رجل أكثر من هذا؟ أنا الآن راضٍ مغتبط. لم أعد في حاجة إلى شيء. إني سعيد كل السعادة.

قلت بيني وبين نفسي: «ما هكذا كنت تحدثني عن السعادة في الماضي. كنت، مهما تبلغ من سعادة، نظل ظامئاً غير مرتوٍ، وتظل تكلمني عن رغباتك. وها أنت ذا الآن راضٍ هادئ، بينما أنا تزخر نفسي بندم لم أعبر عنه، وتمتلئ عيناï بدموع لا تطلب إلا أن تنسكب».

قلت:

- نعم، الجو حلو. ولكنني حزينة لأن كل شيء جميل هذا الجمال كله، بينما أنا أحس في نفسي برغبات مضطربة مشوشة، وحولي هذا الجمال وهذا الهدوء. هل يمكن أن يكون فرحك بالطبيعة خالياً من كل حنين، فلا تمنى المستحيل، ولا تأسف على الماضي؟

استلّ يده من شعري، وصمت لحظة، ثم قال وهو يتذكر:

- نعم، أنا أيضاً كان يحدث لي هذا في الماضي، ولا سيما إبان الربيع. أنا أيضاً كنت أقضي ليالي كاملة في رغبات وأمنيات. كانت تلك الليالي جميلة!... ولكن المستقبل كان في ذلك الحين ملكاً لنا، أما الآن فهو من الماضي. أنا الآن راضٍ بما هو موجود، سعيد به.

ختم كلامه بهذه الجملة الأخيرة بلهجة تبلغ من الثقة ومن الطلاقة أنني اعتقدت بصدقه رغم ما أحدثته هذه الأقوال في نفسي من ألم.

سألته:

- وهل أصبحت لا تمنى شيئاً؟

فأجاب وقد حزر ما يدور في فكري:

- لا أتمنى شيئاً مستحيلاً.

ثم أضاف وهو يمسد شعري بيده كما تُلاعِبُ طفلة:

- لقد بللت شعرك، فأنت تحسدين أوراق الشجر وأعشاب الأرض على أن الأمطار بللتها، وتودين لو تكونين عشباً، ورقة، مطراً. وأنا لا أزيد على أن أفرح حين أتأمل كل ما هو على هذه الأرض جميل، وفتي.

عدت أسأله وقد أخذ قلبي ينقبض مزيداً من الانقباض:

- ولست آسفاً على شيء من الماضي؟

فلبث لحظة شارد الذهن صامتاً، ولاحظت أنه يحاول أن يجيبني بصراحة نامة، ثم قال مقتضباً:

- لا!

فهتفت أقول وأنا التفت إليه لأحدق في عينيه:

- ليس هذا صحيحاً! ليس هذا صحيحاً! ألست تأسفت على الماضي حقاً؟

فكرر قوله:

- لا. أنا شاكر لهذا الماضي، ولكنني غير آسف عليه!

- ألا تود إذاً أن ترجع إلى وراء؟

أشاح سرجي وجهه ونظر في الحديقة.

- لا، لا أود ذلك، كما لا أود أن يكون لي جناحان. فهذه أمنية مستحيلة!

- ولا تحاول أن تصلح الامر؟ ألا تأخذ شيئاً على نفسك ولا علي؟

- أبداً. ليس في الإمكان أبدع مما كان!

قلت له وأنا ألمس ذراعه ليلتفت إلي:

- اسمع. لماذا لم تقل لي في يوم من الأيام أنك تمنى أن تراني أحيا على

طريقتك، لماذا منحتني تلك الحرية التي لم أحسن استعمالها، لماذا كفت

عن توجيهي وإرشادي؟ لو أنك أردت، لو أنك كلّفت نفسك عناء توجيهي
توجيهاً آخر لما حدث شيء...

هكذا تابعت كلامي بصوت تظهر فيه الحسرة والملامة، اللتان حلّتا
محل الحب، ظهوراً ما ينفك يزداد.

فقال مدهوشاً وهو يلتفت إليّ:

- ما الذي كان يمكن أن لا يحدث؟ انه لم يحدث شيء. كان كل شيء
حسناً.

وأضاف يقول مبتسماً:

- بل حسن جداً.

قلت محدثة نفسي: «هل يُعقل أن لا يفهم؟ أم تراه لا يريد أن يفهم
وهذا أنكي؟

وفاضت عيناى بالدموع. وهمت أقول فجأة:

- ليس هناك شيء. ليس هناك إلا أنك تعاقبني بقلة الإكتراث بل
بالاحتقار وأنا بريئة. ليس هناك إلا أنك حرمتني من كل ما كان عزيزاً على
نفسي من دون أن ارتكب أي خطأ.

قال وكأنه لم يفهم ما قلت:

- لم هذا يا عزيزتي؟

- بل دعني أتم كلامي. لقد منعت عني ثقتك، وحبك، وحتى احترامك.
فلن أصدّق أنك تحبني الآن بعد الذي كان في الماضي. لا، يجب أن أعبر
عن كل ما يعذبني منذ زمن طويل...

قلت هذه الجملة الأخيرة لأنه من مقاطعتي، وواصلت كلامي:

- أهو ذنبي أنني كنت لا أعرف الحياة، وأنت تركتني أبحث وحيدة؟...

أهو ذنبي إذا كنتُ أدركت بنفسي ما نحن في حاجة إليه، وناضلت منذ قرابة سنة في سبيل أن أعود اليك، فإذا أنت تصدني وتبذني كأنك لا تدرك ما أنا ساعية إليه، وإذا أنت تفعل ذلك كله على نحو يبيحك بريئاً من كل مأخذ عليك، ويجعلني أنا الأئمة... المذنبه؟ نعم، إنك تريد من جديد أن تلقيني الى تلك الحياة التي أوشتك أن تشفيك وتشقيني.

قال سرجي يسألني بدهش وقلق صادقين:

- متى ظهر مني هذا؟

- ألم تقل أمس، وهذا كلام تردده دائماً، انني لن أستطيع أن أعيش هنا، وأن علينا أن نرجع في هذا الشتاء الى بطرسبرغ التي غدت كريمة الى نفسي؟ إنك، بدلاً من أن تساعدني، تتحاشى كل مكاشفة، وتتجنب كل كلمة صريحة، وكل قول فيه عاطفة وحنان. حتى إذا زلّت قدمي في المستقبل وسقطت، رحت تأخذ عليّ سقوطي مغتبطاً مبتهجاً.

قال بلهجة باردة رصينة:

- انتظري. انتظري. ليس حسناً هذا الذي تقولين. وهو إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أنك لا تحملين لي شعوراً طيباً، وإنما يدلّ على أنك لا...
- على أنني لا أحبك؟ تكلم، تكلم!

وانجبت الدموع في عيني. وجلست على الدكة، وغطيت وجهي بمنديلي.

قلت أحدث نفسي وأنا أحاول أن أكظم شهيقاً كان يخنقني: «هكذا يفهمني!». وقال صوت في قلبي: «انتهى، انتهى حبنا». ولم يقترب سرجي مني، ولم يحاول أن يروّح عني. لقد ساء وأذاه ما قلته. وكان صوته هادئاً وجافاً. قال:

- لا أدري ماذا تأخذين عليّ! أناخذين عليّ أنسي غدوت لا أحبك كما كنت أحبك في الماضي...

دمدمت أقول في منديلي:

- في الماضي...

وانسكبت دموعي أشد مرارة وغزارة.

وتابع هو كلامه فقال:

- الذنب ذنب الزمن، وذنبتنا نحن. لكل زمن حبه...

وصمت لحظة ثم استأنف:

- هل تريدان أن أقول لك الحقيقة، ما دمت حريصة على الصراحة هذا الحرص الشديد؟ كما كنت سنةً تعارفنا، أقضي ليالي مسهدةً أفكر فيك وأنشئ حبك، فكان هذا الحب يزداد في قلبي ويشتد، كذلك قضيت في بطرسبرغ وفي الخارج ليالي أرق رهبةً أحطم فيها هذا الحب الذي كان يعذبني تعذيباً. الحق أنني لم أصل إلى إفنائه، وإنما أفنيت منه ما كان يؤلمني، وبلغت الهدوء، فأنا ما أزال أحبك، ولكنني أحبك حباً آخر غير الحب القديم.

- أتسمي هذا حباً وما هو إلا تعذيب؟ لماذا سمحت لي أن أعيش في المجتمع وقد كنت تعرف شؤمه وضرره حتى لقد كففت عن حبي بسببه؟

- ليس هو المجتمع يا صديقتي!

- لماذا لم تستعمل سلطتك فتوثقني وتضربني؟ لو فعلت بي ذلك لكنت أسعد قلباً، وأحسن حالاً، ولما كنت أشعر بأي خزي، أما الآن فقد حرمت من كل ما كان يصنع سعادتي.

وشهقت باكية مرةً أخرى، وعدت أغطي وجهي.

وفي تلك اللحظة كانت كاتيا وصونيا تصعدان إلى الشرفة مبتلّتين فرحتين، وتكلمان بصوت عال وتضحكان. ولكنهما حين أبصرتانا صمتتا وأسرعتا تنسحبان.

فلما انصرفتا بقينا صامتين برهةً طويلة. وقد ظللت أبكي حتى شفيت غليلي وشعرت بتخفف وراحة. ونظرت الى سرجي. كان جالساً، مسنداً رأسه الى يديه. وقد أراد أن يردّ على نظرتي بأن يقول شيئاً ما، ولكنه لم يزد على أن تنهّد تنهّداً ثقيلاً، وعاد يخفض رأسه ويلقيه على يديه.

دنوت منه، وباعدت ذراعه. فشخص إليّ ببصره الحالم. وقال كمن يتابع ما كان ماضياً فيه من تفكير:

- نعم، يجب علينا جميعاً، وعلى النساء منا خاصة، أن نخبر أنفسنا جميع ما في الحياة من حماقات، حتى نعود إلى الحياة الصادقة. كنت في ذلك الحين لمّا تتجاوزني تلك السفاسف الحلوة التي كنت أحبها فيك، فتركك تتعلّقين بها، لشعوري بأنني ليس من حقّي أن أستبدّ بك، وأن أجبرك على شيء من الأشياء إجباراً، رغم أن ذلك كان ولّى عني عهده منذ مدة طويلة.

- إذا كنت تحبني، فلماذا اهتممت معي بتلك السفاسف وأبحت لي أن أهتم بها؟

- لأنك ما كنت لتصدقني كلامي ولو أردت. فإنما كان ينبغي لك أن تعلمي بنفسك. وذلك ما فعلته.

قلت:

- كنت تفكر بالعقل، كنت تفكر بالعقل كثيراً، وكان ينبغي أن تحب أكثر.

وصمتنا من جديد.

قال وهو ينهض فجأة ويأخذ يذرع أرض الشرفة:

- ما قلتبه قاس لكنه صحيح. نعم، صحيح.

وأضاف يقول وهو يقف أمامي:

- لقد أذنبت. ما كان ينبغي أن أسمح لك بأن تحبيني، أو كان ينبغي أن

أحبك أنا حباً أبسط.

قلت في خجل:

- لننسى هذا كله!

قال:

- ما ذهب لا يعود، ولن يعود أبداً.

وقد رقَّ صوته أثناء نطقه بهذه العبارة.

قلت وأنا أضع يدي على كتفه:

- بل عاد كل شيء منذ الآن.

فأمسك يدي يشد عليها وقال:

- كذبتُ حين قلت إنني غير آسف على شيء. فالحق أنني أتحسر وأبكي

على ذلك الحب الذي زال ولن تدبَّ فيه الحياة ثانية. من المذنب! لا أدري.

لا يزال هناك حب، لكنه ليس ذلك الحب الماضي. ولا يزال مكانه باقياً،

لكنه ليس الآن إلا ألماً. ثم أضاف:

خالية من القوة والنسغ تبقى الذكريات ويبقى الامتنان، ولكن...

قاطعت قائلة:

- لا تقل هذا الكلام. لنضع لكل شيء أن يعود كما كان... هذا ممكن،

أليس ممكناً؟

ألقيت عليه هذا السؤال محدقةً الى عينيه. كانت عيناه واضحتين، هادئتين، وكانت نظرتهما المتجهة اليّ غير ذات عمق.

ولقد كنت أعرف، وأنا أتكلم، أن رغباتي وأمانيّ كانت مستحيلة. وألّمت بشفتيه ابتسامة هادئة متواضعة، شائخة على حين فجأة. وقال:

- أنت في ريعان الصبا، وأنا شيخ هرم لم يبق عندي ما تبتغين. لماذا يغش المرء نفسه؟

أضاف ذلك وهو لا يزال يتسم. فبقيت صامتةً بقربه، وهذا اضطراب نفسي.

واستطرد يقول:

- لا تحمسن لاستئناف حياتنا. لا نخدعن أنفسنا. لنشكر الله على أن ما كنا نعانيه من أنواع القلق والغم والاهتياج قد زال. ليس علينا أن نبحث ولا أن نتشكى. لقد وجدنا شيئاً من قبل، فحسبنا هذا النصيب الذي نلناه من السعادة. وإنما يجب علينا الآن أن نعمل وأن نمهد الطريق لهما...

قال هذا وهو يومئ الى المربية التي اقتربت حاملةً فانياً على ذراعيها ثم توقفت عند العتبة. وأردف يقول خاتماً كلامه مائلاً عليّ ليقبل رأسي:

- نعم يا صديقتي، هكذا. إن الذي يقبلك الآن ليس عاشقاً مولهاً بل هو صديق قديم.

من الحديقة كانت أشداء الليل العبة تصاعد إلينا أجمل أرجاء، وكانت أصوات السكون الساجي تصل الى أسماعنا أشد مهابة، وكانت النجوم تطلع في السماء أوفر عدداً. ونظرت الى سرجي، فإذا أنا أشعر بتخفف وتروّح، كأن نفسي قد تحررت فجأة من عصب مريض كان

يسبب ألماً شديداً. وأدركت أن الحب الماضي قد ذهب الى غير رجعة، كالزمان نفسه الذي لا يؤوب الى وراء، بل أدركت أن عودة ذلك الحب ليست مستحيلة فحسب، بل هي أيضاً مربكة متعبة مؤلمة. حتى لقد تساءلت: هل كان ذلك العهد الماضي سعيداً حقاً الى الحد الذي كان يزينه لي خيالي؟ وما أبعد ذلك العهد! ما أبعده!...

قال سرجي:

- آن أن نمضي إلى الشاي.

وقام فتبعته إلى الصالون.

وعند الباب اصطدمت بالمربية حاملةً فانيا. فأخذته بين ذراعي، وغطيت قدميه الصغيرتين الحمراروين، وضممته الى صدري، وقبّلته قبلة خفيفة لم تكد تلامسه. فحرك الطفل يديه الصغيرتين المتباعدة أناملهما وهو شبه نائم، وفتح عينيه المغمضتين كأنه يحاول أن يتذكر شيئاً ما، وتلبث بصره عليّ، وبرق فيهما ما يشبه أن يكون خاطرة، وتجمعت شفثاه وانفرجتا بتسمان.

قلت أحدث نفسي وأنا أضمه الى صدري بتوتر في جميع أعضائي، ولا أكاد أستطيع أن ألجم نفسي عن شدة شداً قوياً يؤلمه: «إنه لي، لي أنا، لي أنا». وطفقت أقبل قدميه الصغيرتين الباردتين، وبطنه الصغير، ويديه، ورأسه الذي لم يكد ينبت فيه الزغب.

دنا سرجي مني. فأسرعت أعطي وجه الطفل، ثم كشفت عنه ثانية. فقال سرجي وهو يلمس باصبعه ذقن فانيا:

- إيفان سرجيتش!

ولكنني عدت أعطي رأس إيفان سرجيتش. لا أحد غيري يجب أن

ينظر اليه. وتأملت زوجي. كانت عيناه تضحكان وهو ينظر الى عيني، فشعرت - لأول مرة منذ مدة طويلة - بشيء من الفرح الخفيف السهل وأنا أنظر إلى عيني.

في ذلك اليوم انتهت قصتي مع زوجي. أصبح الحب السابق ذكرى عزيزة، وزال إلى الأبد. ونشأت عاطفة جديدة، هي حب ابني وأبيهم، فهذه العاطفة الجديدة تقوم عليها حياة أخرى وسعادة مختلفة ما أزال أعيشها إلى هذه اللحظة...

ليوتولستوي

بوليكوسكا

ترجمة: د. سامي الذروبي



بولیو سزا کا

- 1 -

كما تأمر سيدتي! ولكن آل دونلوف يُرثى لحالهم. هم جميعاً شبان طيبون!... فإذا لم نرسل الآن للتجنيد أحد الخدم، فمن المحقق أن واحداً منهم سيُجنّد. حتى إن الجميع يرشحونهم منذ الآن. ولكن ما دامت هذه هي إرادتك...

قال الوكيل ذلك وعاد يضع يده اليمنى على يده اليسرى، ثم يضع اليدين كليهما على بطنه، ويميل برأسه الى جانب، ويمص شفثيه الرقيقتين حتى ليكاد يخرج من ذلك صوت، ويرفع عينيه، ويصمت وقد وضح أنه يتتوي أن يصمت مدة طويلة وأن يصغي - من دون معارضة - الى جميع السخافات التي لا بد أن تقولها له السيدة.

انه الوكيل الذي اختير من بين الخدم. هو رجل حليق اللحية يرتدي ردنجوتاً طويلاً (ذا تفصيلة خاصة يلبسها الوكلاء). كان في ذلك المساء من أماسي الخريف يقدم تقريره لسيدته. فأما السيدة فالتقرير في صورتها هو أن تصغي الى كشف حساب عن الأعمال الجارية في

أَملاكها وأن تصدر أوامرها بصدد الأعمال الآتية. وأما الوكيل إيجور ميخائيلوفتش، فالتقرير في تصويره هو أن يُضطر إلى الوقوف على ساقيه ساعتين في زاوية من الزوايا، ملتفتاً بوجهه إلى الديوان، وأن يصغي إلى ثرثرة ليس لها أية علاقة بالأعمال، وأن يقود السيدة بجميع الوسائل إلى أن تجيب عن جميع اقتراحات إيجور ميخائيلوفتش، بعد وقت، وقد نفذ صبرها بقولها: «طيب، طيب».

والحديث يدور الآن على التجنيد، لقد كان ينبغي إرسال ثلاثة مجندين من أراضي بوكروفسكويّا. وقد تمّ انتقاء اثنين من هؤلاء الثلاثة بحكم الظروف العائلية والأخلاقية والاقتصادية، فلا يمكن أن يكون هناك تردد ولا جدال حولهما لا من جهة «المير» ولا من جهة السيدة، ولا من جهة الرأي العام.

ولكن اختيار المجنّد الثالث هو الذي يمكن أن يكون محل مناقشة. فالوكيل يريد أن يحمي الشبان الثلاثة من عائلة دولتوف، وأن يرسل قناً اسمه بوليكوشكا. إن بوليكوشكا هذا ربّ أسرة سيئ السمعة جداً، فوجئ عدة مرات وهو يسرق أكياساً وأعنةً وعلفاً.

غير أن المالكة التي كانت كثيراً ما تلاعب أطفال بوليكوشكا الذين يلبسون خرقاً بالية، والتي كانت تحاول، عملاً بنصوص من الانجيل، أن ترده إلى الصراط المستقيم، كانت لا تريد أن ترسله مجنّداً. وهي من جهة أخرى لا تريد أن تؤذي شبان دولتوف، الذين لا تعرفهم ولا رأتهم في يوم من الأيام. ولكن - لسبب من الأسباب لا يعرفه إلا الله - كانت السيدة لا تستطيع أن تفهم شيئاً، ولا عزم الوكيل أمره على أن يشرح لها بوضوح كامل أن واحداً من أسرة دولتوف سيُجنّد إذا لم

يتم ارسال بوليكوشكا. كانت السيدة تقول بحرارة: «إنني لا أريد شراً بأسرة دولتوف»، فكان ينبغي للوكيل أن يقول لها: «ما عليك إذاً إلا أن تدفعي ثلاثمائة روبل بدلاً». ولكن السياسة والكياسة لا تحتملان أن يقول لها هذا الكلام.

فكان الوكيل، إيجور ميخائيلوفتش، واقفاً وقفةً هادئة، بل كان يستند الى الجدار مرخياً ثقل جسمه على إحدى قدميه، ويمضي يلاحظ اختلاج شفتي السيدة، وحركة كشكشة قبعته في الظل الذي تلقيه على الجدار وعلى اللوحات، محتفظاً على وجهه بتعبير عن المذلة والخنوع. ولكنه لا يجد أن من الضروري أبداً أن ينفذ الى معنى ما تقول. وكانت السيدة تُفيض في الحديث متكلمةً ببطء.

كانت ترسم خلف أذني الوكيل تقبضات ثناؤب عصبي في بعض الأحيان، ولكنه يسرع الى إخفائها بحذق ومهارة، واضعاً يده على فمه، متظاهراً بأنه يسعل.

لقد أتبع لي في الآونة الاخيرة أن أرى اللورد بالمرستون جالساً في مكانه، لابساً قبعته، بينما أعضاء المعارضة يهشمون الوزارة تهشيماً، ثم إذا هو ينهض فجأة فيردُّ بخطاب طوله ثلاث ساعات على جميع اعتراضات خصومه. رأيت ذلك ولم أدهش له. لأنني سبق أن رأيت ألوف المرات شيئاً شبيهاً بذلك بين إيجور ميخائيلوفتش ومالكة الاراضي التي هو وكيلها. ورأيت كيف كان، إذا أحسَّ بنعاس، أو اذا بدا له أن السيدة أفرطت في حماسها، ينقل ثقل جسمه عن قدمه اليسرى الى قدمه اليمنى، ويأخذ في الكلام مبتدئاً بجملته التي هي من الشعائر المقدسة:

- كما تريدین یا سیدتی، ولكن...

وها هو ذا يكمل كلامه في هذه المرة فيقول:

- ولكن... ولكن المجلس منعقد الآن عندي، أمام المكتب، ولا

بد من حسم هذه المسألة. وقد ورد في الأمر أنه يجب سوق المجندين إلى المدينة قبل عيد الصعود. والفلاحون وقع اختيارهم على أسرة دولتوف، فليس هناك غيرهم. إن «المير» لا ينظر إلى مصالحك. «المير» لا يهتم إن كنا ندمر أسرة دولتوف. ولكنني أنا، أعرف ما يلقي أفراد أسرة دولتوف من عناء، وما يقاسون من شقاء. انهم منذ كنت وكيلاً يعيشون حياة فقر شديد. لقد انتظر الشيخ، بكثير من العناء، أن يشب ابن أخيه عن الطوق، فإذا نحن ندمرهم الآن مرة أخرى، وأرجو أن تثقي يا سیدتی أنني أهتم بمصالحك كأنها مصالحی. خسارة يا سیدتی. ولكن كما تريدین. ما هم أقربائي ولا أخوتي، ولا أنا قبضت منهم شيئاً...

قالت السيدة تقاطعه:

- لا أشك في هذا!

ولكنها سرعان ما خطر ببالها أن آل دولتوف قد اشتروه.

واستطرد الوكيل يقول:

- ... إن بيتهم أحسن البيوت صيانة في بوكروفسكويًا. إنهم فلاحون

يخشون الله ويحبون العمل. الشيخ يدبر أملاك الكنيسة منذ ثلاثين عاماً. لا يشرب خمر، ولا يحلف أبداً، ولا ينقطع عن حضور القداس يوماً (كان الوكيل يعرف النقطة الحساسة في نفس السيدة). والشئ الرئيسي أنه ليس له إلا ابنان. أما الآخرون فهم أبناء أخيه. و«المير» وقع اختياره عليه. والواقع أن البيوت التي فيها اثنان يعملان تخضع للقرعة.

على حين أن البيوت الأخرى، حتى تلك التي تضم ثلاثة أبناء يعملون، قد خضعت للقرعة، فإذا هي التي تعدُّ الآن على حق، وإذا بالآخرين هم الذين يجب أن يتألموا بسبب فضيلتهم.

هل أصبحت السيدة لا تفهم شيئاً. لم تفهم ماذا يعني بقوله «القرعة بين اثنين» وماذا يعني بقوله «الفضيلة»، فهي الآن لا تسمع إلا أصواتاً، هي الآن لا تزيد على أن تلاحظ أضرار ردنجات الوكيل، المصنوعة من قماش نانكين، فتري أن الزر الأعلى، الذي لا شك أنه يعقده أقل مما يعقد الأضرار الأخرى، مخيط خياطة متينة، وترى أن الزر الأوسط يتدلى كثيراً وأنه كان يجب أن تعاد خياطته منذ مدة طويلة. ولكن كل إنسان يعلم أنه ليس من الضروري للمرء في المحادثات، ولا سيما في المحادثات التي تتصل بالأعمال، أن يفهم كل ما يُقال له وإنما يكفيه أن يتذكر ما يريد أن يقوله هو نفسه. فكذلك كانت تفعل السيدة. قالت: - لماذا لا تريد أن تفهم يا إيجور ميخائيلوفتش؟ إنني لا أتمنى لأحد من آل دولتوف أن يُجنَّد. يخَيَّل اليَّ أنك تعرفني حق المعرفة، فتدرك أنني أفعل كلَّ ما يمكنني فعله لمساعدة فلاحيّ، وأنني لا أريد أذاهم أبداً. أنت تعلم أنني مستعدة للتضحية بكل شيء من أجل أن أتخلَّص من هذه الضرورة المحزنة، فلا يُجنَّد لا دولتوف ولا كوريوشكين (لا أدري هل خطر ببال الوكيل عندئذ أن التخلَّص من هذه الضرورة المحزنة لا يحتاج إلى التضحية بكل شيء بل بثلاثمائة روبل فحسب. مهما يكن من أمر، فقد كان سهلاً أن يخطر هذا بباله). ولكنني أقول لك ببساطة إنني لن أرسل بوليكاوي بحال من الأحوال. لقد جرى بيني وبينه حديث طويل بعد حكاية الساعة تلك التي اعترف لي أنه سرقها، فحلف

لي باكياً ليصلحنَّ نفسه، ورأيتُه متأثراً أشدَّ التأثر، وأنه نادى أصدق الندامة (قال إيجور ميخائيلوفتش يحدث نفسه: «آ... بدأت أغنيها»، وأخذ ينظر الى المربِّب الذي كان موضوعاً في كأس، ويتساءل: «أهو مربِّب برتقال أم هو مربِّب ليمون؟... لعله مر...»)، ومنذ سبعة أشهر لم يسكر مرةً واحدة، وكان سلوكه حسناً جداً، حتى لقد قالت لي امرأته إنه أصبح إنساناً آخر يختلف عما كان أشدَّ الاختلاف. فكيف تريد مني أن أعاقبه بعد أن أصلح أمره وتاب؟ أليس شيئاً فظيحاً أن يُجنَّد إنسان له خمسة أولاد ليس لهم أحد يطعمهم سواه؟ لا، لا تكلمني في هذا الأمر، فذلك أفضل...

وارتشت السيدة بضغ جرعات.

فتابع إيجور ميخائيلوفتش ببصره مرور السائل في حلقها ثم قال معترضاً بإيجاز وبرود:

- أنا مريم إذاً يارسال دولتوف؟

فضربت السيدة كفاً بكف وقالت:

- لماذا لا تريد أن تفهمني؟ أنا أتمنى أذى أسرة دولتوف؟ أنا

أكرهم؟ يشهد الله أنني مستعدة لفعل كل شيء في سبيلهم.

حلفت هذا اليمين ونظرت الى اللوحة المعلقة في الركن، ولكنها

تذكرت أن اللوحة ليست صورة الله، فقالت تحدث نفسها: «لا ضير.

ليس هذا هو الموضوع». والغريب أنها في هذه المرة أيضاً لم يخطر

ببالها أن من الممكن أن تدفع ثلاثماية روبل. وتابعت كلامها مخاطبةً

إيجور ميخائيلوفتش:

- ولكن ما حيلتي؟ هل أعرف أنا ماذا يجب أن أعمل وكيف؟ أنا

لا أعرف. لذلك أعتد عليك. وأنت أدري بما أريد. فافعل ما من شأنه أن يرضي الجميع، بشرط أن يكون عدلاً. ما العمل؟ ليسوا وحدهم على هذه الحال. جميع الناس تمر بهم أوقات عصيبة. ولكن لا يمكن إرسال بوليكاى. فافهم أن إرسال بوليكاى شيء فظيع عندي.

وكان يمكن أن تستمر في الكلام مدة طويلة من شدة حماسها، ولكن الخادمة دخلت الغرفة في تلك اللحظة. سألتها السيدة:

- ماذا يا دوناشا؟

- وصل فلاح يريد أن يسأل إيجور ميخائيلوفتش هل يأمر بأن يبقى المجلس منتظراً.

كذلك أجابت الخادمة وهي تنظر إلى إيجور ميخائيلوفتش غاضبة، وتقول لنفسها: «يا للوكيل النحس! لقد بث الاضطراب في نفس مولاتي، فلن تتركني أنام قبل الساعة الثانية بعد منتصف الليل!». قالت السيدة:

- طيب يا إيجور، اذهب وافعل أحسن ما يجب فعله.

قال الوكيل وقد كف عن الإتيان على ذكر دولتوف:

- أمرك مطاع. ومن يجب أن نرسل للمجيء بالمال من البستاني؟

- ألم يرجع بتروشا من المدينة؟

- لا.

- ونيقولا، ألا يمكن أن يذهب؟

قالت دوناشا:

- أبي راقد في فراشه يعاني من آلام في كليته.

وقال الوكيل يسأل:

- ألا تريد أن تأمرني بأن أذهب أنا نفسي غداً؟
- بل نحن في حاجة إليك هنا يا إيجور.
- وفكرت السيدة، ثم سألت:
- كم مقدار المال الذي يجب الإتيان به من البستاني؟
- أربعمائة واثنتان وستون روبلاً.
- قالت السيدة وهي تنظر إلى وجه إيجور ميخائيلوفتش بحزم:
- أرسل بوليكا.
- فقال إيجور ميخائيلوفتش وهو يوسع فمه كمن يتسهم، من دون أن يكشف عن أسنانه، ومن دون أن يتغير شيء في وجهه:
- أمرك مطاع.
- أرسله إليّ.
- أمرك مطاع.
- وانصرف إيجور ميخائيلوفتش ذاهباً إلى مكتبه.

إن بوليكاى، وهو رجل نافه فاسد السمعة، وفوق ذلك وافد من قرية أخرى، كان لا يجد حمايةً لا لدى الخازنة ولا لدى الخازن ولا لدى الوكيل ولا لدى الخادمة، وكان ركنه أسوأ ركن رغم أنه وأمراته وأولاده سبعة أفراد. لقد بُنيت هذه الأركان في عهد المرحوم صاحب الأملاك على الصورة التالية: في الوسط كوخ حجري مساحته عشرة أرشينات، حيث توجد مدفأةٌ تجعل حولها ممر، وأقيم عند كل زاوية من زواياها حاجز من ألواح خشبية. فانقسم الكوخ بذلك الى أربعة أركان، وكان كل ركن من هذه الأركان ضيقاً، ولا سيما الركن الذي فيه أسرة بوليكاى، لمجاورته الباب. ففي هذا الركن يتزاحم سرير الزوجية وعليه غطاء رقيق ووسائد من قماش غليظ، وسرير طفل، وطاولة صغيرة لها ثلاث قوائم وعليها يُحضّر الطعام ويغسل الغسيل وتلقى أمتعة الأسرة كلها ويعمل بوليكاى نفسه (الذي يتعاطى البيطرة)، وسطول وثياب، ودجاجات، وعجل صغير، وأفراد الأسرة السبعة. فما كان لأحد منهم

أن يستطيع التحرك في هذا الركن لولا أن لهم الجزء الرابع من سطح المدفأة يعتلونه أشخاصاً وأشياء، ولولا أن لهم الباب يخرجون منه. والحق أنهم ما كانوا يستطيعون أن يخرجوا: فالجو في شهر تشرين الأول بارد، ومن الملابس الدافئة ليس لهم الا فرة خروف يرتدونها هم السبعة جميعاً. ولكنهم كانوا يستطيعون أن يستدفئوا، فأما الصغار فبالركض، وأما الكبار فبالعمل. وهؤلاء وأولئك كانوا يعتلون سطح المدفأة التي تبلغ حرارتها في بعض الاحيان أربعين درجة. قد يبدو لكم أمراً رهيباً أن يعيش الانسان في ظروف كهذه، ولكنهم - هم - قد تعودوا فلا يبالون. وكانت آكولينا تغسل وتخيظ لأولادها وزوجها، وكانت تعمل بالنول وتقصر النسيج، وكانت تهبيء الطعام على الموقد المشترك، وتشاتم الجارات وتشاركهم الغيبة والنميمة. وكانت مؤونة الشهر لا تكفي الأولاد وحدهم بل تكفي البقرة أيضاً. كان الحطب وطعام الماشية يردان من عند السادة، إذ كان يوزع من الاسطبل علف في بعض الاحيان. وكانت الأسرة تملك قطعة صغيرة من بستان. وقد ولدت البقرة عجلاً. وكانوا يربون دجاجاً. وكان بوليكا يبيع بخيول الاسطبل، وكان يفصد الأفراس والمواشي، وينظف حوافرها، ويصف لها أدوية من اختراعه فيتقاضى على ذلك أجراً يكون تارة مالا وتارة أغذية. وقد يبقى له في بعض الاحيان شيء من شوفان السادة. فكان في القرية فلاح يعطيه في كل عشرين رطلاً من ضأن ثمناً لمكيالين من شوفان. ولقد كان يمكن أن تكون هذه الحياة مقبولة لولا أن هناك همماً كبيراً يثقل على صدور أفراد الأسرة كلها. ان بوليكا قد عاش إبان صغره في قرية أخرى، وكان يعمل في مريض خيل. وكان السائس

الذي يعمل معه بوليكاى أكبر لص في البلاد، انتهى به الأمر الى النفي. وقد تعلم بوليكاى الصنعة من هذا السائس فبلغت هذه الحماقات من ترسخها فيه وتمكنها منه منذ طفولته، أنه رغم ما عقد عليه النية بعدئذ من إقلاع عنها، وسلوك الطريق القويم - وتلك نية تُحمد له - لم يفلح في ذلك. لقد كان صغيراً، وكان ضعيفاً ولم يكن له أب ولا أم ولا أحد يحميه.

كان بوليكاى يحب الشراب، وكان لا يطيق - حيثما وجد - أن يكون شيء من الأشياء غير محروس حراسة شديدة: فالجبل القديم، أو السرج العتيق، أو القفل، أو الوند، أو أي شيء آخر، كان يجد له مكاناً عند بوليكاى يلتش. وكان يوجد في كل محل أناس يخفون هذه الأشياء ويدفعون ثمنها خمراً أو مالاً بموافقة متبادلة. ان هذه الأرباح هي أسهل الأرباح منالاً كما يقول الشعب: لا تحتاج دراسة ولا عملاً، لا تحتاج شيئاً البتة، ومتى جرّبها المرء مرة لم يرغب في مهنة أخرى. وليس لهذا النوع من الربح إلا سيئة واحدة، فالمرء يستطيع به أن يحصل على كل شيء بضمن بخس وسهولة كبيرة، وأن يعيش حياة ممتعة، ولكن الصنعة قد تتوقف فجأة بسبب أناس أشرار، فاذا الرجل مضطر أن يدفع كل شيء مرة واحدة، واذا هو يُحرم من السعادة طوال حياته. وهذا ما وقع فيه بوليكاى.

تزوج بوليكاى. ووهب الله له السعادة: فزوجته، وهي ابنة راعي البقر، امرأة قوية ذكية نشيطة، وقد ولدت له أولاداً كل واحد منهم أجمل من الآخر. واستمر بوليكاى في تجارته. وجرى كل شيء مجرى حسناً. ولكن النحاس سقط فجأة. فقبض عليه، قبض عليه في سرقة تافهة، إذ

اختلس أعة من فلاح، فأمسك وضرب ووشي به الى المالكة، وأصبح يراقب. وأخذ الناس يشتمون، وطفق الوكيل يهدده بالخدمة العسكرية، وراحت المالكة تفرعه وتؤنبه. وأخذت امرأته تبكي، وصارت حزينة. وأصبح كل شيء يجري مجرى سبياً. إن بوليكاى رجل طيب وليس خبيثاً، ولكنه ضعيف سكير لا يستطيع أن يلجم هذا الميل السيئ فيه. وصارت امرأته تضربه أحياناً، حتى لقد صارت تضربه إذا رجع إلى البيت ثملاً. وكان هو يبكي.

كان يقول:

- ما أشقاني! ماذا أستطيع أن أعمل؟ ألا فلتفقا عيناى! لسوف أكف فلا أفعلها بعد اليوم أبداً.

ولكن ما إن ينقضي شهر حتى تسقط عليه نوبة جديدة، فاذا هو يترك البيت فيسكر ويغيب يومين. فيقول الناس متمحكين: «لا بد أنه سرق ما لا فاستطاع أن يقصف». وكانت آخر قصصه قصة سرقة ساعة الجدار في المكتب، وهي ساعة كانت معطلة منذ مدة طويلة. فقد دخل المكتب المفتوح وحيداً في ذات مرة، فرأى الساعة فأغرته فأخذها وباعها في المدينة. وبدأ يبحث عن الساعة كما لو كان أحد في حاجة ماسة الى ذلك. وكان الوكيل خاصة لا يحب بوليكاى. وعثر على الساعة. وأثبتت السيدة بالخبر. فاستدعت بوليكاى الذي سرعان ما ركع بوليكاى على ركبتيه، واعترف بكل شيء اعترافاً مؤثراً كما علّمت امرأته أن يفعل.

كان ذلك حسناً جداً. أخذت السيدة تزجي اليه الوعظ، ثم تكلمت وتكلمت ووبخته وأنبتة وذكرت الله والفضيلة والحياة الآخرة وامرأته

وأولاده حتى جعلته يذرف دموعاً غزيرة. قالت له السيدة:
- انني أصفح عنك، ولكن عذني بأن لا تفعلها بعد اليوم أبداً.
فقال بوليكاى:

- لن أفعلها بعد اليوم أبداً! ألا فلأمت! فلتنزع أحشائي! وبكى
بكاء يثير الشفقة.

وحين عاد بوليكاى الى البيت ظل ينقع طوال النهار كعجل صغير،
ولبت قابعاً على سطح المدفأة. ومنذ ذلك الحين لم يؤخذ عليه شيء
البتة. ولكن حياته زايلها الفرح. وأصبح الناس ينظرون اليه نظرتهم إلى
سارق. حتى إذا جاء موعد التجنيد، أجمع رأيهم على اختياره.

سبق أن قلت إن بوليكاى كان يتعاطى البيطرة. أما كيف غذا بيطرياً،
فذلك أمر لا يعرفه أحد، ولا يعرفه هو نفسه. فهو حين كان يعمل في
مريض الخيل عند السائس الذي حُكم عليه بالنفي، لم يكن له من
وظيفة إلا أن ينظف الاسطبلات من الزبل، وأن يضمد الافراس أحياناً،
وأن يأتي بالماء. فلا يمكن أن يكون قد تعلم البيطرة هناك. ثم أصبح بعد
ذلك حائكاً، فبستانياً يجرف القش في ممرات الاشجار. وعلى سبيل
العقوبة أجبر بعدئذ على أن يصنع أجراً، ثم بُعث بواباً الى تاجر يعمل
عنده مسخراً. فهناك أيضاً لا يمكن أن يكون قد تعلم البيطرة. ولكن
أخذ يشيع بين الناس في الآونة الأخيرة أن له باعاً طويلة في الطب
البيطري، وأنه حاذق في هذا المجال حذقاً خارقاً. لقد فصد حصاناً،
ثم فصد حصاناً آخر، ثم أرقد حصاناً ثالثاً على الأرض وأخذ يكشط
شيئاً في فخذه، حتى اذا فرغ من ذلك أمر بتشغيل الحصان وأخذ يجزُّ
له عرقوبه الى أن نزف دمه رغم أن الحصان أخذ يتخبط ويصرخ. وقال

بوليكاي في شرح ذلك أن معناه «سكب الدم من تحت الحافر»، وبعد ذلك قال لأحد الفلاحين إن من الضروري فصد وريدين «طلباً لمزيد من السهولة»، وتناول مطرقة فأخذ يهوي بها على المفصد المثلم ثم عصب بطن الحصان بضمد صنعته من خمار امرأته. وطفق في آخر الأمر يداوي جميع الأمراض بملح الزاج يحله بسائل قارورة، ويصف للاستعمال الداخلي ما يخطر بباله من دواء. فكلما عذب الأفراس تعذيباً أشد، وأمات منها عدداً أكبر، ازدادت ثقة الناس به، واشتد لجوؤهم إليه.

اني لأحس أنه لا يليق بنا كل اللياقة، نحن السادة، أن نسخر من بوليكاي ونتهكم عليه. فالأسلوب الذي يعتمد إليه لاجتذاب الثقة هو الأسلوب نفسه الذي كان يؤثر في آبائنا. إن الفلاح الذي يضع بطنه على رأس حصانه (وحصانه هو ثروته الوحيدة حتى ليكاد يكون واحداً من أفراد أسرته)، وينظر إلى بوليكاي وقد قطب حاجبيه تقطيباً وقوراً، وينظر إلى يديه البارعتين اللتين شمر كميهما وأخذ يضغط بهما على الموضع المؤلم عامداً وجعل يطعن اللحم الحيّ جريئاً جسوراً (بينما هو يقول لنفسه: «هلم، فقد تفلح!»)، ويتظاهر بأنه يعرف أين هو الدم، وأين هي المادة، وأين هو الوريد الجاف وأين هو الوريد الممتلئ، ويقبض بأسنانه على الخرقة المبلولة أو قارورة الزاج، أقول إن الفلاح الذي يرى هذا كله وقد امتلأت نفسه بشعور هو مزيج من ثقة ورعب، لا يمكن أن يصدق أن بوليكاي يرفع يده ليقطع على غير هدى. هو نفسه لا يمكن أن يفعل هذا. ومتى تمّ هذا القُصْب وانتهى فلن يمضي بلوم نفسه على أنه أذن به ووافق عليه. لا أدري هل شعرت بما شعرت

به أنا إزاء الطبيب الذي لئى طلبى فطفق يعذب أناساً أحبةً على قلبى .
أي فرق بين المفصد والقارورة السحرية البيضاء التي فيها السليمانى
وكلمات: انخلاع وتسوس وفصد ومادة وما الى ذلك من كلمات
يستعملها الفلاحون، وبين ما نستعمله نحن من مصطلحات حين نقول
«الأعصاب والروماتزم والأجسام العضوية»، الخ؟ ألا إن بيت الشعر
القائل:

«كن جريئاً فخادع النفس واحلم»⁽¹⁾، ليصدق على الاطباء والبيطرة
أكثر مما يصدق على الشعراء.

(1) بالالمانية في الأصل.

- 3 -

في ذلك المساء نفسه، بينما كان أفراد المجلس الذي عليه أن يختار
المجنّد يتصايحون بقرب المكتب وسط الضباب البارد المعهود في
ليلة من ليالي شهر تشرين الأول (أكتوبر)، كان بوليكاى جالساً على
حافة السرير قرب الطاولة يسحق بقنينة خليطاً لا يعرفه هو نفسه ولكنه
يهيئه دواء لحصان، خليطاً فيه سليمانى وكبريت وملح جلاودر وعشب
تعود بوليكاى أن يقطفه، بعد أن تخيل ذات مرة أن هذا العشب يصلح
لمعالجة الربو عند الخيل، ثم وجد أنه ليس من غير المفيد أن يصفه
أيضاً لمعالجة أمراض أخرى. كان الاولاد قد ناموا: اثنان على سطح
المدفأة، واثنان في السرير، وواحد في المهد الذي كانت آكولينا جالسة
بقربه أمام نولها. وكانت بقية من شمعة من شموع السادة التي تُساء
حراستها، تشتعل في شمعدان من خشب على حافة النافذة. وكانت
آكولينا، من أجل أن لا يتلهى زوجها عن مشاغله المهمة والخطيرة،
تنهض من حين الى حين فتقص بأصابعها رأس الشمعة. إن عدداً من

أقرباء الفكر يعدّون بوليكاى بيطرياً جاهلاً ودماغاً فارغاً. ولكن أكثر الناس إن كانوا ينظرون إليه نظرهم الى رجل سيئ، فإنهم يعتبرونه أستاذاً في فنه. وكانت آكولينا، على أنها كثيراً ما تشتم زوجها بل كثيراً ما تضربه عند الحاجة، تعتقد اعتقاداً لا يتزعزع بأنه أحذق بيطري و «أكفأ» رجل في العالم.

كان بوليكاى في تلك اللحظة يسكب في كفه عنصراً من عناصر الدواء (إنه لا يستعمل الموازين أبداً، حتى إنه يسخر من الصيادلة الألمان الذين يستعملونها قائلاً: ليست هذه صيدلية)، وحرك بوليكاى المقدار الذي وضعه في كفه من عنصر الدواء فوجد أنه قليل فسكب مقداراً آخر يساوي عشرة أضعاف المقدار الأول، قائلاً: «سأضع الكمية كلها، فمن شأن ذلك أن ينفعه نفعاً أعظم». فلما سمعت آكولينا صوت سيدها ومولاها أسرعت وحدثت نفسها بقولها: «ما أعظمه من عقل مع ذلك! من أين يأتي بهذا العلم كله؟»، واستأنفت عملها على نولها. وسقطت الورقة التي لُف بها عنصر الدواء، فلم تدعها آكولينا على الأرض، بل قالت منادية ابنتها:

- آنيوتكا! أسقط أبوك شيئاً فشيئاً.

فأخرجت آنيوتكا ساقها الصغيرتين النحيلتين العاريتين، من المعطف الذي كان يغطيها، ونزلت تحت الطاولة كقطعة صغيرة، وتناولت الورقة، وقالت:

- خذ يا أبي.

ثم عادت ساقاها تختفيان في السرير.
زعقت أختها الصغرى تنهرها بصوت مزقزق غاف:

- لماذا تدفعينني؟

فصاحت أكوлина تقول:

- لسوف...

فاذا بالرأسين يختفيان تحت المعطف.

قال بوليكاوي وهو يسدُّ القنينة:

- إذا دفع ثلاثة روبلات شفيت الحصان.

وأضاف يقول:

- حتى إن هذا ثمن بخس. إن المرء يكسّر رأسه تكسيراً ليصنع

الدواء. أكوлина، امضي الى نيكيتا فاطلبي لي قليلاً من التبغ أردّه غداً.

وأخرج بوليكاوي من جيب بنطلونه غليوناً من خشب الزيزفون كان

في الماضي مدهوناً، وقد زال أنبوبة فاستعوض عن الأنبوب بشمع.

وأخذ يهيشه.

تركت أكوлина نولها وخرجت من دون أن تتعثر بشيء وهذا أمر

صعب جداً. وفتح بوليكاوي خزانة صغيرة فوضع فيها قارورة، وأخرج

زجاجة حملها الى فمه فعرف أنها فارغة ليس فيها خمرة، فقطب

حاجبيه، ولكنه حين حشا غليونه بالتبغ الذي جاءته به امرأته، وأخذ

يدخن جالساً على حافة السرير أشرق وجهه بالاعتزاز الفرح الذي

يشع في وجه رجل فرغ من عمله اليومي. ولعله أخذ يفكر في الوسيلة

التي سيعمد إليها غداً ليمسك لسان الحصان ويفرغ في فمه المزيج

المدهش أو لعله كان يقول لنفسه: «إن الناس يقدرّون الرجل حقّ

قدره دائماً حين يحتاجون اليه، وإن نيكيتا أعطاني تبغاً على كل حال».

فكان بوليكاوي يشعر بارتياح. ولكن الباب، وهو باب يتحرك بمفصلة

واحدة، فُتح فجأة، فاذا بخادمة «من فوق» تظهر في الركن (ليست هي الخادمة الثانية، بل هي الثالثة، هي الصغرى التي يُحتفظ بها رسولاً). إن اصطلاح «من فوق» يعني منزل السادة كما يعلم الجميع ذلك، ولو كان هذا المنزل يقع تحت لا فوق. وألسيوتكا - وذلك هو اسم الخادمة - تركض دائماً بسرعة السهم، ولا تتني ذراعيها بل تهزهما مستقيمتين، ولا تهزهما على جنيها، وانما تهزهما أمام جسمها هزاً موزوناً يتبع سرعة ركضها. وخداها ورديتان دائماً أكثر من ثوبها الوردى. ولسانها يتحرك دائماً بسرعة كسرعة ساقها.

وثبت ألسيوتكا الى الغرفة وثباً، وتشبثت بجدار المدفأة وأخذت تتأرجح، ثم قالت وكأنها لا تريد أن تنطق بأكثر من ثلاث كلمات معاً، قالت بصوت لاهت مخاطبةً آكولينا:

- السيدة تأمر بوليكاى ايلتش بأن يجيئها فوراً الى فوق، تأمر...
وتوقفت عن الكلام وتنفست تنفساً عميقاً ثم أردفت:

- كان إيجور ميخائيلوفتش عند السيدة، فتكلما عن المجندين، ووقع الاختيار على بوليكاى ايلتش... إن آفدوتيا نيقولا فنا تأمر بأن يجيء حالاً. السيدة تأمر...

وتنفست مرة أخرى ثم أكملت جملتها قائلة:
- ... بأن يجيء حالاً.

ونظرت ألسيوتكا الى بوليكاى والى آكولينا والى الأولاد الذي ظهروا من تحت الغطاء، نظرت اليهم خلال نصف دقيقة، وتناولت قشرة بندق كانت على سطح المدفأة، فرمتها الى آنيوتكا، وقالت مرة أخرى: «... أن يجيء حالاً»، ثم إذا هي تثب خارجة من الغرفة كالريح،

وقد عادت ذراعاها تتحركان على إيقاع جريها.

نهضت آكولينا وأعطت زوجها جزمته. إنهما جزمتان من جزمات الجنود مهترتان متشققتان متمزقتان. وتناولت القفطان الذي كان على المدفأة ومدته إليه من دون أن تنظر. وقالت تسأله:

- ألا تبدل قميصك يا إيلتش؟

فأجاب بوليكاوي:

- لا.

لم تنظر آكولينا مرة واحدة الى وجهه بينما كان يتتعل جزمته ويرتدي ثيابه صامتاً. وحسناً فعلت. لقد كان وجه بوليكاوي شاحباً، وكان فكه الأسفل يختلج، وكان في عينيه ذلك التعبير الشاكي الوجل البائس بؤساً عميقاً، الذي لا يرى مثله إلا في أعين الأشخاص الطيبين الضعفاء المذنبين. ومشط بوليكاوي شعره وأراد أن يذهب. ولكن امرأته استوقفته، فعدلت طرفاً من قميصه كان خارجاً عن سترته، ووضعت على رأسه طاقيته.

وهذا صوت امرأة النجار يُسمع من خلال الحاجز هاتفاً:

- ماذا يا بوليكاوي إيلتش؟ السيدة تستدعيك؟

وكانت امرأة النجار، في ذلك الصباح نفسه، قد نشبت بينها وبين آكولينا مشاجرة ضخمة بسبب آنية للغسيل قلبها أولاد بوليكاوي، فسرها في الوهلة الأولى أن تعلم أن السيدة تستدعي بوليكاوي إليها، فربما كان هذا الاستدعاء لا يبشر بخير له. ولقد كانت امرأة النجار عدا ذلك سيدة تحسن اصطناع الكياسة اللاذعة الشريرة، فلا يجارها أحد في قوة اللسع بكلمة ترسلها إرسالاً هيناً ليناً ولكنه يصيب مقتلأ، أو ذلك ما

كانت تظنه هي في نفسها. وتابعت تقول:

- لعل السيدة تريد أن ترسله الى المدينة لشراء بعض الأشياء. أظن أن السيدة ترغب في إرسال رجل تثق به وتطمئن إليه، فلذلك ترسلك أنت. فإذا كان الأمر كذلك فاشتر لي ربعة من الشاي يا بوليكايا إيلنش. حبست آكولينا دموعها وتقلّصت شفتها تقلصاً فيه شر. انها تمنى لو تهجم على هذه المرأة الخبيثة فتقتلع لها شعرها اقتلاعاً. ولكنها حين نظرت الى أولادها وتصورت أنهم سيصيرون يتامى، وأنها ستصير هي امرأة جندي غائب، نسيت سخريات امرأة النجار، وأخفت وجهها في يديها، وجلست على السرير، وهوى رأسها على الوسادة. تمنمت الصبية الصغيرة مزأنة وهي تشد معطفها من تحت كوع أمها:

- سحقتني يا أمي.

فصرخت آكولينا تقول:

- ألا فلتموتوا جميعاً فللشقاء إنما ولدتكم!

وملأت انتحاباتها الغرفة، فما كان أعظم فرح امرأة النجار التي لم تنس آنية الغسيل التي انقلبت عندها في الصباح.

- 4 -

انقضى نصف ساعة. وأخذ الطفل يصرخ. فقامت أكوлина ترضعه. إنها الآن لا تبكي، ولكنها من خلال أصابع يدها التي تسند وجهها الذي لا يزال جميلاً على نحوله، تنظر الى الشمعة التي تشارف على نهايتها، وتحدث نفسها قائلة: «لماذا تزوجت؟ ما حاجتهم الى هذا العدد كله من الجنود؟ كيف أستطيع أن أنتقم لنفسي من امرأة النجار؟».

وسمعت وقع أقدام زوجها. فجففت دموعها، ونهضت لتفصح له مجال المرور. دخل بوليكاوي حازم الخطو. وألقى طاقبته على سريره، وتنفس، وأخذ ينزع حزامه.

- هيه؟ لماذا استدعتك؟

- معروف. بوليكاوشكا آخر الناس قاطبة، ولكن حين يكون هناك عمل، فهو الذي يُندب للقيام به. بوليكاوشكا هو الذي يُندب للعمل.

- ما هو العمل؟

لم يتعجل بوليكاوشكا الإجابة عن هذا السؤال. وأشعل غليونه

وبصق. ثم قال:

- أمرتني بأن أذهب الى تاجر لأقبض منه مالاً.

- لتقبض مالاً؟

ابتسم بوليكوشكا وهز رأسه.

- آه... ما أبرعها في الكلام، ما أحذقها في اختيار الألفاظ. قالت

لي: الناس يقولون عنك إنك لا تؤمن كثيراً، أما أنا فإن ثقتي بك أكبر

من ثقتي بأي إنسان آخر. (كان بوليكا يتكلم بصوت عالٍ ليسمعه

الجيران). وقد وعدتني بأن تصلح نفسك. فإليك أول امتحان امتحنتك

به لأصدق قولك. اذهب الى التاجر فخذ منه المال وجثني به. فقلت

لها: «إن على جميع أفتانك يا سيدتي أن يخدموك كما يُخدم إله. لذلك

أحس بأنني أستطيع أن أفعل كل شيء في سبيل صحتك، ولا أرفض

أي عمل. سأقوم بكل ما تأمريني به، لانني عبدك المطيع». (وابتسم

بوليكاي مرة أخرى تلك الابتسامة الخاصة المعهودة في انسان ضعيف

طيب مذنب). فسألنتي: «أهذا مؤكد ومضمون؟ أفهم أن مصيرك رهن

به». قلت: «كيف يمكن أن لا أدرك أنني أستطيع أن أفعل كل شيء؟ إذا

كان الناس قد حدثوك عني بسوء، فإنهم يمكن أن يقولوا هذا الكلام

عن كل انسان. وأنا أعتقد بأنني لم يخطر ببالي في يوم من الأيام أن

أفعل شيئاً يخالف سعادتك». الخلاصة أنني بلغت من حسن الكلام

أن السيدة لانت كل اللين، وقالت لي: «سوف تكون أنت الرجل الذي

أمحضه ثقتي. (وصمت بوليكا، وارتسمت على وجهه تلك الابتسامة

من جديد). انني أعرف كيف أكلمهم. حين كنت «في السخرة»، كانوا

ينزلون عليّ نزول الصاعقة، فما هي إلا بضع كلمات أقولها له، فإذا هو

يهذا أكبر الهدوء، وإذا هو يلين حتى لكانه من مخمل.
سألته آكولينا:

- هل المال الذي ستحملة إلى السيدة مبلغ كبير؟
فأجابها بوليكاى بإهمال:

- حوالى ثلاثة أنصاف ألف روبل.
فهزّت المرأة رأسها. وقالت:

- متى تسافر؟

- هي تأمر بأن أسافر غداً. وقد قالت لي: «خذ الحصان الذي تريد،
ومُرّ بالمكتب، ثم امض في حراسة الرب».

قالت آكولينا وهي تنهض وترسم على نفسها اشارة الصليب:
- الحمد لله!

ثم دمدت تقول بصوت خافت حتى لا يسمعها أحد خلف الحاجز:
- اسأل الله أن يعينك ويحميك يا إيلتش!
وأضافت وهي تمسك كمّ قميصه:

- اسمعني يا إيلتش. انني أضرع إليك وأناشدك يسوع المسيح
أن تقبل الصليب حين تسافر، وتحلف يميناً لئلا تمتنع عن شرب قطرة
واحدة!

جمعهم بوليكوشكا يقول:

- هل تظنين أنني سأشرب وأنا أحمل مثل هذا المبلغ الضخم من
المال!

ثم قال بعد صمت وهو يبتسم:

- كان عندها فتاة تعزف على البيانو. ما كان أروع من عزف! لعلها

الآنسة. كنت واقفاً أمامها، أمام السيدة، في العتبة، وكانت الآنسة في الطرف الآخر. وأخذت تعزف. عزف جميل. أنا يمكنني أن أعزف إذا أردت. سأتعلم العزف. سأتعلم حتماً. أنا شاطر في هذه الأمور. أعطني للغد قميصاً نظيفاً.

ومضيا إلى النوم سعيدين.

في تلك الأثناء كان حشد المجلس يزداد حماسةً أمام المكتب. كان جميع الفلاحين تقريباً محتشدين، وحين كان إيجور ميخائيلوفتش عند السيدة، كانت الرؤوس مغطاةً بطاقياتها، وكان عدد الأصوات التي تشارك في المناقشة يزداد، وكان صخب هذه الأصوات يشتد. كانت ضجة الأصوات الخشنة التي تتخللها من حين إلى حين أقوال متقطعة ضاحكة، تملأ الهواء، وكانت هذه الجلبة تصل إلى نوافذ السيدة كهدير بحر هائج، فتشعر السيدة منها بقلق عصبي شبيه بالقلق الذي تثيره في النفس عاصفة شديدة. كان يبدو للسيدة دائماً أن الأصوات ستعلو مزيداً من العلو، وستكثر مزيداً من الكثرة، وأن شيئاً ما سوف يحدث. فكانت تقول لنفسها: «لأنه يستحيل التفاهم برفق، وهدوء، وبغير صراخ، كما يوجب القانون المسيحي الأخوي الرقيق».

إن أصواتاً كثيرة تتكلم في آن واحد، وإن أعلاها صوت فيدور ريازوف، النجار. إن بين أفراد أسرته اثنين يعملان، فكان يهاجم أسرة

دولتوف، وكان دولتوف الشيخ يدافع عن نفسه. لقد وقف دولتوف أمام الجمهور بعد أن كان واقفاً وراءه، وطفق يتكلم لاهثاً لاهثاً شديداً، مباعداً ذراعيه مباعدة واسعة، أو شاداً لحيته الصغيرة المدببة، غاصاً بكلامه إلى حد يكاد يجعله هو نفسه عاجزاً عن فهم ما كان يقول. وكان أبناءه وأبناء أخيه - وهم جميعاً فتية في غضارة الصبا - يزدهمون بقربه، فكان منظره كمنظر «الدجاجة في لعبة الباز والكتاكيت». والباز هو ريازوف، لا ريازوف وحده، بل جميع أولئك الذين ليس في أسرهم إلا اثنان يعملان، أو واحد يعمل: كان الحشد كله تقريباً يهاجم دولتوف. والمسألة هي التالية: إن أخا دولتوف قد جُند قبل ثلاثين سنة، فلذلك لا يريد دولتوف أن تعدّ أسرته من الأسر التي تضم ثلاثة عاملين، وإنما يريد أن يحسب حساب جندي أخيه وأن يصنّف في عداد الأسر التي تضم عاملين اثنين، فيؤخذ المعجند الثالث من بين أفراد هذه الأسر بالقرعة. وكان هناك، عدا أسرة دولتوف، أربع أسر تضم كل منها ثلاثة عاملين. ولكن إحداها أسرة الستاروست (رئيس القرية)، وقد أعفته السيدة، والثانية قدّمت معجنداً في التجنيد الأخير، والثالثة والرابعة تم اختيار معجند من كل منهما، حتى إن ربّ واحدة من هاتين الأسرتين الأخيرتين لم يحضر المجلس، وكانت امرأته وحدها واقفة وراء الناس وقد فاضت نفسها حزناً وساورها أمل غامض في أن تجري الرياح بما تشتهي نفسها. وأما رب الأسرة الأخرى، وهو رجل أحمر اللون اسمه رومان، يرتدي معطفاً بالياً ممزقاً، رغم أنه ليس بالفقير، فكان مسنداً ظهره إلى الدرج، حانياً رأسه إلى الأرض، صامتاً طوال الوقت، وكان ينظر في بعض الأحيان إلى الرجل الذي يرفع صوته، ثم يخفض رأسه من جديد، وكانت هيئته كلها تعبّر عن التعاسة والشقاء.

إن دولتوف العجوز رجل يكفي أن يعرفه أي إنسان أقل معرفة، حتى يأتينه على مئات الروبلات بل ألوف الروبلات. هو رجل رصين وقور، ميسور الحال، يعرف تقوى الله. ولقد كان عدا ذلك أمين أملاك الكنيسة. وكان من شأن هذا كله أن يجعل اندفاعه وحماسه الآن أدعى إلى الدهشة وأبعث على الاستغراب.

ولم يكن كذلك ريازوف، النجار. فهو رجل شديد البأس طويل القامة، أسمر اللون، صَحَّاب، سكير، جسور، حاذق حذقاً خاصاً في المناقشات والمشاجرات، في المجالس وفي الأسواق، مع العمال ومع الباعة، مع الفلاحين ومع الأسياد. وهو الآن هادئ المظهر لاذع اللسان، يتغلب بقامته الطويلة وصوته الجهير وموهبته الخطابية على دولتوف اللاهث المتعثر، ويسحقه سحقاً.

وكان يشارك في المناقشة أيضاً جارا سكا كوييلوف، وهو رجل لا يزال في شرخ الشباب، مدور الوجه، مربع الرأس، مجعد اللحية، يُعدُّ أحد المتكلمين اللامعين من أبناء الجيل الذي يتلو جيل ريازوف، ويتميز بصلابة القول، ويحظى منذ الآن بشيء من السلطة والتأثير في المجلس. وكان يشارك في المناقشة كذلك فيدور ملنيشني، وهو فلاح أصفر الوجه، نحيل، طويل، مقوس الظهر، لا يزال شاباً، قليل شعر اللحية، له عينان غاضبتان مظلمتان دائماً، كان ينظر إلى كل شيء من جانبه السيئ، ويعكّر المجلس في كثير من الأحيان بأسئلته وملاحظاته المباغثة المقطعة. وكان يتدخل في المناقشة من حين إلى حين رجلان ثرثاران: أحدهما يقال له خرابكوف، وهو إنسان يفيض وجهه طيبة، وله لحية طويلة، وجسم عريض، كان يضيف إلى كل كلمة عبارة:

«صديقي العزيز»، والثاني يسمى جدكوف، وهو رجل قصير، له وجه كوجه العصفور، كان هو أيضاً يضيف الى أقواله بغير انقطاع: «هكذا يا إخوة، ينتج إذا...»، وينتج بحديثه الى جميع الحضور، ويحسن الكلام لكنه لا يضعه في مكانه. وكان هذان الرجلان ينحازان تارة الى هذا الطرف وتارة الى الطرف الآخر، ولكن لم يكن يصغي إليهما أحد. إن هناك أشخاصاً آخرين من هذا النوع، ولكن هذين الاثنين كانا يتدسان في الجمهور، ويصبحان مزيداً من الصباح، فكأن صياحهما يروّع السيدة. إنهما وهما أقل المتكلمين حظوة بإنصات الناس إليهما، قد أطاش الصراخ صوابهما، فكانا ينقادان للذة تحريك لسانيهما.

وكان هناك أنواع أخرى كثيرة من الناس: صموتون لا يتكلمون، ورصينون لا يخرجون عن لباقتهم، وأفراد لا يبالون ولا يكثرثون، وأشخاص مضطهدون، وكان هناك أيضاً نساء يقفن وراء الفلاحين حاملات عصيهن. ولكن عن هؤلاء الناس سأتكلم في مرة أخرى اذا أتاح الله لي ذلك. أما الآن فحسبي أن أقول بوجه عام إن الجمهور كان يتألف من فلاحين يقفون في هذا الاجتماع وقوفهم في الكنيسة، فهم يتحدثون في شؤونهم العائلية، ويتكلمون عن موعد الذهاب الى الغابة لقطع الأشجار، أو يصمتون منتظرين أن ينتهي هذا العويل، ومن أغنياء لا يستطيع هذا الاجتماع أن يضيف الى رخائهم شيئاً، ولا أن ينقص منه شيئاً. فكذلك كان إرميل، ذو الوجه العريض الملتمع، الذي كان الفلاحون يسمونه صاحب الكرش، لأنه غني. وكذلك كان ستاروستين الذي كان وجهه ينضح ثقة، وكأنه يقول: «مهما تقولوا فلن يمسنني أحد. إن لي أربعة أبناء، ولكن من عندي لن يؤخذ أحد». لقد كان الأشداء، من أمثال كوييلوف وريازوف، لا يهاجمونه إلا في القليل النادر، وكان يردُّ

عليهم بهدوء وصلابة، شاعراً بأنه مصون لن يُمسّ. وإذا كان دولتوف يشبه الدجاجة في لعبة الباز والكتاكيت، فإن فتياته كانوا لا يشبهون الكتاكيت كثيراً: أنهم لا يضطربون، ولا يصيحون، وإنما هم يقفون وراءه هادئين. إن أكبرهم، وهو إغثاني، قد بلغ من عمره الثلاثين. والثاني، وهو فاسيلي، متزوج أيضاً، لكنه لا يصلح للتجنيد. والثالث، إليوشكا، ابن الأخ، قد تزوج منذ مدة قصيرة، وهو شاب أبيض متورد اللون يرتدي ثوباً أنيقاً من جلد الحمل (إنه مساعد حوذي)، وينظر إلى الجمهور حاكماً رقبته تحت الطاقية من حين إلى حين كأن الأمر كله لا يعنيه، مع أنه هو الذي كان أولئك الماكرون يريدون أن يُجنّد.

قال ريازوف:

- هكذا! جدّي أيضاً كان جندياً. لذلك سأرفض أن أدخل القرعة! لا يوجد قانون كهذا القانون يا عزيزي. في آخر تجنيد أخذ ابن ميخائتش، ومع ذلك لم يرجع عمه إلى البيت حتى الآن. وكان دولتوف يقول في الوقت نفسه:

- في بيتك، لا أبوك ولا عمك خدما القيصر وأنت أيضاً لا تخدم لا السيد ولا مجلس القرية. أنت لم تفعل شيئاً غير الشرب، وقد تركك أولادك لأن العيش معك مستحيل. أنت تريد أن تلحق الأذى بالآخرين، أما أنا فقد كنت رئيساً للقرية عشر سنين. وقد شب الحريق عندي مرتين فلم يساعدني أحداً! الآن كل شيء في بيتنا هادئ وشريف، يُراد تدميري؟ أرجعوا إليّ إذا أخي! ألم يمت هناك في الخدمة؟ ليكن حكمكم قائماً على الحقيقة مطابقاً لأرادة الرب يا أعضاء المجلس الأرثوذكس، ولا تنصاعوا لسكير كذاب!

وفي الوقت نفسه كان جيرا سيم يقول لدولتوف:

- إنك تذكر لنا أخاك، ولكن مجلس القرية ليس هو الذي جئده،
وانما جئده الأسياد لسوء سلوكه وفساد سيرته. فليس ذكره حجةً
تنفعك...

ولم يكن جيراسيم قد أتمَّ كلامه، حين تقدم فيدور ملتشني، الطويل
الأصفر، وقال مكفهراً الهيئة، غاضباً حائناً:

- هو ذاك السادة يرسلون من يشاءون إرساله، وبعد ذلك يجب
على المجلس أن يدبر أمره. لقد قرر المجلس أن يُرسل ابنك، فإذا لم
يعجبك هذا فاطلب من السيدة أن تعفيك فلعلها ترسلني أنا الذي ليس
عندي الا أطفال.

قال ذلك وعاد الى مكانه محرراً يده. فما كان من رومان الأحمر
الذي تقرر تجنيد ابنه الا أن رفع رأسه وقال:
- نعم، نعم، هو ذاك، هو ذاك.

وجلس على إحدى الدرجات من فرط الغضب.
ولكن هذه الأصوات لم تكن جميع الأصوات التي كانت تتكلم معاً
في آن واحد. فعدا أولئك الذي كانوا في الخلف يتحدثون في شؤونهم
وقضاياهم، كان الثرثارون لا يغفلون عن القيام بوظيفتهم.

قال جدكوف القصير، مكرراً كلمات دولتوف:

- حقاً يا أعضاء المجلس الأورثوذكس، يجب عليكم أن تفصلوا
في الأمر بما توجبه عليكم مسيحييتكم، أي إن عليكم يا أخوتي أن
تكونوا في حكمكم مسيحيين.

وقال خرابكوف مكرراً كلمة قالها كوييلوف، شاداً رداء دولتوف
المصنوع من جلد الحمل:

- يجب الفصل في الأمر بما يوجبه الضمير.
لذلك كانت إرادة الأسباد هي العليا، لا قرارات المجلس.
وقال آخرون:

- هذا حق! هذا صحيح!
وصاح ريازوف قائلاً:

- من السكير الكذاب؟ أنت الذي تهب لي ما أشربه؟ هه؟ هه؟
أم أن ابنك، ابنك الذي يحمله الناس من على أرض الشارع، هو الذي
يأخذ عليّ أنني أشرب؟ ماذا يا أخوة؟ يجب اتخاذ قرار! إذا كنتم تريدون
إعفاء دولتوف، فاجروا القرعة لا على الأسر التي فيها اثنان يعملان بل
على الأسر التي ليس لها إلا ابن واحد. فبذلك تُضحكونه علينا!
- إن دولتوف هو الذي يجب أن يسافر! لا كلام!

وقالت أصوات أخرى:

- الأمر معروف!... الذين عندهم ثلاثة شبان هم من يجب أن
تجري عليهم القرعة.
وقال صوت:

- هذا رهن بما تأمر به السيدة. لقد قال إيجور ميخائيلوفتش إنهم
سيرسلون واحداً من الخدم.

فكان من شأن هذا الاعتراض أن أوقف المناقشة برهةً، ولكن
المناقشة لم تلبث أن حميت مرةً أخرى وأصبحت شخصية.

فان إغناطي الذي ذكر ريازوف أن الناس يحملونه من على أرض
الشارع قد أخذ بيرهن لريازوف على أنه سرق منشار نجار مرّ بالقرية
وإنه أوشك أن يقتل امرأته ضرباً.

فأجابه رياروف بأنه يضرب امرأته حين يكون ثملاً أو حين لا يكون
قد أصاب طعام الإفطار، وأن هذا الضرب لا يؤدّبها مع ذلك. فضحك
جميع الناس. أما عن المنشار فقد استاء رياروف مما اتهمه به إغناتي
أشد الاستياء، فاقترب منه وسأله:

- من سرق المنشار؟

فأجابه إغناتي القوي بلهجة جسورة وهو يقترب منه مزيداً من
الاقتراب:

- أنت!

فردّ إغناتي صارخاً:

- بل أنت الذي سرقته!

وبعد الكلام على المنشار دار الكلام على سرقة أشياء أخرى:
حصان، فكيس شوفان، فحوض خضار، فجثة ميت. وطلق الفلاحان
يتبادلان تهماً لو صدق معشارها لأوجبت القوانين نفيهما كليهما الى
سيبيريا، في أقل تقدير.

وفي أثناء ذلك اختار دولتوف الشيخ طريقة أخرى للدفاع عن
نفسه. لقد ضايقته صرخات ابنه، فأوقفه عن الكلام قائلاً له: «هذا إثم،
اسكت»، وطلق بيرهن، هو، على أن الأسر التي فيها ثلاثة عاملين
ليست فقط تلك التي لها ثلاثة أبناء يعيشون معاً، بل كذلك تلك التي
يعيش أبناؤها مستقلين بالانقسام، ودلّ مرة أخرى على ستاروستين.

فابتسم ستاروستين قليلاً، وتنحنح، ثم أجاب وهو يلعب لحيته
كما يفعل فلاح غني، أجاب يقول إن مشيئة السيد هي العليا، وإن ابنه
إذا كان قد أعفي فلأنه يستحق ذلك حتماً. وأما عن الأسر الموزعة فقد

انبرى جيراسيم يدحض حجة دولتوف بقوله إنه كان ينبغي الاقتسام والاستقلال كما كان يُمنع في أيام الأسياد القدامى، أما وقد سُمح به، فقد فات الأوان، ولا يجوز تجنيد أشخاص يعمل كل منهم وحيداً.

وعلت أصوات العاملين المستقلين تقول:

- هل يستقل المرء راضياً؟ ما من أحد يستقل إلا مكرهاً! فعلام نُدمر الآن تدميراً!

وانحاز إليهم الثرثارون.

وهتف ريازوف مخاطباً دولتوف:

- إذا كان هذا لا يرضيك، فما عليك إلا تفتدي ابنك برجل آخر. إن مواردك تتيح لك ذلك!

فما كان من دولتوف إلا أن ضمَّ طرفي قفطانه أحدهما إلى الآخر يائساً مكروباً، ومضى يقف وراء الفلاحين الآخرين، وقال يردُّ على ريازوف مدمماً في حق:

- لا شك أنك عددت ما عندي من مال! هذا إيجور ميخائيلوفتش! سترى ما سينقله إلينا من رأي السيدة.

كان إيجور ميخائيلوفتش يخرج من المنزل في تلك اللحظة فعلاً. فأخذ المحتشدون يرفعون طاقياتهم واحداً بعد آخر، وأخذت رؤوس صلعاء في وسطها وفي مقدمتها تظهر تباعاً، فمنها الأبيض ومنها الأشيب ومنها الأحمر ومنها الأسمر ومنها الأشقر. وسكنت الأصوات شيئاً فشيئاً، ثم أطبق الصمت إطباقاً تاماً. كان إيجور ميخائيلوفتش واقفاً على درج الباب، وأشار بيده يريد الكلام. إنه الآن، بردنجوته الطويل، ويديه الغائصتين في جيبه الأماميتين، وكسكيتيه المكفوفة، وساقيه المتباعدين، ووقفته في هذا المكان العالي الذي تثرئب إليه الرؤوس، بعضها عجوز وبعضها جميل وملتح، يختلف اختلافاً كبيراً عن إيجور ميخائيلوفتش الذي كان ماثلاً أمام السيدة. هو الآن ذو أبهة وجلال. اليكم فرار السيدة يا أولاد: إنها لا تريد أن ترسل أي واحد من الخدم، والذي تختارونه من بينكم هو الذي سوف يذهب. نحن الآن في حاجة الى ثلاثة. بل الى اثنين ونصف في الواقع، ولكن النصف

الآخر سيُحسب سلفةً للمرة القادمة. الأمران واحد: إن لم يكن الآن،
ففي المرة القادمة.

قالت أصوات:

- معروف! صحيح!

وتابع إيجور ميخائيلوفتش كلامه فقال:

- وفي رأيي أن خوريوشكين وفاسكا ميتوشكين قد شاءت إرادة
الله نفسه أن يُجنّدا.

قالت أصوات:

- نعم، هذا مؤكد!

- أما الثالث فيجب أن يكون أحد آل دولتوف أو واحداً من بين
الأسر التي فيها اثنان يعملان. ما رأيكم؟

صاحت الأصوات تقول:

- بل دولتوف. آل دولتوف ثلاثة.

وعاد الصباح يشتد شيئاً بعد شيء، وجيء على ذكر حوض الخضار
والعجلة المسروقة من فناء منزل السادة من جديد.

إن إيجور ميخائيلوفتش الذي يدير هذه الأملاك منذ عشرين عاماً،
رجل ذكي ذو خبرة. وقد ظل واقفاً يصغي مدة ربع ساعة، ثم إذا هو يأمر
الجميع بالصمت فجأة، وإذا هو يأمر آل دولتوف بإجراء القرعة على
الثلاثة لمعرفة من سيتم تجنيده. فقُصّت أوراق. ووضع خرابكوف
الأوراق في طاقية، وهزّت الطاقية لتختلط الأوراق، وسُحبت إحدى
الأوراق فإذا هي ورقة إليوشكا.

صمت الجميع. وصاح إيليا يقول بصوت منقطع:

- وقعت القرعة عليّ أنا، هه؟ هاتِ أرني !

بقي الصمت مخيماً. وأصدر إيجور ميخائيلوفتش أمره بجمع المال الذي يُخصّ به المجندون: سبع كوبيكات من كل بيت. ثم أعلن أن القضية انتهت، وفرّق الحشد.

غاصت الطاقيات في الرؤوس حتى الرقاب، وتحرك الجمع في جلبه من لغط الأحاديث وأصوات وقع الأقدام. ولبث الوكيل واقفاً على درج الباب ينظر إلى الجمهور وهو يتعد.

فلما وصل آل دولتوف الى زاوية الشارع، وانعطف الفتیان فغابوا، نادى الوكيل أباهم الذي تلبّث عند الزاوية من تلقاء نفسه، ودخل معه الى المكتب.

قال إيجور ميخائيلوفتش وهو يجلس أمام الطاولة:

- إنني أرثي لحالك أيها الشيخ. لقد جاء دورك. ألن تفتدي ابن أخيك؟

فألقي دولتوف على إيجور ميخائيلوفتش نظرة مثقلة بالمعاني من دون أن يجيبه بكلمة. فردّ إيجور ميخائيلوفتش على نظره قائلاً:

- لا مناص إذاً.

قال دولتوف:

- إنا ليسعدنا أن نفتديه، ولكننا لا نملك المال اللازم لذلك يا إيجور ميخائيلوفتش. لقد نفق لنا حصانان في هذا الصيف. وقد زوّجت ابن أخي. والسبب في مصيرنا هذا هو أننا أناس شرفاء طبعاً. ما أسهل الكلام عليه، هو ! (يقصد ريازوف).

فرك إيجور ميخائيلوفتش وجهه بيده وتشاءب. واضح أن الامر قد

أضجرة، وقد آن له أن يحسو شايه.

قال:

- إيه أيها العجوز، لا تأثم! ابحث في قبوك، فلعلك واجد فيه
أربعمائة روبل، فأشتري لك بها رجلاً هادياً، رجلاً أعجوبة. منذ بضعة
أيام جاءني رجل يعرض نفسه...

فسأله دوتوف:

- من الإقليم؟

وكان يقصد: من المدينة؟

قال الوكيل:

- فهل تفتدي به ابن أخيك؟

- كان يسعدني ذلك لو أستطعت، يعلم الله... ولكن...

فقاطعه أيغور ميخائيلوفتش بقسوة قائلاً:

- إسمع أذاً أيها الشيخ: حذار أن يصنع إيليوشا بنفسه شيئاً، وليكن
مستعداً على الفور حين أرسل في استدعائه اليوم أو غداً. ستجيء به
أنت بنفسك، وإذا حدث له شيء لا سمح الله فستكون المسؤول عن
ذلك، فأخذ ابنتك الأكبر، هل فهمت؟

- ولكن لا يؤخذ رجل من أسرة ليس فيها إلا اثنان يعملان يا أيغور

ميخائيلوفتش!

وأضاف يقول بعد صمت:

- ألا إنه لظلم. يموت أخي جندياً ثم يؤخذ مني ابنه.

وأضاف وهو يكاد يبكي ويوشك أن يعثر راکعاً:

- لماذا ينزل عليّ هذا الشقاء؟

قال إيجور ميخائيلوفتش:

- هيا اذهب. لا حيلة لنا في الأمر. هذا هو النظام. راقب إيليوشكا.
أنت مسؤول عنه.
مضى دولتوف الى مسكنه مطرقاً مفكراً يضرب بقدمه حصي
الطريق.

في ساعة مبكرة من صباح الغد كانت عربة سفر هي العربة التي يستعملها الوكيل في رحلاته ترابط أمام «جناح» الخدم، وقد شُدَّ إليها حصان خصي كميت ضخمة سُمِّي باسم «الطبل»، لا يدري أحد لماذا ! وكانت آنيونكا، وهي ابنة بوليكا الكبري، تقف أمام الحصان حافية القدمين رغم قطرات المطر الثقيلة ورغم الريح الباردة. إنها خائفة خوفاً واضحاً. تمسك اللجام بإحدى يديها، وباليدين الأخرى تشد إلى رأسها قميصاً أصفر ضارباً إلى خضرة تستعمله الأسرة غطاءً ومعطفاً وطاقيّة وسجادة ودثاراً لبوليكاي، وتستعمله في أغراض أخرى كثيرة. وكان في «الركن» بلبلة كبيرة، وكان الظلام لا يزال يخيم فيه، فأشعة الصباح لا تكاد تنفذ من النافذة التي ألصق بها ورق هنا وهناك. إن آكولينا ترجى الآن عنايتها بشؤون المؤونة والطبخ والأولاد، والصغار من الأولاد لمّا ينهضوا بعد، وهم يرتعدون برداً، لأن غطاءهم الذي عاد يُستعمل ثوباً قد حلَّ محله الخمار الرقيق الذي تستر به الأم رأسها. إن آكولينا

مشغولة بإعداد سفر زوجها، قد غسلت قميصه فأصبح نظيفاً، وعكفت على جزمته نهتم بهما اهتماماً خاصاً من فرط ما أصابهما من بلى. لقد خلعت في أول الامر الخفَّين الصوفيين الغليظين اللذين يكسوان قدميهما، وهما الخفان الوحيدان في البيت، فأعطتهما إلى زوجها، ثم عمدت إلى غطاء للخيل كان إيلتش قد جاء به إلى البيت من الاسطبل مستغلاً ضعف الحراسة، فاستطاعت أن تقدِّم من الغطاء قطعاً صغيرة تسدُّ بها ثقوب الجزمتين، لتحمي قدمي إيلتش من البلل.

وكان إيلتش جالساً على السرير ماداً قدميه فوقه، آخذاً في عقد حزامه على نحو يُخفي أنه حبل قذر. وكانت الصبية الماكرة المشغغة قد أرسلت إلى نيكيتا تستعير منه طاقيته، متلفعةً بجلد من جلود الحمل يعرفل ساقبها رغم أنها وضعت على رأسها. وكان عدد من الناس قد احتشدوا في الفناء يفاقمون البلبلة والجلبة، فهذا يريد من إيلتش أن يشتري له من المدينة إبراً، وهذا يطلب منه أن يجنيه بشاي، وهذا يسأله أن يحمل إليه قليلاً من زيت الخروج، وهذا يكلفه بأن يتنازع له شيئاً من التبغ، وامرأة النجار ترجوه أن يشتري لها سكرأ. وكانت امرأة النجار قد استطاعت أن تشعل السماور، فملأت قدحاً من ذلك الشراب الذي تسميه شاياً وحملته إليه تملقاً ومداهنة. واذ رفض نيكيتا إعارة طاقيته، فقد اضطرت آكولينا أن تصلح طاقيته إيلتش فدسَّت قطع القطن التي كانت تخرج منها وتندلى عليها، ثم خاطت الثقوب بآبرة بيظري.

ورغم أن الجزمتين اللتين رُقعتا من الداخل لم يمكن انتعالهما إلا بكثير من العناء، ورغم أن آنيوتكا التي تجلدت من شدة البرد فأفلت منها «الطبل» فمضت تحل محلها ماشكاً متدثرة بجلد الحمل، ثم

اضطرت أن تترك الجلد، فخرجت آكولينا بنفسها لتمسك «الطبل»، رغم كل ذلك فإن إيلتش قد وضع أخيراً جميع ثياب الاسرة على ظهره لم يدع منها إلا قميص النوم والخفاف البالية، ثم رتب العلف وعاد يتلفف بشيابه مرة أخرى، وشدّ الأعنة، ثم ركب العربية ودثر نفسه مزيداً من التدثر كما يفعل الجادون الرصيون من الناس، وسار.

وكان صغيره ميشكا واقفاً على درج الباب، فطلب أن يركب مع أبيه، وسرعان ما انبرت ماشكا المثغثة تطلب أن تقوم هي أيضاً «بدولة»⁽¹⁾ وقالت إنها «ستشعل بحل ولو من غيل معطف» أي (ستشعر بحر ولو من غير معطف)، فاستوقف بوليكا ي حصانه وهو يتسم ابتسامة وديعة، فأركبت آكولينا ولديها في العربية، وانتهزت هذه الفرصة فمالت على زوجها لتذكره، هامسةً، بالوعد الذي قطعه على نفسه وهو أن لا يشرب في الطريق.

مضى بوليكا ي بالولدين حتى وصل الى الحداد، وهناك أنزلهما، ثم تدثر مرة أخرى، وأغطس قبعته، وأطلق العنان للحصان يجري بالعربة خيباً خفيفاً مطرداً، فكانت الارتجاجات تُرْعش خديه، وتجعل قدميه يقرعان أرض العربية.

ورجع ميشكا وماشكا الى البيت حافين، صاعدين المرتفع المتزلج، بالغين من سرعة الركض وحدة الصراخ أن كلباً قادماً من البرية نظر إليهما فاذا هو يكفكف ذيله بين ساقيه فجأةً ويأخذ يجري الى البيت نابحاً، فكان من شأن ذلك أن اشتد صراخ وريثي بوليكا ي مزيداً من الاشتداد.

(1) دولة: المقصود «دورة» ذلك أن ماشكا تلفظ الراء لماً.

كان الجورديثاً، فالريح تلسع الوجه لسعاً، وأخذ الثلج تارة، والمطر تارة أخرى، والملحة تارة ثالثة، تصفع وجه إيلتش ويديه العاريتين الباردتين اللتين يخفيهما مع المقودين تحت كمي دثاره، وتصفع سيور القوس وتجلد رأس «الطبل» العجوز الذي كان يكفكف أذنيه ويغمض عينيه.

وانفشعت السماء فجأة الى حين، فظهرت غيوم الثلج البيضاء ظهوراً واضحاً، وهمت الشمس أن تنفذ من خلالها، ولكن على تردد وبغير فرح، كابتسامة بوليكاى نفسه. ومع ذلك كان بوليكاى غارقاً في أفكار لذيدة. إنه، هو الذي أريد نفيه، هو الذي هُدد بارساله الى الخدمة العسكرية، هو الذي كان الكسول وحده لا يشتمه ولا يضربه، هو الذي كان يُسخر في أبشع الأعمال، يوفد الآن لقبض مبلغ من المال، مبلغ ضخّم، وتوليه السيدة ثقتها، ويركب عربة الوكيل التي يجرها «الطبل» وتركبها السيدة نفسها، ويمضي كما يمضي ساعي البريد، مستعملاً عدة من جلد. ونصب بوليكاى جذعه، ودسّ القطن الذي كان يخرج من طاقيته، وتدنثر مزيداً من التدنثر. ولكن إذا ظن إيلتش أن هيئته هي الآن هيئة رجل ثري، فقد أخطأ.

إن كل إنسان يعلم حقاً أن تجاراً ممن يملكون عشرة آلاف روبل يركبون عربات لحصانها عدة من جلد. ولكن شتان بين هؤلاء وبين بوليكاى. لقد تبصر رجلاً ذا لحية، مرتدياً قفطاناً أزرق أو أسود، جالساً وحده في عربة يجرها حصان شبعان. ولكن يكفيك أن ترى هل الحصان معتنى به، وهل السائق نفسه شبع، وأن ترى جلسته، وأن ترى كيف شدّ الحصان الى العربة، وأن ترى زخارف الحديد في

العربة، حتى تعرف على الفور هل الرجل يتاجر بالوف من الروبلات أو بمئات. إنه ليكفي أيّ إنسان خبير أن يلقي نظرة واحدة على بوليكاى، وعلى يديه، ووجهه، ولحيته التي أرخاها منذ قليل، وحزامه، والعلف المبعثر في الصندوق، و«الطبل» الهزيل، وصفائح الحديد المهترئة، حتى يدرك فوراً أن الشخص الذي يبصره إنما هو قن بائس، لا تاجر مواش، ولا مزارعاً، ولا رجلاً يحمل حتى عشرات الروبلات فضلاً عن مثاتها أو ألوفها. غير أن إيلتش كان لا يخطر ذلك بباله، وكان يجد لذة في خداع نفسه. إن ما سوف يحمله في جيبه هو ثلاثة «أنصاف ألف» روبل. ولو شاء لوّجّه «الطبل» الى أوديسا، ولذهب الى حيث يأذن له الله أن يذهب، بدلاً من العودة الى المنزل. ولكنه لن يفعل هذا. وإنما هو سيرد المال كاملاً غير منقوص، وسيمضي يقول للسيدة إنه سبق أن حمل مبالغ أخرى كثيرة.

وحين مرّ أمام الحانة شدّ «الطبل» مقوديه يسرةً، وتوقف والتفت. ولكن بوليكاى، رغم أن معه مالاً هو المال الذي عهد به إليه لابتياح بعض الاشياء، جلد «طبل» بسوطه، وتابع سيره. وكذلك فعل عند الحانة الثانية. حتى إذا كان الظهر نزل من العربة، وفتح بوابة دار التاجر، حيث كان يقف جميع أفتان السيد، وأدخل مركبته، وحلّ حصانه، وقاده الى المعلق، ثم تغدى مع عمال التاجر، ولم يفته أن يذكر لهم غرض رحلته، ثم مضى الى البستاني حاملاً رسالة السيدة في داخل طاقيته. حتى إذا قرأ البستاني الرسالة - وهو يعرف بوليكاى - أخذ يلقي عليه عدداً من الأسئلة مرتاباً بعض الارتياح، ليتيقن من أن بوليكاى مكلف بقبض المال فعلاً. فأراد بوليكاى أن يغضب، ولكنه لم يستطع، فلم يزد

على أن ابتسم. وقرأ البستاني الرسالة مرة أخرى، ثم سلمه المال. فما إن استلم بوليكاى المال حتى دسّه في جيبه، ومضى متجهاً إلى دار التاجر لا تغريه الخمارات ولا الحانات. كان يشعر في كيانه كله بتوتر عصبي لذيذ. وقد توقف عدة مرات أمام المتاجر التي تبيع بضائع مغرية: من أحذية، ومعاطف، وطاقيات، ومنسوجات، وموّن، فكان في كل مرة لا يلبث أن يتعدّ قائلاً لنفسه وهو يشعر بلذة عظيمة: «في وسعي أن أشتري كل شيء، ولكنتي لن أفعل». ودخل البازار ليشترى الأشياء التي كُلفَ بابتياعها. فاشترى كل شيء. وساوم على معطف من جلد الحمل طلب البائع خمسة وعشرين روبلاً ثمناً له. وقد قدّر البائع من النظر الى هيئة بوليكاى أنه ليس أهلاً لشراء المعطف، ولكن بوليكاى أراه فتحة جيبه وقال له إنه يستطيع أن يشتري دكانه كلها إذا أراد، وأصرّ على تجريب المعطف، فلما لبسه أخذ يجسه ويحكه، وينفخ على زغبه، حتى لقد شمّه، ثم خلعه متنهداً وقال إن السعر لا يناسبه، وسأل البائع: «هل تبيعه بخمسة عشر روبلاً؟». فما كان من البائع إلا أن رمى المعطف على البسطة حانقاً. وخرج بوليكاى، ومضى إلى الدار فأنض النفس فرحاً. حتى إذا تعشى، وقَدّم للحصان علفه، ارتقى سطح المدفأة، واستل الظرف، وكان قد طلب إلى حوذي يعرف القراءة أن يقرأ له ما هو مكتوب على الظرف: «في طيه ألف وستمائة وسبعة عشر روبلاً ورقاً». إن الظرف مصنوع من ورق عادي، وقد خُتم بشمع رمادي في خمسة مواضع: أطرافه الأربعة ووسطه، والخاتم يمثل مرسة، فأما في الأطراف فالمرسة صغيرة، وأما في الوسط فهي كبيرة، وفي جانب من الجوانب قطرة من شمع. فحصى ايلتش كل شيء، وحفظ الكتابة على

ظهر القلب، حتى لقد نحسّس بأصابعه أطراف الأوراق النقدية. فكان يشعر بفرح كفرح الاطفال، حين يتصور أن بين يديه مبلغاً ضخماً هذه الضخامة. ودسّ الظرف في بطانة طاقيته، وأحكم أغطاس الطاقية على رأسه ونام. ولكنه حتى في الليل، استيقظ من نومه مراراً، فكان يجس الظرف، حتى إذا أحس به في مكانه، أبهجه أشد الإبهاج أن يقول لنفسه انه - هو بوليكاوي، المذلّ، المهان - يحمل هذا المبلغ الضخم كله وانه سيسلّمه الى مولاته سليماً كل السلامة، كالوكيل نفسه بل يزيد.

في نحو منتصف الليل، استيقظ عمال التاجر وبوليكاى على ضجة طرق باب الدار وأصوات نداء فلاحين. لقد وصل المجندون المرسلون من بوكروفسكايا. ان الرجال عشرة: خوريوشكين، وميتيوشكين، وايليا (ابن أخى دولتوف)، وبديلان، ورئيس القرية، والعجوز دولتوف، وفلاحون يقودون العربات. كان القنديل مشتعلًا في الكوخ. وكانت الطباخة نائمة على الدكة تحت الأيقونات، فها هي ذي تثب من مضجعتها وتُشعل الشمعة. واستيقظ بوليكاى أيضاً، فدلّى رأسه من فوق سطح المدفأة، وأخذ ينظر الى الفلاحين وهم يدخلون. رسم الجميع إشارة الصليب، وجلسوا على الدكك. كانوا كلهم هادئين، حتى ليصعب على المرء أن يعرف مَنْ منهم المجندون، وقد حيّوا وتكلموا وطلبوا أن يأكلوا. ولئن كان بعضهم صامناً حزيناً، لقد كان الآخرون مرخين مرحاً طافحاً. واضح أنهم كانوا ثملين. وكان إيليا واحداً من الثملين، هو الذي لم يشرب قبل اليوم قط.

قال رئيس القرية يسأل:

- ماذا يا أولاد؟ أتريدون أن تتعشوا، أم تؤثرون أن تناموا؟

فأجابه إيليا وهو يحرك فروته ويجلس على الدكة:

- بل نريد أن نتعشى. أرسل من يأتينا بخمرة.

قال رئيس القرية بإهمال:

- لا، لا خمرة.

وأردف يقول مخاطباً الآخرين:

- فلنأكل خبزاً يا أولاد. لا داعي الى ايقاظ الناس من نومهم! فانبرى

إيليا يقول من دون أن ينظر الى أحد:

- بل هات خمرة!

وكان واضحاً من لهجته أنه لن يهدأ.

وعمل الفلاحون بنصيحة رئيس القرية، فتناولوا من عربة الأحمال

خبزاً، وجعلوا يأكلون، ثم طلبوا شيئاً من شراب الكفاس ورقدوا،

بعض على الارض، وبعض على سطح المدفأة. وكان إيليا لا ينفك

يردد بين الفينة والفينة:

- هات خمرة، أقول لك. هات خمرة!

وفجأة أبصر بوليكاى. فصاح يقول:

- هيه! ايلتش! ايلتش! هذا أنت يا صديقي؟ أنا ذاهب جندياً! ودّعت

أمي وزوجتي... آه... ما أشد ما أعولت! لقد جُنّدت! هلاًّ دفعت عني

ثمن شيء من خمرة!

قال بوليكاى:

- ليس معي مال. كان الله في عونك.

وأضاف محاولاً أن يواسيه:

- لا يزال يمكن اعفاؤك.

- لا، لا يا عزيزي. أنا قوي كشجرة سندري. لم يصبني مرض في يوم من الأيام. فكيف يمكن أن أعفى؟ ولكن ما حاجة القبصر الى أقوى الناس جنداً؟

فأخذ بوليكاوي يروي أن فلاحاً نفح الطيب ورقة زرقاء، فاستطاع بهذه الوسيلة أن يحصل على إعفاء.

واقترب إيليا من المدفأة، وطفق يثرثر ثرثرة غزيرة.

- لا يا إيلتش! انتهى الآن كل شيء. وأنا نفسي لا أريد أن أبقى. إن عمي هو السبب. ألم يكن في وسعه أن يشتري بديلاً؟ لا، هو لا يحب إلا ابنه وماله. وها قد أرسلت أنا... والآن أنا نفسي لا أريد البقاء. كان إيليا يتكلم برفق، وكانت لهجته لهجة بوح يلهمها حزن رقيق وأسى هادئ.

واصل كلامه يقول:

- الشخص الوحيد الذي آسف عليه انما هو أمي. ما كان أشد كربها وكمدها، تلك المسكينة! وامراتي أيضاً... هكذا، من دون سبب، تضيع امرأة. هي الآن امرأة ضائعة. زوجة جندي، لا أكثر. كان الأفضل أن لا أتزوج. لماذا زوجني؟ غداً يأتين...

سأله بوليكاوي:

- ولكن لماذا أخذتم هكذا فجأة. قبل وقت قصير لم نسمع بشيء، وبغتة...

قال إيليا مبتسماً:

- تصور أنهم يخشون أن أصنع بنفسي شيئاً. لا، لا خطر! لن أصنع بنفسي شيئاً، ليست الجندية هلاكاً على كل حال. ولكنني أرثي لحال أُمي. لماذا زوجوني؟

كذلك قال إيليا بلهجة فيها رفق وحزن.
وفُتح الباب بغتة، فدخل دولتوف منتعلاً حذاءيه المصنوعين من مجدول الليف، فكانت قدماء أشبه بقاريين، وكان يهز طاقيته. قال يسأل الحوذي وهو يرسم إشارة الصليب:

- آفانازي! أليس عندك فانوس؟ أريد أن أقدم للأفراس شوفاناً.
لم ينظر دولتوف إلى إيليا، ومال على شمعة صغيرة يشعلها بهدوء. لقد علّق قفازيه وسوطه بحزامه، وعُني بعقد أزرار معطفه أحسن العناية، كأنه تاجر قادم ببضاعة. وكان على عادته هادئ المظهر ساكناً ينم وجهه عن المعهود فيه من أنه رجل يعكف على عمله ويغرق فيه جاداً كل الجد.

صمت إيليا حين رأى عمه، ونظر إلى جهة الدكة مكفهر الهيئة، ثم أخذ يتكلم مخاطباً رئيس القرية.

- هات خمرة يا إرميل! أريد أن أشرب خمرة!
وكان في صوته شر وفتامة.

أجابه رئيس القرية وهو يشرب من فنجان:

- أين لنا بالخمرة الآن! لقد أكل الرجال وناموا، كما ترى. فلماذا تحدث هذه الجلبة كلها؟

فما إن سمع إيليوشا رئيس القرية يصفه بأنه «يحدث جلبة» حتى حضّه ذلك على إحداث جلبة فعلاً، فهتف يقول:

- يا حضرة الستاروست (رئيس القرية)! إن لم تعطني خمرة
فلأنزلن مصيبة!

فقال رئيس القرية للشيخ دولتوف الذي كان قد أشعل فانوسه،
ولكنه توقف ليصغي الى ما يجري:
- رده الى الصواب.

فألقي دولتوف على ابن أخيه نظرة فيها شفقة ورحمة، وكأنه
مدهوش من هذا التصرف الذي يشبه أن يكون تصرف طفل. فعاد إيليا
يقول مرة أخرى وهو يخفض رأسه:
- هات خمرة والا أنزلت مصيبة!

قال الستاروست (رئيس القرية) في رفق:
- كفى يا إيليا! أقصر، فذلك خير لك!
ولكن ما إن أنهى الستاروست كلماته هذه حتى وثب إيليا من مكانه،
ولطم زجاج النافذة بقبضة يده فحطمه، وصرخ قائلاً:
- لا تريدون أن تطيعوني خذوا إذاً...
وهجم على النافذة الأخرى ليحطمها.

فما كان من بوليكاي الا أن دار حول نفسه مرتين، ثم اندس في
الزاوية بين الجدار والمدفأة، مثيراً الرعب بين الصراصير. ورمى
الستاروست ملعقته وخفَّ الى إيليا. ووضع دولتوف فانوسه على
الارض بهدوء، ونزع حزامه، وصفق بلسانه، وهزَّ رأسه، وتقدم من
إيليا يحاول أن يعاون الستاروست والبواب في صده عن النافذة لقد
أمسك الرجلان يدي إيليا، وقبضا عليه قبضاً قوياً ولكن إيليا ما إن أبصر
عمه حتى اشتدت قوته وتضاعفت، فاذا هو يتملص من أيدي القابضين

عليه، ثم إذا هو يتقدم من دولتوف رافعاً عينيه، شاداً قبضتيه، قائلاً:
- لسوف أقتلك. حذار أن تقترب أيها الوحش! أنت الذي
ضَيَّعتني... أنت وابنك الحقيران! لماذا زوجتموني؟ لا تقترب، والا
قتلتك!

كان منظر إيليوشا رهيباً. لقد احمر وجهه احمراراً شديداً، وزاغ
بصره، وأخذ جسمه الفتى كله يرتعش ارتعاش حُتمى. كان يبدو عليه أنه
يريد ويستطيع أن يقتل الفلاحين الثلاثة الذين يحدقون به.
- إنك تشرب دم أخيك يا علة!

ارتعش شيء في وجه دولتوف الذي لا يفارقه الهدوء. وتقدم الى
الأمام خطوة. وقال فجأة:

- رفضت أن تُعامل بالحسنى، فإليك ما تستحق أن تعامل به...
قال ذلك وقبض على ابن أخيه بقوة مذهلة لا يدري من أين جاءته،
وارتمى معه على الأرض بحركة سريعة، وأخذ يوثق يديه بمعاونة
الستاروست. دامت المعركة زهاء خمس دقائق، نهض دولتوف بعدها
بمساعدة الفلاحين الآخرين، وأقصى يدي إيليا عن فروته التي تشبث
بها الشاب تشبثاً قوياً، ثم انهض إيليا موثق اليدين وراء ظهره، وأجلسه
على دكة في ركن. وقال لاهثاً من عناء المعركة وهو يعيد شدّ الحزام
حول قميصه:

- قلت لك إن الحال ستسوء إذا أنت لم تشب الى رشدك. لماذا تأثم
هذا الإثم؟

وأضاف يقول مخاطباً البواب:

- ضع الدثار تحت رأسه، وإلا فقد يصاب باحتقان.

وخرج يتفقد الأفراس حاملاً فانوسه، عاقداً على خصره حبلاً بمشابة حزام.

وكان إيليا يجيل بصره في الغرفة منقوش الشعر مصفراً الوجه مشعت القميص، كأنه يحاول أن يتذكر أين هو! وجعل البواب يلثم حطام الزجاج، وأخذ يسد النافذة بفروة ليمنع هبوب الريح في الغرفة. وعاد الستاروست يجلس أمام فنجانه.

- إيه... إيليوشكا، إيليوشكا! إني لأشفق عليك وأرثي لك حقاً. ولكن ما حيلتنا؟ إن خوريوشكين متزوج أيضاً... إنه الحظ طبعاً! فقال إيليا مكرراً ما سبق أن قاله:

- بل هو ذنب عمي، عمي الوغد. إنه بضنّ بماله... قالت أمي إن الوكيل نصحه بشراء بديل. ولكنه رفض زاعماً أنه لا يملك مالاً. ألم نجن للبيت شيئاً أنا وأخي؟ إن عمي ويش!

وعاد دولتوف الى الكوخ، فخلع ثيابه، وجلس بقرب الستاروست. فحملت إليه الخادمة شيئاً من «الكفاس»، وملعقة. وصمت إيليا، وأغمض عينيه، وتمدد على الدثار. فأشار الستاروست لعمه إليه صامتاً وهو يهز رأسه حسرة، فأجرى دولتوف يده بحركة تعبر عن التملل، وقال للستاروست:

- أظن أنني لا أشفق عليه؟ إنه ابن أخي، ابن أخي. وكانما لم يكفني ما أنا فيه من ألم لحاله، فإذا هم يصوّرونني له في صورة رجل دنيء حقير. لقد ألقّت امرأته في روعه - لا أدري كيف، فهي امرأة ماهرة رغم أنها صغيرة السن - أننا نملك مالاً وفيراً، وأن في وسعنا أن نشترى بديلاً. وما هو ذا يصب عليّ ألوان اللوم. خسارة! فتى مثله...

قال الستاروست:

- هو فتى طيب حقاً!

- ولكنني لا أقدر أن أرده إلى الصواب. سأرسل غداً إغاثتي.
وامرأته تريد أن تجيء أيضاً.

قال الستاروست وهو ينهض ويرتقي سطح المدفأة:

- حسناً تفعل. أرسلهما. ما قيمة المال؟ المال غبار!

قال أحد عمال التاجر وهو يُنهض رأسه:

- هل يضمن المرء بالمال إذا كان يملك مالاً؟

قال دولتوف:

- آ... المال! المال! إنه علة كثير من الآثام. لا شيء كالمال يبعث
على ارتكاب الآثام ذكر ذلك حتى في الكتاب المقدس.

قال البواب:

- صحيح كل الصحة. حدثني رجل عن تاجر فقال إنه كنز مالاً كثيراً
وكان لا يريد أن ينفق شيئاً، وبلغ من حبه المال أنه أراد أن يأخذه معه
إلى القبر. فلما جاءه الموت، كان كل ما طلبه هو أن توضع وسادته
في تابوته. فوضعوا له الوسادة في التابوت. وأسرع أبناءه بعد دفنه
يبحثون عن المال، فلم يعثروا له على أثر. فقدّر أحد أبنائه أن المال
لا بد في الوسادة التي طلب الأب وضعها في التابوت. ووصل النبا
إلى الامبراطور، فأذن بفتح التابوت. فهل تعرف ماذا وجدوا؟ لقد فتقوا
المخدة، فلم يعثروا فيها على شيء ولكن التابوت كان يعج بالقمل،
فأعادوا دفنه. ذلك ما يصنعه المال!

- معروف، معروف. ما أكثر ما يرتكب المال من آثام!

نهض دولتوف وأخذ يصلي. فلما فرغ من صلاته نظر الى ابن أخيه.
كان إيليا نائماً. فاقترب دولتوف منه، وحلّ وثاقه قليلاً، وورقده. ومضى
الفلاح الآخر ينام في الاسطبل.

حين ساد الهدوء من جديد نزل بوليكاى عن سطح المدفأة متسللاً كـمجرم، وارتدى ثيابه. إنه لا يعلم لماذا كان خائفاً من قضاء الليلة مع المجندين. وكانت الديكة قد أخذت تصيح من حين الى حين، وكان «الطبل» قد أكل الشوفان كله وجعل يبحث عن ماء يشربه. قرن إيلتش الحصان الى العربى، وقاده الى حيث كانت عربة النقل التي جاء بها الفلاحون. إن الطاقية وما تحويه سليمة لم يمسسها سوء. وأخذت عجلات العربى الصغيرة تفرقع من جديد على الطريق المتجلى المؤدى الى بروكوفسكوىا. شعر بوليكاى بارتياح حين خرج من المدينة. كان يتراءى له قبل ذلك دائماً أن هناك أحداً يحاول أن يطارده، ويخيل اليه في بعض الأحيان أنه استوقف وقُبض عليه، وأنه هو الذي يُساق الى مكتب التجنيد موثق اليدين وراء ظهره بدلاً من إيليا. وكانت قشعريرة تسري في ظهره أحياناً، من البرد تارة ومن الخوف تارة اخرى. فكان يستحث الحصان. وكان أول شخص لقيه في طريقه كاهناً يضع على

رأسه فلنسوة عالية مما يُدثر به الرأس في الشتاء، وكان يرافق الكاهن عامل أعور، فأحس بوليكاى بضيق. ولكن خوفه تبدد شيئاً فشيئاً بعد خروجه من المدينة. كان الحصان يسير على مهل. ووضح الطريق. خلع بوليكاى طاقيته وتحسس المال. تساءل: أأضعه في جيبي؟ يجب إذاً أن أنزع حزامي. طيب. سأنزل هناك، فأدبر أمري. ولكن بطانة الطاقية مخيطة خياطة متينة في أعلى وفي أسفل، فلن ينزلق المال. فلن أخلع الطاقية الى أن أصل.

وحين وصلت العربية الى المنحدر أخذ الحصان يجري خبياً من تلقاء نفسه، واذ كان بوليكاى حريصاً على الوصول بأقصى سرعة كحرص الحصان نفسه، فانه لم يصدّ الحصان عن الجري. كان كل شيء كما يجب أن يكون، أو هذا ما كان يتخيله بوليكاى. واسترسل بوليكاى في الأحلام: تصور امتنان مولاته التي ستنفحه خمسة روبلات، وفرحة أسرته.

وخلع طاقيته، وتحسس الظرف مرة أخرى، وغطس الطاقية في رأسه بمزيد من الإحكام، وابتسم.

إن النسيج المخملي الذي صُنعت منه طاقية بوليكاى كان مهترئاً ولأن آكولينا قد خاطته خياطة محكمة في الموضع الممزق من الطاقية بالامس، فقد تمزق النسيج في موضع آخر. وبالحركة التي أجراها بوليكاى حين خلع طاقيته في الظلام يريد أن يدس الظرف في القطن دساً أعمق، فقد تمزقت الطاقية، فخرج منها طرف من الظرف.

وقد غفا بوليكاى في الصباح بعد أن لم يغمض له جفن طوال الليل. وأعطس طاقيته في رأسه فخرج الظرف مزيداً من الخروج. وكان رأس

بوليكاي في أثناء نومه يصطدم بحافة العربة طوال الطريق. فلما صار قريباً من المنزل استيقظ من سباته، فكانت أول حركة قام بها هي أنه أمسك طاقيته، فلاحظ أنها غاطسة في رأسه غطساً متيناً محكماً، فلم يخلعها، مقتنعاً بأن المال موجود فيها. واستحث الحصان، ورتّب العلف وعاد بصطنع هيئة الوقار والأبهة، واتجه نحو المنزل وهو يلقي على ما حوله نظرات تفيض رصانة. هذا هو المطبخ، وهذا هو «الجنّاح»، وهذه امرأة النجار تحمل نسيجاً، وهذا مكتب الوكيل، وهذا منزل الأسياد، الذي سيرهن فيه بوليكاي بعد قليل على أنه رجل شريف أمين «يمكن أن يتقوّل عليه الناس بما يشاؤون». وستقول له السيدة «شكراً يا بوليكاي... خذ، هذه ثلاثة روبلات لك...»، وربما خمسة، بل ربما عشرة. وقد تأمر له بشاي، وقد تأمر له بخمرة. وسيحسن إليه شرب الشاي أو الخمرة في هذا الجو البارد. وبالروبلات العشرة ستسلى كثيراً في العيد. سأشتري جزمتين، وسأرُدُّ إلى نيكيتا دبنه، أربعة روبلات ونصفاً، بعد أن طالت لجاجته في المطالبة.

وعلى مسافة مائة خطوة من الدار ضرب بوليكاي الحصان بسوطه مرةً أخرى، وعدل حزامه ويافته، ونزع طاقيته عن رأسه، ومسّد شعره. ومن دون تعجل دسّ يده تحت بطانة الطاقية.

أخذت يده تتحرك في الطاقية بسرعة ما تنفك تشتد. وها هو ذا يدس اليد الأخرى، ويصفّر... ويصفّر! وخرجت إحدى اليدين من شق في الطاقية. فجثا بوليكاي على ركبتيه، وأوقف الحصان، وأخذ يبحث في العربة، وينبش العلف ويفتش بين المشتريات، ويجس جيبه وينظرونه. فلم يعثر على الظرف في أي مكان...

فإذا هو يعول قائلاً وهو يشد شعر رأسه:

- يا إلهي! ما هذا؟ ما عسى يحدث؟

لكنه وقد تذكر فجأة أن أحداً قد يراه، أجبر الحصان على أن يعود أدراجه، وغطس طاقينه في رأسه واندفع بالعربة في الطريق جرياً سريعاً، على دهشة من الحصان واستياء.

لا بد أن «الطبل» قال لنفسه: «انني أكره أن أسافر مع بوليكاوي. مرةً في حياته أطعمني وسقاني، ثم اذا هو يغدر بي ويذيقني سوء العذاب. لقد جريت الى الدار باقصى سرعة أطيقها، فأخذ مني الإعياء كل مأخذ، ثم لم أكد أشم رائحة العلف حتى قفل بي راجعاً».

وكان بوليكاوي يصرخ قائلاً من خلال الدموع، واقفاً في العربة، شاداً شكيمة الحصان، هاوياً عليه بضربات من سوطه:

- يا الحصان النحس!

- 10 -

لم ير أحد بوليكاى طوال ذلك النهار. لقد سألت عنه السيدة عدة مرات بعد الغداء، وهرعت أكسيوتكا الى آكولينا مستطلعة أنباءه. ولكن آكولينا كانت تقول إنه لم يرجع، فلا بد أن يكون التاجر قد احتجزه، أو أن يكون قد وقع للحصان حادث، «فلعل الحصان قد أخذ يعرج فجأة. فقد حدث هذا في المرة الأخيرة، فغاب مكسيم نهراً بكامله، وقطع الطريق كله سيراً على قدميه». فكانت أكسيوتكا تقفل راجعة الى البيت مؤرجحة ذراعيها. كانت آكولينا تخلق لنفسها أسباباً تفسر تأخر زوجها، وتحاول أن تظمن نفسها مرة بعد مرة، فلا تفلح. كان قلبها حزيناً. ولم يستطع أي استعداد من استعدادات الاحتفال بالعيد في الغد أن يرسم على شفيتها ابتسامة. وكان يزيد عذابها أن امرأة النجار كانت تؤكد حازمة أنها رأت بعينها «رجلاً يشبه إيلتش كل الشبه وصل من الشارع الكبير، ثم أدار الزمام وقفل راجعاً».

وكان الأولاد لا يقلقون عن أمهم نقاد صبر على تأخر أبيهم، ولكن

لسبب آخر هو أن آنيوتكا وماشكا قد حُرمتا من الفروة والمعطف اللذين كانا يتيحان لهما أن تخرجا الى الشارع، واحدة بعد أخرى على الأقل، فكانتا بسبب تأخر الأب مضطرتين الى البقاء في البيت لا يكسوهما إلا قميص، وكانتا مضطرتين الى الدوران في البيت بسرعة مضاعفة تزج سكان الجناح الذين كانوا في دخول وخروج متصلين. وقد وقعت ماشكا ذات مرة على ساقبي امرأة النجار التي كانت تحمل ماءً، ورغم أنها بادرت الى البكاء والعيول سلفاً وهي تجثو على ركبتيها، فإن امرأة النجار كالت لها صفعَةً قوية، فأخذت تبكي بكاء أقوى وتعمل إغوالاً أشد. وكانت ماشكا، إذا هي لم تصطدم بأحد، تعنلي سطح المدفأة مرتقيةً على السطل.

الحق أن السيدة وأكولينا كانتا الشخصين الوحيدين اللذين يشعران بقلق كبير على بوليكاى نفسه، أما الأولاد فكان لا يهتمهم من أمره الا ما كان يرتديه من ألبسة هم اليها في حاجة. وفي اللقاء الذي تم بين إيجور ميخائيلوفتش، سألته السيدة ألم يرجع بوليكاى، وأين عساه يكون، ابتسم وقال: «لا أستطيع أن أعرف»، ولكن كان واضحاً أنه سعيد بأن ما وقع قد جاء مصداقاً لافتراضاته. وقال أخيراً في وقار: «لعله يأتي حين يحل موعد العشاء».

لم يعرف أحد من أهل بوكروفسكوي شيئاً عن بوليكاى طوال النهار. وبعد ذلك فقط إنما علم الناس أن فلاحين من القرى المجاورة رأوه يجري بالعربة على الطريق خيباً بغير طاقة، ويسأل جميع المارة «هل وقع بصر أحد منهم على الرسالة؟». وقال فلاح آخر إنه أبصره في العربة غافياً عند حافة الطريق بقرب الحصان الذي كان مقروناً

الى العربية، وأضاف قوله: «لقد ظننت أنه كان ثملاً، وأن الحصان لم يأكل ولم يشرب منذ يومين، من فرط ما كنت أرى من هزاله وبروز أضلاعه!».

لم تنم آكولينا طوال الليل، وكانت لا تتي تسمع وتنصت. ولكن مضى الليل كله ولم يرجع بوليكاى. ولو كانت وحيدة في الغرفة أو كان لها طباخة وخادمة، لكانت من ذلك أشقى وأشد عذاباً. ولكن ما إن صاح الديك صبحته الثالثة، فنهضت امرأة النجار، حتى اضطرت آكولينا إلى اخراج الخبز قبل طلوع النهار، ولا بد لها من تحضير الخميرة، وإعداد قرص الحلوى، وحلب البقرة، وكبي القمصان، وإيقاظ الأولاد، وحمل الماء، ويجب أن لا تسمح لجارة من الجارات بشعل الموقد كله.

فأخذت آكولينا تعمل من دون أن تكف عن التسمع والتنصت. وطلع النهار، وأخذت أجراس الكنائس تدق، ونهض الأولاد، ولكن بوليكاى لمّا يصل بعد. ولقد كان بالأمس صقيع وجليد، وكان الثلج يغطي الحقول والطريق والأسطح على تفاوت، أما اليوم فكأنما نعمدت الطبيعة، احتفالاً بالعيد، أن يكون النهار جميلاً مشمساً بارداً، فيستطيع المرء أن يرى وأن يسمع من بعيد. ولكن آكولينا التي كانت قريبة من المدفأة، داسة رأسها في التنور، قد بلغت من الانهماك في إعداد قرص الحلوى أنها لم تسمع دخول بوليكاى، ولم تعرف أن زوجها قد عاد إلا من سماعها صراخ الأولاد.

كانت أنيوتكا، وهي الكبرى، تدهن رأسها وترتدي ثيابها وحدها. إنها تملك اليوم فستاناً جديداً من قطن وردي اللون، مهترئاً قليلاً، قد

أهدته إليها السيدة، فهو يثير غيرة الجيران وحسد هم. إن شعرها أملس. وقد أذابت حتى الآن نصف قطعة الشمعة. وحذاءها غير جديرين، لكنهما رقيقان ناعمان.

أما ماشكا فكانت لا تزال لابسة قميص النوم، وهي متسخة، لذلك كانت ماشكا لا تسمح لها أن تدنو منها كثيراً مخافة أن توسخها. ولقد كانت ماشكا في فناء الدار حين وصل الأب حاملاً صرة. فصاحت تقول: «حضل بابا» (حضر بابا)، واندفعت تفتح الباب وتقف أمام أنيونكا فتوسخها. غضبت أنيونكا وأخذت تضرب ماشكا. ولكن آكولينا كانت لا تستطيع أن تترك عملها. فكانت تكتفي بأن تصيح بالأولاد قائلة: «كفى، سوف أجلدكم جميعاً»، وتنظر إلى الباب. دخل إيلتش في الدهليز حاملاً صرته، ومضى إلى ركنه قُدماً لا يلوي على شيء. ولاحظت آكولينا أنه صاحب اللون، وأن وجهه يشبه أن يدل على أنه بكى، أو على أنه يتسم. ولكن وقتها لم يتسع للانتباه إلى هذا كله. سألتها وهي لا تزال بقرب الموقد:

- ماذا يا إيلتش؟ هل جرى كل شيء على خير حال؟

فدمدم إيلتش بكلام لم تفهمه. فصاحت تسأله:

- هيه؟ هل ذهبت إلى السيدة؟

كان إيلتش قد جلس على السرير، وأخذ يجيل على ما حوله نظرة زائغة ويتسم ابتسامته تلك التي تنم عن الذنب وقد ظهر في وجهه كرب شديد وشقاء عميق. فسألتها آكولينا مرة أخرى:

- ماذا يا إيلتش؟ لماذا غبت هذه المدة الطويلة كلها.

قال إيلتش فجأة:

سَلَّمَت المال الى السيدة يا آكولينا، فشكرتني شكراً عظيماً.
وظل ينظر إلى ما حوله بمزيد من القلق وهو يتنسم تلك الابتسامة
نفسها، وكان شيثان يجتذبان عينيه القلقتين اللتين اتسعتا من الحمى:
الحبل المشدود الى مهد الطفل، والطفل نفسه.
وها هو ذا يقترب من المهد، ويأخذ يحلُّ الحبل بأصابعه الهزيلة
مسرّعاً، ثم تتلبث عيناه على الطفل. وإنه كذلك اذا بزوجه آكولينا
تدخل الركن حاملة قرص الحلوى على دف، فيسارع الى إخفاء الحبل
في جيبه ويعود يجلس على السرير.

قالت آكولينا:

- ماذا يا إيلتش؟ ان وجهك أشبه بوجه مريض!

فأجاب قائلاً:

- لم أُنم!

وفي تلك اللحظة مرَّ شيء أمام النافذة على حين فجأة، ثم إذا
بخادمة السيدة، أكسيوتكا، تدهم الغرفة مسرعة كالسهم وتقول:
- السيدة تأمر بوليكاى إيلتش أن يجيء إليها حالاً. أفدوتيانيكولايفنا
أمرت بمجيئه حالاً.

نظر بوليكاى الى آكولينا، ثم نظر الى الصبية، ثم قال بلهجة تبلغ من
البساطة أن آكولينا اطمأنت كل الاطمئنان:

- سأجىء حالاً. ماذا أيضاً

وحدثت آكولينا نفسها بقولها: «لعلها تريد أن تكافئه».

وعاد بوليكاى يقول للخادمة:

- قولي للسيدة إنى آت إليها حالاً.

ثم نهض وخرج، فتناولت آكولينا طشتاً كان موضوعاً على دكة، فسكبت فيه ماءً من دلو، وأضافت ماءً ساخناً من قدر كان على الموقد وشمرت كمّيتها، واختبرت حرارة الماء بيديها ثم قالت تنادي ماشكا:
- تعالي يا ماشكا! سوف أغسلك.

فأخذت البنت الثأنة الصخابة تصرخ، فقالت لها أمها:
- تعالي يا زعّاقة! سوف ألبسك قميصاً نظيفاً! تعالي! كفى مشاكل!
تعالي! يجب عليّ أن أغسل أختك أيضاً.

في أثناء ذلك الوقت، كان بوليكاوي لا يسير وراء الخادمة ليذهب الى السيدة، وإنما كان يتجه الى مكان آخر يختلف عن مكان السيدة كل الاختلاف.

إن في الدهليز بقرب الجدار سلماً قائماً يفضي الى السقيفة، فلما وصل بوليكاوي الى الدهليز نظر في ما حوله، حتى إذا لم يبصر أحداً، جعل يتسلق السلم منحنيّاً خفيفاً رشيقاً سريعاً كأنه يركض ركضاً.
قالت السيدة لنفسها قلقة: «ما معنى هذا؟ لماذا لا يجيء؟».

ثم سألت دونياشا التي كانت تلبسها قبعتها:

- أين بوليكاوي؟ ما باله لا يأتي؟

وهرعت أكسيوتكا الى جناح الخدم مرة أخرى، ودهمت الدهليز كالصاعقة من جديد، وطلبت أن يجيء إيلتش الى السيدة فوراً.
أجابت آكولينا:

- لكنه ذهب منذ مدة طويلة!

كانت آكولينا قد فرغت من غسل ماشكا، وأغطست في الطشت رضيعها تغسل شعراته القليلة الصغيرة رغم صراخه. كان الطفل يصرخ،

ويجعد وجهه، ويحاول أن يمسك شيئاً ما بيديه الضعيفتين الصغيرتين. فكانت آكولينا تسند بإحدى يديها حقويه الصغيرتين الربيلين المليئين بالغمازات، وتغسله باليد الأخرى، فأضافت تقول للمخادمة وهي تنظر في ما حولها قلقة:

- روجي انظري فلعله غفا في مكان ما؟

في تلك اللحظة كانت امرأة النجار التي لم تسرح شعرها بعد، والتي كان صدارها مفتوحاً وكانت شامرة تنورتها، تصعد الى السقيفة لتأخذ منها ثوبها الذي نشرته هنالك ليجف. فإذا بصرخة ذعر رهيب تنطلق على حين فجأة بالسقيفة، وإذا امرأة النجار تتدحرج على درجات السلم متقهقرة الى وراء كالمجنونة مغمضة العينين، وتصبح حين وصلت الى الارض:

- إيليتش !

فتركت آكولينا الطفل.

وزعقت امرأة النجار تقول: «شئق نفسه».

هرعت آكولينا الى الدهليز من دون أن تلاحظ أن الطفل كان يغوص في الماء كما تغوص كبة غزل منكس الرأس. قالت امرأة النجار حين أبصرت آكولينا.

- شئق نفسه على العارضة.

فاندفعت آكولينا تصعد السلم. وقبل أن يستطيع أحد أن يسندها تدحرجت وهي تطلق صرخة رهيبة وقد أصبحت أشبه بجثة هامدة، فلولا أن عدداً من الناس هرعوا من كل جهة فاستطاعوا أن يتلقوها لكان يمكن أن تموت.

كان يستحيل على المرء خلال بضع دقائق أن يميّز شيئاً في هذه البلبلة الشاملة التي عمّت كل شيء. لقد تجمهر الناس فكلهم يتكلمون ويصرخون في آن واحد. والأطفال والعجائز يكون. وأكولينا مغشيّ عليها. وأخيراً صعد عدد من الرجال بينهم النجار والوكيل اللذان هرعا بين من هرعوا، فصعدا الى السقيفة. وكانت امرأة النجار تقص للمرة العشرين كيف أنها «من دون أن تفكر في شيء» قد صعدت الى السقيفة لتأني بثوبها فنظرت عرضاً فإذا هي ترى رجلاً: «نظرتُ الى رأسه فاذا الطاقية منقلبة على الأرض ورائه ونظرت الى قدميه فرأيتهما تتأرجحان! اسرّت قشعريرة في جسمي. أهذا ممكن؟ رجل شئق نفسه، فهل يجب أن أرى أنا هذا؟ وحين نزلت الى تحت كنت لا أكاد أذكر نفسي. انها لمعجزة من الله أنه نجاني. حقاً إن الله حماني! ما كان أعلى السقيفة! كان يمكن أن أموت فوراً».

وكان الرجال الذي يصعدون الى السقيفة يحكون هذا الشيء نفسه.

كان إيلتش لا يكسوه الا قميص ولباس، وكان مشنوقاً على عارضة
بالجبل الذي حله عن المهد. كانت طاقته قد سقطت على الارض.
وكان قد خلع المعطف والفرو ووطاها ووضعهما في جانب.
وكانت ساقاه المتدليتان تلمسان الأرض لمساً خفيفاً. وكانت هيئته
كلها تدل على أنه فارق الحياة. وأفاقت آكولينا من غيبوبتها، فأرادت أن
تصعد السلم مرة أخرى ولكن حيل بينها وبين ذلك. وفجأة قالت البنت
الثائئة من أقصى الركن صارخة:

- أمي! غرق سيومكا!

فاندفعت آكولينا الى الركن. كان الطفل راقداً على ظهره في قاع
الطشت جامداً ساكن الساقين. فأسرعت آكولينا ترفعه ولكن الطفل
كان قد انقطع تنفسه، وكان هامداً لا حراك فيه، فرمته آكولينا على
الفراش، وأسندت يديها على حافة السرير، وانفجرت تضحك ضحكاً
بلغ من القوة ومن شدة ما يثيره من الذعر أن ماشكا التي أخذت في أول
الامر تضحك قد أسرعت تسد أذنيها آخر الأمر، وهربت الى الدهليز
باكية. وكان يدخل الى الركن أناس كثيرون، فهذا يصرخ وذاك يبكي.
وبادر بعضهم الى الطفل فأخرجوه من المكان وأخذوا يدلكونه عسى
أن يتحرك، ولكن المحاولة لم تجد نفعاً وكانت آكولينا قد تمددت على
السرير وطفقت تهقه فهقهات لا يسمعا أحد إلا ويشعر بارتياح شديد.
الآن فقط، وأنتم ترون هذا الجمهور الخليط الذي تجمهر في الدهليز
رجالاً ونساءً وشيوخاً وأطفالاً، يستطيعون أن تصوروا كتلة البشر التي
كانت تعيش في ذلك الجناح المقام في فناء الدار، وتستطيعون أن
تصوروا نوع الحياة التي كانوا يعيشونها هناك.

كان الجميع يضطربون ويتحركون ويتكلمون ويبكون ولا يعقل أحد منهم شيئاً. وكانت امرأة النجار لا تعدم في أي لحظة من اللحظات أن تقع على أحدٍ لم يسمع قصتها فتجعل تقص عليه من جديد كيف ارتاعت أشد الارتياح من ذلك المشهد الذي لم يدر في خلدها أن ترى مثله، وكيف أن الله قد حماها من السقوط على السلم. وكان الخادم العجوز الذي يلبس قميص امرأة يروي كيف أن امرأته قد غرقت في الغدير في عهد المرحوم، السيد الراحل. وكان الوكيل يرسل في طلب رجال الشرطة والكاهن، ويعهد إلى امرأة من النساء بأن تتولى الحراسة وكانت الخادمة الصبية أكسيونكا تنظر طوال الوقت إلى فجوة السقيفة محمقة حمالة شديدة لا تملك أن تحول بصرها عنها فتصرف إلى مولاتها رغم أنها لا تستطيع أن تبصر شيئاً. وكانت أغافيا مخائيلوفنا وهي خادمة السيدة في الماضي، تطلب شيئاً لتهدئ أعصابها، وتبكي منتحبة ناشجة. وكانت العجوز أنا توسد الصبي الميت على المائدة الصغيرة بيديها الخبيرتين البدينتين وقد بللتها بزيت الزيتون.

وكانت نساء تتجمهر حول آكولينا وتنظر إليها صامتة. وكان الأولاد ينظرون إلى أمهم وقد تجمّعوا متلاصقين في الركن. لقد صرخوا كثيراً في أول الأمر، ثم صمتوا وانزروا في الركن متراصين. وكان صبية وفلاحون يتزاحمون ويتصادمون بقرب درج المدخل، وينظرون من خلال الباب والنافذة وقد ظهر في وجوههم الرعب، فهم لا يرون شيئاً ولا يفهمون شيئاً ويتساءلون ماذا حدث. فواحد يقول إن النجار قد قطع ساق امرأته بضربة بلطة، ويقول آخر بل إن الغسالة قد ولدت ثلاثة أولاد، ويقول ثالث إن قطة الطباخ قد أصابها سعار فأخذت تعض

الناس. ولكن الحقيقة لم تلبث أن انتشرت شيئاً فشيئاً حتى وصلت الى مسمع السيدة. بل إن أحداً لم يهين السيدة لسماع الخبر، وانما ذهب اليها إيجور الفظ، فقصَّ عليها القصة كلها بوضوح اضطربت أعصاب السيدة اضطراباً بلغ من الشدة أنها لم تتخفف منه إلا بعد مدة طويلة. وأخذ الجمهور يهدأ.

وكانت امرأة النجار قد أشعلت السماور، فأخذت تقدم الشاي للناس. فأدرك الغرباء الذين لم يُقدِّم اليهم شيء من الشاي أن ليس يليق بهم أن يمكثوا مدة أطول، فأخذوا ينصرفون، وأخذ الصبية عند درجات الباب يشتجرون ويقتلون.

ان جميع الناس يعلمون الآن ما وقع، وفيما هم يرسمون اشارة الصليب وينفركون اذا بصوت يصيح على حين فجأة: «السيدة! السيدة!». فعادوا أدراجهم واصطفوا صامتين ليفسحوا لها طريقاً. ولكنهم كانوا يريدون أيضاً أن يروا ما عسى تفعل. دخلت السيدة الى الدهليز شاحبة اللون دامعة العينين حتى بلغت «ركن» آكولينا. فتزاحمت عشرات الرؤوس تنظر من الباب. وكان بين الحشد امرأة حبلى، فبلغت من شدة الضيق بضغط الناس عليها أنها صرخت صراخاً حاداً، ولكنها سرعان ما استغلت هذه الفرصة فاحتلت مكاناً في الصف الاول. كيف لا ينظرون الى «السيدة» في «ركن» آكولينا! ان هذا المشهد هو في نظر الخدم جميعاً أشبه بمشهد اطلاق الاسهم النارية في ختام الاحتفال. ما أحلى منظر الاسهم النارية حين تنطلق مشتعلة متألقة! وفي تلك اللحظة من الاحتفال انما تطلع السيدة عليهم في العادة لابسة ثوبها الحريري المزدان بالتخاريم. وبهذا الثوب انما تدخل السيدة الآن على آكولينا.

دنت السيدة من أكلينا، وتناولت يدها، فانتزعت أكلينا يدها من يد السيدة فجأة في غلظة وخشونة.
قالت السيدة:

- أكلينا، إن لك أولاداً، فارحمهم!
فانفجرت أكلينا تفهقه، ثم قامت وأخذت تدمدم قائلة بكلام سريع:

- أولادي فضة خالصة، فضة خالصة.. ليس عندي أوراق. طالما قلت لا يلتش: لا تأخذ أوراقاً! وها هم أولاء قد طلوه، طلوه بقطران. وبالقطران والصابون يذهب القمل كله يا سيدتي مهما يكن كثيراً.
وانفجرت تفهقه من جديد.

أشاحت السيدة وجهها، وطلبت أن يجيء الممرض وطلبت خردلاً، وقالت: «هاتوا ماءً بارداً»، بل ذهبت تجيء هي نفسها بماء بارد.
ولكن السيدة حوّلت بصرها حين رأت جثة الطفل الذي كانت العجوز آنا واقفة أمامه، فرآها الجميع تغطي وجهها بمنديلها وتبكي. وأسرعت العجوز آنا تستر الطفل بقطعة من قماش (من سوء الحظ أن السيدة لم ترها، ولو رأتها لقدرت ذلك فيها قدراً كبيراً، ولهذا الغرض إنما فعلت العجوز ما فعلته على كل حال). وبيدها الغليظة الماهرة رتبت يديه الصغيرتين. وهزت رأسها، وعضّت على شفثيها، وأرعشت عينيها، وتنهدت تنهداً شديداً، بحيث لا يكون في وسع أحد إلا أن يلحظ طيب قلبها ونبل نفسها. ولكن السيدة لم تر ذلك ولا كان يمكنها أن ترى شيئاً. لقد كانت تبكي ناشجة متحبة في نوبة عصبية ألمت بها فملكّت عليها كل شيء. فهبّ نفر من الحضور يخرجونها مسندين

ذراعيها، وأوصلوها الى منزلها. وقال كثيرون محدثين أنفسهم: «إنها لم تجئ إلا لهذا. وانفضوا منصرفين الى بيوتهم.»

كانت آكولينا لا تزال تفرق في الضحك مزيداً من الاغراق، وتسترسل في الهذيان مزيداً من الاسترسال. واقتيدت الى حجرة أخرى، فأجري لها فصد، ووضعت لها لزقات خردل، وغطى رأسها بثلج. ولكنها ظلت لا تفهم شيئاً، ولا تبكي، وانما هي تضحك وتضحك، وتقول أشياء غريبة وتفعل أموراً عجيبة فلا يملك الناس الطيبون الذين يعالجونها إلا أن يضحكوا.

لم يكن العيد مرحاً في فناء بوكروفسكويّا. فلم يخرج الناس للتسلية رغم أن النهار كان رائع الجمال، لا البنات اجتمعن ليصدقن بأغانيهن، ولا الشباب والعمال الذين أتوا من المدينة عزفوا على الأكورديون أو البالالايكّا، ولا لهوا مع الصبايا. كان الجميع جالسين في أركانهم، فإذا تحدثوا كان صوتهم في الحديث خافتاً، فكان روحاً شريرة خبيثة تهوّم بينهم ويمكن أن تسمع ما يقولون. وكان الامر في النهار هيناً على كل حال. حتى اذا جاء المساء، وخيم الظلام، أخذت الكلاب تنبح، وهبت ريح شديدة تزمجر في المداخل كأنما عن عمد وقصد. فبلغ سكان الفناء من الرعب والهلع أن جميع الذين عندهم شموع قد أشعلوها أمام الأيقونات، ومن كان في ركنه وحيداً مضى يلتمس قضاء الليلة عند جار من الجيران استئناساً بالناس، ومن كان في حاجة للذهاب إلى الاسطبل لم يذهب، مؤثراً أن تبيت الدواب على الطوى ذلك اليوم. والماء المبارك الذي كان يحتفظ به كل واحد في قارورة، شرب كله في تلك الليلة.

حتى إن كثيرين قد سمعوا وقع خطى تدب في السقيفة دباباً ثقيلاً. ورأى الحداد تينياً يطير إليها رأساً. ولم يكن في ركن بوليكاى أحد من أسرته، فقد نُقل أولاد المجنونة الى مكان آخر، ولم يبق في الركن إلا الطفل الميت وامرأتان عجوزان ومتسولة طففت ترتل المزامير بهمة ونشاط، لا ترحماً على روح الطفل الميت، بل اهتماماً بقضية هذه المصائب كلها. فتلک كانت رغبة السيدة. وقد سمعت المتسولة والمرأتان العجوزان، بعد قراءة جزء من أجزاء المزامير العشرين، سمعت الوند في أعلى يهتز، وسمعت صوتاً يئن. حتى اذا قرأت: «سيقوم الرب»، عاد الهدوء يخيم على المكان. وأرسلت امرأة النجار تستدعي قريبة لها تقضي الليلة معها، فظلت المرأتان ساهرتين تحسوان الشاي قدحاً بعد قدح، فلا شك أنهما شربتا من الشاي في تلك الليلة ما اشترته امرأة النجار لاستهلاك الاسبوع كله. إنها هي أيضاً قد سمعت الوند يقطع في أعلى ويهتز، حتى لكان الصوت صوت أكياس تتهاوى وتتساقط. وكان الفلاحون الحرس يشنون الشجاعة في نفوس الخدم. فلو لا ذلك لمات الجميع في تلك الليلة فزعاً وجزعاً.

كان الفلاحون راقدین في الدهليز فوق العلف. وقد أكدوا بعد ذلك أنهم سمعوا هم أيضاً أصوات معجزات تجري في السقيفة. والحق أنهم قضوا الليلة هادئين كل الهدوء يتحدثون عن التجنيد، ويأكلون خبزاً، ويحكون جلودهم، ويملاون الدهليز برائحهم خاصة، حتى ان امرأة النجار قد بصقت حين مرت بهم، وقالت تزدریهم: «فلاحون!». ومهما يكن من أمر فقد ظل المشنوق في السقيفة، وكانت الروح الشريرة الخبيثة في تلك الليلة كأنها تمدُّ جناحها الضخم الهائل على

مسكن الخدم فتحيط به احاطة تامة، وتبدي قوتها وسلطانها بالاقتراب من هؤلاء الناس اقتراباً لم تبلغه في أي وقت مضى.

أو قل إن هذا ما أحس به الجميع. ولا أدري أكان هذا الاحساس صادقاً أم لا. بل يغلب على ظني أنه لم يكن صادقاً، وأقْدَر أنه لو قام في تلك الليلة رجل جسور فحمل شمعة أو مصباحاً وصعد الى السقيفة بعد أن يرسم اشارة الصليب أو حتى من دون أن يرسمها، وأزاح بنور الشمعة أو المصباح ستار الظلمة وبدد هولها على مهل، وأضاء الوند والارض والجدار الذي تغشاه خيوط العنكبوت والثياب التي نسبتهامرأة النجار، وتقدم من إيلتش غير مستسلم للخوف، فرفع المصباح الى مستوى وجهه، لرأى الجسم المعروف الهزيل وقد لامست قدماه الارض لارتخاء الجبل، فمال الى جانب وقد فارقه الحياة، ولرأى ياقة القميص وقد انحلت ازرازه فكشفت عن صدر أصبح لا يرى عليه صليب، ولأبصر الرأس ملتوياً على الصدر، ولظهر له الوجه الذي لا تزال عيناه مفتوحتين لكنهما لا تبصران، ولتبدت له الابتسامة الرقيقة العذبة المذنبية، ولأحس الهدوء القاسي والصمت المطلق. حقاً إن امرأة النجار التي اندست تحت غطائها مشعثة الشعر مروعة العينين، وراحت تقص أنها سمعت تساقط أكياس كان منظرها أشد هولاً وادعى الى الرعب من منظر إيلتش رغم أن صليبه المتزعزع من صدره قد وُضع على الوند.

و«فوق»، أي في منزل «السيدة»، كان يخيم هذا الهول نفسه الذي يخيم في مسكن الخدم. كانت غرفة السيدة تفوح فيها رائحة ماء الكولونيا والأدهان. كانت دونياشا تذيب شمعا لتصنع منه مرهماً.

لا أدري ما الحاجة الى مرهم الشمع هذا. لكنني أعلم أنه يُصنع كلما مرضت السيدة.

وهي الآن مضطربة اضطراباً يبلغ حدَّ المرض.

وكانت عمة دونياشا قد جاءت تقضي الليلة معها لتشد أزرها وتقوي عزيمتها. فكانت النسوة الأربع جالسات جميعاً في غرفة الخادومات مع البنية يتحدثن بصوت خافت.

قالت دونياشا تسأل:

- من يمضي يأتينا بزيت؟

فأجابت الخادمة الثانية، آفدوتيا نيقولا فئا، تقول بلهجة قاطعة:

- لا أمضي مهما يكن من أمر، لا أمضي بحال من الأحوال.

- ما هذا الذي تقولين؟ اصطحبي أكسيوتكا.

فقالت أكسيوتكا:

- بل أذهب وحدي، فلست خائفة من شيء.

ولكنها أخذت تخاف. قالت دونياشا:

- فاذهبي إذاً، يا أعقلهن جميعاً. اطلبي من العجوز أنا كأساً من

زيت، حاذري وأنت تحملينه أن يندلق.

فرفعت أكسيوتكا تنورها باحدى يديها، واذا أصبحت بذلك لا

تستطيع أن تحرك يديها كليهما معاً، فقد أخذت يدها الثانية تنوس على

جسمها بقوة مضاعفة، وأسرعت تركض. كانت خائفة خوفاً شديداً،

وكانت تحس أنها لو أبصرت أي شيء أو سمعت أي شيء، ولو كان

هذا الشيء أمها بلحمها وعظمها، لماتت في مكانها فوراً من شدة

الخوف. فكانت تركض في الطريق الذي تعرفه مغمضة عينيها.

وفجأة سأل فلاح بصوت خافت قرب أكسيوتكا:

- هل «السيدة» نائمة أم هي يقظى؟

فتحت أكسيوتكا عينيها فأبصرت رجلاً بدا لها أكبر من مبنى الخدم كله، فصرخت، ونكصت على عقبيها تركض راجعةً بسرعة بلغت من الشدة أن تنورتها كانت تطير وراءها. فما هي إلا وثبة حتى صارت على درج الباب، ثم أسرعَت تلج غرفة الخادِمات وهي تصرخ صرخةً وحشية، وارتمت على السرير.

شعرت دونياشا وعمتها والمرأة الأخرى بذعر رهيب. وما كدن يشبن الى بعض رشدهن حتى سمعن وقع خطى ثقيلة تدب في الدهليز وتقترب من الباب. فهرعت دونياشا الى «السيدة» وقد اسقطت من يدها مرهم الشمع. واختبأت المرأة الأخرى في ثنايا أثواب معلقة بالحائط. وأرادت العمة، وهي أشجعهن، أن تقوم الى الباب فتسده، ولكن الباب فُتح ودخل الفلاح الغرفة. إنه دولتوف بنعليه الضخمين. وقد أخذ

يجيل بصره في الغرفة باحثاً عن الأيقونات من دون أن يلقي بالاً الى
فزع النسوة، فلما لم تقع عيناه على الصورة الصغيرة المعلقة في الركن
الأيسر، رسم إشارة الصليب متجهاً الى خزانة من زجاج فيها فناجين،
ووضع قبعته على حافة النافذة، ثم أغطس يده في فروته القصيرة كأنما
هو يريد أن يحكّ ابطله، فاستلّ منها ظرفاً عليه أربعة أختام تمثل مرساة.
كانت عمة دونياشا واضعةً يدها على صدرها من شدة الفزع.
واستطاعت أخيراً أن تنطق فغمغمت تقول:

- آ... هذا أنت؟ لقد أخفتني يا ناء ومنتش، فلا أستطيع أن أقول
كلمة. ظننت أن أجلي قد حان.

وقالت الخادمة الثانية وقد خرجت من بين ثنایا الاثواب:

- هل يفعل أحدا ما فعلت؟

وقالت دونياشا وهي تظهر في الباب عائدة:

- لقد بثت الاضطراب حتى في نفس «السيدة». كيف نجيء الى
غرفة الخادومات من دون إبلاغ. ألا إنك لفلاح حقاً!
لم يخطر ببال دولتوف أن يعتذر، وكرر يقول إن عليه أن يرى
«السيدة». فقالت له دونياشا:

- إنها مريضة.

وفي تلك اللحظة انفجرت أكسيوتكا تضحك ضحكاً يبلغ من
الجلجلة ويبلغ من مفاجأة اللباقة أنها اضطرت الى دسّ رأسها بين
الاثواب من جديد، ثم أصبحت رغم تهديدات دونياشا والعمة لا
تستطيع أن تخرج من بين الاثواب إلا وتنفجر ضاحكة ضحكاً مكتوماً
حتى لكان شيئاً كان يتمزق في صدرها المورد وخديها الحمرانين.

لقد بدا لها أن من المضحك جداً أن الذعر قد اعتراهن جميعاً، فأخفت رأسها، وأخذت تفرع الأرض بقدميها وأخذ جسمها كله ينتفض في ما يشبه التشنج.

توقف دولتوف ونظر إليها متفرساً، كأنه يريد أن يدرك ما ألمَّ بها، فلما لم يستطع أن يفهم شيئاً، أشاح عنها، وتابع كلامه، فقال:
- الأمر مهم جداً. أبلغن «السيدة» أن الفلاح قد وجد رسالة فيها مال.

- أي مال؟

قرأت دونياشا العنوان المكتوب على الظرف قبل أن تبلغ مولاتها شيئاً، وسألت دولتوف أين وكيف وجد هذا المال الذي كان على إيلتش أن يجيء به من المدينة. حتى إذا استوعبت جميع التفاصيل، مضت إلى إبلاغ «السيدة» طاردةً البنية التي كانت لا تزال تضحك في الدهليز. فما كان أشدَّ دهشة دولتوف حين رفضت «السيدة» أن تستقبله، حتى إنها لم تزود دونياشا بأي تعليل يسوّغ ذلك الرفض، ولم تزد على أن قالت:
- لا أعرف شيئاً ولا أريد أن أعرف شيئاً. أي فلاح؟ أي مال؟ لا

أستطيع ولا أحب أن أرى أحداً. فليتركوني في سلام!

قال دولتوف وهو يقلّب الظرف ظهراً وبطناً:

«فلماذا أفعل إذا؟ ما هو المبلغ الذي يُستهان به!»

وقرأت دونياشا العنوان مرةً أخرى فسألها دولتوف:

- ما المكتوب على الظرف؟

كان دولتوف غير مُصدّق. كان يأمل أن لا يكون هذا المال مال «السيدة»، وأن يكون العنوان قد قُرئ له خطأ. ولكن دونياشا أكدت له

صحة قراءة العنوان. فتنهد دولتوف، ووضع الظرف في جيب فروته، وتأهب للخروج. وقال:

- يجب عليّ أن أسلمه الى الشرطة طبعاً.

فقال دونياشا وهي تستوقفه بعد أن تابعت يبصرها اختفاء الظرف في فروة الفلاح:

- انتظر. سأحاول مرةً أخرى. هات الرسالة.

فأخرج دولتوف الظرف مرةً أخرى، ولكنه لم يضعه فوراً في يد دونياشا، الممدودة اليه.

- قل لي إن دولتوف هو الذي وجده في الطريق.

- نعم. هات.

- ظننتها رسالة عادية، ولكن جندياً قال لي إن فيها مالاً.

- ولكن هات ! هات !

عاد دولتوف يتكلم فقال من دون أن يتخلى عن الظرف الثمين الذي يمسكه بيده:

- لم أجبرؤ أن أذهب الى البيت حتى... قل لي هذا الكلام للسيدة.

فأخذت دونياشا الظرف، ومضت الى السيدة من جديد.

قالت السيدة بلهجة اللوم:

- آه... يا رب ! دونياشا ! لا تكلميني عن هذا المال ! إنني حين

أتذكر ذلك الطفل...

فقال دونياشا:

- لا يعرف الفلاح يا سيدتي من هو الشخص الذي تأمرين بأن

يسلمه الظرف.

فغضت السيدة، فاذا هي ترنّش حين ترى المال، وإذا هي تطرق
واجمة شاردة الفكر !

- مال منحوس ! ما أكثر المصائب التي كان سبباً لها !
- هو دولتوف يا سيدتي. أأمرين أن أدخله عليك أم تفضّلين أن
تتنازلي فتخرجي له؟ لا أدري هل المبلغ كامل غير منقوص.
قالت السيدة فجأة وهي تبحث عن يد دونياشا:
- لا أريد هذا المال. هو مال مشؤوم. انظري كم جلب من مصائب.
قولي لي أن يحتفظ به لنفسه إذا شاء.
ثم عادت تكرر قائلةً لدونياشا التي اعترتها دهشة شديدة:
- نعم نعم! فليأخذه كله، وليصنع به ما يشاء!
فقالت دونياشا معترضة وهي تبسم ابتسامة رقيقة كأنها تبسم
لطفل:

- ألف وخمسمائة روبل!
فكررت السيدة قولها نافذة الصبر متذمرة:
- فليأخذ المال كله! ماذا؟ ألا تفهمين عني؟ هذا مال مشؤوم
منحوس. لا تكلميني عنه أبداً. فليحتفظ الفلاح لنفسه بما وقع عليه.
اذهبي! اذهبي!

رجعت دونياشا الى حجرة الخاديات.
وسألها دولتوف:
- هل المبلغ كامل لم ينقص منه شيء؟
قالت دونياشا وهي تمدُّ اليه الطرف:
- اعدده أنت. لقد أمرت السيدة بأن أعطيك إياه.

فوضع دولتوف طاقيته تحت ذراعه، ومال على الأوراق يعدّها. ثم
سأل: أليس عندكم عدّادة؟

لقد ظن دولتوف أن السيدة، وهي أغبى من أن تُحسّن العدّ، قد
أمرت بأن يتولاه عنها.

قالت دونياشا حانقة:

- ستعدّ المال في بيتك. قالت السيدة «إنها لا تريد أن تراه» وأمرت
«أن يأخذه من جاء به».

فحدّق دولتوف الى دونياشا من دون أن ينصب جذعه.

وضربت عمة دونياشا كفّاً بكف وهي تقول:

- يا للحظ، أي حظّ هذا!

لم تستطع الخادمة الأخرى أن تصدّق ما تسمعه أذناها.

- ما هذا الذي تقولينه يا آفدوتيا نيقولا فئا! أنت تمزحين؟

- أمزح؟ بل السيدة أمرت أن يأخذ الفلاح المال. مصائب قوم عند

قوم فوائد.

كذلك قالت دونياشا متحسرة غاضبة.

قالت العمة:

- ألف وخمسمائة روبل! كلمة سهلة!

قالت دونياشا:

- بل المبلغ أكبر من ذلك.

والتفتت الى دولتوف فقالت بلهجة ساخرة:

- أوقد شمعة بعشرة كوبكات للقديس نيقولا. ماذا؟ أراك فقدت

صوابك.

ثم أضافت تخاطب غيره:

- ليت هذه النعمة هبطت على فقير، أما هو فإنه يملك مالاً كافياً.
أدرك دولتوف أخيراً أن الأمر ليس مزاحاً. فلمّ المال الذي كان بسطه
على المائدة ليعده، وأخذ يدسه في جيبه. ولكن يديه كانتا ترتعشان وهو
ينظر الى البنات ليقتنع بأن الأمر جد لا هزلاً.

قالت دونياشا لتظهر أنها تحتقر الفلاح والمال كليهما:
- فقد صوابه. ولكنه سعيد بأن يفقده. هات. دعني أرُتب لك
الأوراق.

ومدت ذراعها تحاول أن تساعد، ولكن دولتوف لم يدع لها أن
تفعل، وإنما قبض الأوراق كتلة واحدة، ودسّها في ثيابه دساً أعمق،
وتناول طاقيته لينصرف.

- أمغبت أنت؟

- لا أدري ماذا أقول! لكن...

ولم يكمل جملة، بل ابتسم وأوشك أن يبكي وخرج. ورنّ الجرس
في غرفة السيدة.

- هيه! هل أعطبته المال؟

- نعم.

هل سرّ به؟

- كاد يُجن.

- آ... ناديه. فليجيء إليّ. أريد أن أسأله كيف عثر به، كيف وقع
عليه. ناديه لا أستطيع أن أخرج إليه.

ركضت دونياشا فأدركت الفلاح في الدهليز. كان قد أخرج الكيس

الذي يضع فيه نقوده، وانحنى على الكيس يحل رباطه وهو حاسر الرأس، قابضاً على الأوراق بين أسنانه. لعله كان يتصور أن هذا المال لا يصير ملكاً له الى أن يودعه كيسه. فلما نادته دونياشا خاف وقال:

- ماذا يا آفدوتيا... آفدوتيا يقولاننا؟ هل تريد السيدة أن تسترد المال؟ تشفع لي عندها، فإن تشفعتِ فوالله لأتيناك بعسل.

- صحيح! ما أكثر ما أتيتنا بعسل من قبل!

وفُتح الباب من جديد، وأدخل الفلاح على السيدة. لم يكن متهلل الأسارير. وكان يقول لنفسه: «سوف تسترد المال». وليس يدري إلا الله لماذا رفع ساقه كلها حين دخل الغرفة، كأنما هو يمشي على أرض ذات أعشاب طويلة، وحاول أن لا يكون لوقع نعليه أي صوت. كان لا يفهم شيئاً، ولا يرى شيئاً مما يكتنفه. وحين مرَّ أمام مرآة رأى أزهاراً، وأبصر فلاحاً يرفع قدمين لهما نعلان ضخمان، ولمح صورة تمثل سيداً من السادة، وتخيل له صندوق أخضر، وشيء أبيض... ثم إذا بهذا الشيء الأبيض قد أخذ يتكلم فجأة. إنها «السيدة». كان لا يعي ما يرى حوله. وكان محمق العينين. وكان لا يعرف أين هو، وكان كل شيء يبدو له غارقاً في ضباب.

- أهذا أنت يا دولتوف؟

- أنا يا سيدتي. لم أمسس المال، وبقي كاملاً غير منقوص. شهد الله أن هذا الامر كله قد ضايقني كثيراً. ولشد ما ضربت حصاني بالسوط... قالت السيدة وهي تبسم ابتسامة فيها طيبة وفيها احتقار:

- هو حظك. احتفظ بالمال لنفسك.

حملك دولتوف.

- يسرني أن هذه النعمة هبطت عليك أنت! أسأل الله أن يجيئك
هذا المال بالسعادة! أنت مغتبط؟

- وكيف لا أغتبط؟ أنا مغتبط أشد الاغتباط. سادعو الله لك دائماً.
ما أعظم فرحي بأن الله أبقى لنا سيدتنا!
- كيف وقعت على الظرف؟

- نحن ينبغي لنا أن نلتزم مع سيدتنا قول الصدق كما نفعل دائماً.
قالت دونياشا:

- هوذا يخلط ويخبط في كلامه خبط عشواء يا سيدتي!
واستطرد الفلاح يقول:

- لقد اقتدت الى المدينة مجنّداً هو ابن أخي. فلما كنت في طريق
العودة من المدينة عثرت على... لعله سقط من بوليكاى مصادفة.

- طيب. اذهب يا عزيزي. إنني مبتهجة لك.
قال الفلاح:

- ما أسعدني يا سيدتي.

وتذكر عندئذ أنه لم يشكر لها صنيعها، ولم يقل ما كان ينبغي أن
يقول. وكانت السيدة ودونياشا تبسمان. وخرج هو من الغرفة بخطى
كالتى دخل بها، فهو يرفع ساقيه كأنه يسير على عشب طويل ولا يكاد
يستطيع أن يصد نفسه عن الركض ركضاً. كان يخيل اليه أنه سيستوقف
مرة أخرى ليسترد منه المال.

- 14 -

ما إن خرج دولتوف الى الهواء الطلق، حتى ابتعد عن الطريق ودلف نحو أجمة من أشجار الزيزفون، وهناك نزع عنه حزامه ليسهل عليه استلال كيسه، ثم استلّ الكيس وأودعه ماله. وكانت شفتاه تختلجان وتستطيلان وتعرضان، رغم أنه لا ينبس بحرف. فلما فرغ من إيداع المال في الكيس مرتباً، وأعاد شدّ حزامه الى خصره. رسم اشارة الصليب، وعاد الى الطريق يسير بخطى مترنحة كخطى السكارى، غارقاً في زوبعة من الأفكار تعصف في رأسه. وإنه لكذلك إذا هو يرى فلاحاً مقبلاً عليه يناديه: إنه إيفيم الذي كان يحرس مبنى الخدم وفي يده مراوّة.

قال إيفيم فرحاً وهو يدنو منه (وكان خائفاً من وحدته):

- هيه! العم سيميون! هل أوصلت المجندين يا عم؟

- نعم. ماذا تعمل؟

- وضعت هنا لأحرس إيلتش الذي شق نفسه.

- أين هو؟

- هناك، في السقيفة.

قال إيفيم ذلك وهو يشير بعصاه الى السطح المظلم من مبنى الخدم. فنظر دولتوف الى الجهة التي يشير إليها إيفيم بعصاه، ورغم أنه لم يبصر شيئاً فقد قطب حاجبيه، وطرف بعينه، وهز رأسه.
قال إيفيم:

- جاء مفتش الشرطة. أخبرني الحوذي بذلك. سيخرجونه بعد قليل. آه... الليل رهيب يا عم. لو أمروني بأن أصعد الى هناك في الليل لما رضيت بحال من الأحوال. لن أرقى السقيفة ولو أماتني إيجور ميخائيلوفتش ضرباً.

- يالها من مصيبة! ياله من إثم!

كذلك هتف دولتوف لا لشيء إلا أن يقول شيئاً ما، وكان واضحاً أنه لا يفكر البتة في ما يقول. وهم أن يستأنف سيره لولا أن استوقفه صوت إيجور ميخائيلوفتش الذي صاح من على درج الباب منادياً:

- يا حارس! تعال هنا!

فاستجاب له إيفيم.

- هيه! من ذلك الفلاح الذي يحادثك هناك؟

- دولتوف.

- تعال أنت أيضاً يا سيميون! تعال!

وفي ضوء المصباح الذي كان يحمله الحوذي استطاع دولتوف أن يرى إيجور ميخائيلوفتش وموظفاً قصير القامة يعتمر بكسكيتة ويتدثر بمعطف. انه مفتش الشرطة.

وقال ايجور ميخائيلوفتش حين رأى دولتوف:

- وسيصبحنا هذا الشيخ أيضاً.

كان الشيخ خائفاً، ولكن لا سبيل له الى النكوص.

- وأنت يا ايفيميك الفتي، ثب الى السقيفة التي شئت نفسه فيها،
فرتب السلم ليستطيع سيادته أن يصعد.

فركض ايفيميك لينفذ الأمر، هو الذي كان لا يريد أن يقترب من
مبنى الخدم بحال من الأحوال. وكان لوقع نعليه على الأرض من
الضجة أثناء ركضه ما لا يحدثه إلا جرّ عوارض الخشب.
وضرب الشرطي قداحته وأشعل غليونه.

إنه يقيم على بعد فرسخين، وقد ويّخه رئيسه منذ برهة توييحاً شديداً
بسبب إفراطه في السكر، فهو لذلك يبدي الآن نشاطاً وهمّة وحماسة
للعمل، فما إن وصل في الساعة العاشرة من المساء حتى أراد أن
يفحص جثة المشنوق فوراً.

وسأل ايجور ميخائيلوفتش صاحبنا دولتوف عما جاء به الى هنا
فاستطاع دولتوف أن يروي له أثناء الصعود الى السقيفة حكاية المال
الذي وجده، والقرار الذي اتخذته «السيدة». وأضاف يقول إنه إنما
جاء الى هنا ليستأذن ايجور ميخائيلوفتش في انفاذ أمر «السيدة». فما
كان أشد الرعب الذي استولى على دولتوف حين طلب منه الوكيل أن
يريه الظرف، وأخذ ينعم النظر فيه. وقد عمد الشرطي أيضاً الى تناول
الظرف، وأخذ يسأل عن تفاصيل كثيرة بلهجة جافة وجمل مقتضبة.

قال دولتوف يحدث نفسه: «ذهب المال!». ولكن الشرطي لم يلبث
أن ردّه اليه وهو يقول:

- محظوظ!

فقال إيجور ميخائيلوفتش:

- هبطت عليه النعمة في ابانها. كان عليه أن يجتد ابن أخيه، فصار في وسعه الآن أن يفتيده.

قال مفتش الشرطة وهو يتقدم:

- حسن!

وقال إيجور ميخائيلوفتش يسأل دولتوف:

- ألا تنوي أن تفتدي إيليا؟

- أين لي أن أفتديه؟ هل أملك من المال ما يكفي؟ ثم لعله فات

الأوان!

قال الوكيل:

- افعل ما تشاء!

وسار الاثنان يلحقان برجل الشرطة.

اقتربوا من مبنى الخدم. كان الحراس الذي تفوح منهم رائحة كريهة ينتظرون في الدهليز ومعهم مصباح. انضم دولتوف الى الآخرين. كانت هيئة الحراس تعبّر عن خجل وحياء من الرائحة التي ينشرونها من دون أن يقارفوا عدا ذلك أي ذنب.

صمت الجميع. ثم قال رجل الشرطة سائلاً:

- أين؟

فهمس إيجور ميخائيلوفتش قائلاً:

- هنا.

ثم أضاف يخاطب إيفيم، فقال:

- ايفيميكاً! تقدّمنا حاملاً المصباح.

كان ايفيميكاً قد رتبّ ألواح الخشب أمام السلم فوق، وكان قد زابله كل خوف. وها هو ذا يتقدمهم الآن مرتقياً السلم درجتين درجتين أو ثلاثاً ثلاثاً متهلل الاسارير، ويلتفت الى الوراء من حين الى حين ليضيء طريق رجل الشرطة الذي كان يتبع ايجور ميخائيلوفتش. حتى اذا غابوا عن البصر، توقف دولتوف على الدرجة الاولى التي كان قد وضع قدمه عليها، وتنهّد. وبعد دقيقتين سكن المخطو في السقيفة، فكان واضحاً أن الرجال قد دنوا من الجثة.

صاح ايفيم من الكوة منادياً:

- يا عم، إنهم يستدعونك.

فصعد دولتوف.

كان لا يُرى من رجل الشرطة وايجور ميخائيلوفتش في ضوء المصباح إلا أعلى الجسم. وكان وراءهما شخص آخر يوليها ظهره هو بوليكاى. تخطى دولتوف الورد، وتوقف وهو يرسم اشارة الصليب. قال رجل الشرطة:

- أديروه الى هذه الجهة.

فلم يتحرك أحد.

فقال ايجور ميخائيلوفتش:

- أنت فتى يا ايفيميكاً!

فتخطى الفتى الورد، وأدار ايلتش، ووقف الى جانبه طلق المحيا، ينظر تارة الى ايلتش وتارة الى رجل الشرطة، مثله كمثل الذي يعرض الزنجية البرصاء أو المرأة التي لا رأس لها حين يخرج بهما الى

المشاهدين في المعرض، فهو ينظر تارة الى الجمهور وتارة الى المرأة المعروضة، مستعداً لتلبية رغبات المتفرجين جميعاً في كل لحظة.
- أدركه أيضاً.

وأدير إيلتش مرة أخرى، فكانت ذراعه تنوس نوساً ضعيفاً، وكانت قدماه تنجران على الأرض.
- فكّوه.

فقال ايجور ميخائيلوفتش:

- هل تأمر بقطع الجبل. هاتوا سكيناً يا أولاد! واضطر الفتى أن يصدر أمره هذا الى دولتوف والى الحرس مرتين اثنتين. وكان الفتى يتصرف بإيلتش تصرفه بجسم خروف. وقُطع الجبل أخيراً. وانتزعت الجثة وسترّت بغطاء.
وأعلن رجل الشرطة أن الطبيب سيجيء غداً. وأمر الرجال بالانصراف.

اتجه دولتوف الى مسكنه وهو يحرك شفتيه. وكان في أول الامر خائفاً، ولكن خوفه كان يتبدد على قدر اقترابه من القرية، بل كان الفرح يملأ قلبه شيئاً بعد شيء. وكانت تُسمع في القرية أغنيات وأصوات سكارى. إن دولتوف لم يشرب خمرة في حياته. وهو الآن متجه الى بيته قدماً لا يلوي على شيء. وكان الليل قد تقدم حين وصل دولتوف الى بيته. فابنه الأكبر وأحفاده نائمون على سطح المدفأة، وابنه الثاني نائم في حجرة صغيرة تتخذها الاسرة مستودعاً. ولكن امرأة ايليوشكا وحدها لا تزال يقظى. كانت جالسة على دكة بقميص وسخ هو قميص العمل، وكانت تبكي. لم تقم من مكانها لتفتح الباب للعم. ولكنها ما إن دخل البيت حتى أخذت تعول مزيداً من العويل، وتنتحب انتحاباً قوياً تقول العجوز عنها إنها نذابة مجيدة ممتازة رغم أنها بحكم صغر سنها ليس لها بالندب خبرة واسعة.

نهضت العجوز وأعدت لزوجها الحساء. وقد طرد دولتوف امرأة

ايليوشكا عن المائدة، ونهرها قائلاً لها: «كفى! كفى!». فنهضت أكسينيا واضطجعت على الدكة من دون أن تكف عن العويل. وقد قدّمت العجوز الطعام ثم نظفت المائدة وهي صامتة لا تقول شيئاً. وكذلك دولتوف الشيخ، فانه لم ينبس بكلمة. حتى إذا فرغ من تلاوة دعائه تجشأ وغسل يديه، ثم حمل العذّادة ومضى الى حجرة المستودع. وهناك همس في أذن امرأته ببعض الكلام، فخرجت المرأة، وأخذ اصطكاك كرات العذّادة يُسمع. وأخيراً رفع دولتوف باباً قلاباً ونزل الى القبو. ولبث يتحرك هناك مدة طويلة. حتى إذا خرج من القبو كان الظلام قد أطبق على المسكن، وكان السراج قد انطفأ. وكانت العجوز التي لا تحدث ضجة في أي وقت من الأوقات، ولا تتكلم إلا قليلاً في النهار، راقدة على ألواح الخشب، وكان شخيرها يترجّع في أرجاء المسكن كله. وكانت امرأة ايليوشكا الصخابة نائمة كذلك، ولكنها تنفس تنفساً هادئاً بغير شخير. كانت نائمة على الدكة بغير وسادة، من دون أن تخلع ثياب النهار.

تلا دولتوف دعاء، ثم نظر الى زوجة ايليوشكا، فهزّ رأسه، ثم أطفأ السراج، وتجشأ مرة أخرى، وارتقى سطح المدفأة، فاستلقى الى جانب حفيده. وفي الظلام خلع نعليه الضخمين، وراح ينظر الى ألواح الخشب فوق سطح المدفأة مضطجعاً على ظهره، فكان لا يكاد يبصرها من شدة الظلام، وأنصت الى أصوات حشرات تتحرك في الجدران، وسمع ما يصدر عن الدواب في الفناء من زفير وشخير وجلبة. فظل مدة طويلة لا يجد الى النوم سبيلاً. وكان القمر يصعد في السماء، وتسلفت أشعته الى المسكن فأضاءته قليلاً. فأبصر في

الركن أكسينيا وشيئاً لم يستطع أن يميّزه: أهو أرمياك ابنه؟ أهو دلو وضعت هنالكَ امرأته؟ أهو شخص قد وقف منتصب القامة؟ المهم أن دولتوف، سواء أكان في تلك اللحظة نائماً أم كان يقظاً، فقد ظل يحدّق الى ذلك الشيء متفرساً متفحصاً. لا شك أن «الروح» الخبيثة المظلمة التي قادت خطى ايلتش الى ذلك العمل الرهيب فدفعته الى الانتحار شفقاً، والتي أحسّ الناس باقترابها تلك الليلة، لا بد أن تبسط جناحيها على القرية، وأن تصل الى مسكن دولتوف الذي يثوي فيه المال الذي استعملته تلك الروح لاهلاك ايلتش. وأحس دولتوف بوجود «الروح» هنا، ف شعر بضيق في صدره. وسواء أكان يقظاً أم كان نائماً، فلقد كان يبصر شيئاً لا يستطيع أن يحدده. وتذكر ايليوشكا مكبل اليدين، وتذكر وجه أكسينيا ودمدماتها، وتذكر ايلتش المتدلي الذراعين. وإنه لذلك إذا هو يترأى له أن شخصاً مرّ أمام النافذة. «من هذا؟ أياكون رئيس القرية؟ ولكن كيف فتح الباب؟» كذلك قال الشيخ لنفسه وهو يسمع وقع خطى في الدهليز. «تُرى هل نسيت العجوز أن تغلق الباب حين ذهبت الى الدهليز؟».

ولقد روى الشيخ بعد تلك الليلة ما حدث له فيها فقال: «لقد نبج الكلب، وظل «هو» يسير في الدهليز كأنه يبحث عن الباب. وتقدم الى أمام يتلمس الجدار واصطدم بالدلو فسقط الدلو فأحدث سقوطه ضجة كبيرة. وعاد يتلمس، كأنه يبحث عن المزلاج الى أن عثر عليه. أحس الشيخ برعدة تسري في جسمه. وشدّ «هو» المزلاج ودخل. دخل في صورة رجل. كان دولتوف يعرف أنه «هو». أراد أن يرسم اشارة الصليب، ولكنه عجز. واقترب «هو» من المائدة، فنزع عنها غطاءها

ورماه الى الارض، وارتقى المدفأة. تعرّف الشيخ فيه ملامح وجه ايلتش. وصرّ «هو» بأسنانه، وحرك ذراعيه، ووثب هاجماً على الشيخ ليخنقه. قال ايلتش:

- مالي!

- اتركني، ولن آخذه!

كذلك أراد العجوز أن يقول، ولكن لسانه لم يستطع أن يتحرك، فما قال شيئاً.

كان ايلتش يتكئ على صدره كأنه جبل من صخر فيخنقه خنقاً. وكان دولتوف يعلم أنه لو نطق بدعاء لثمّ له الخلاص، وكان يعرف الدعاء الذي يجب عليه أن يتلوه، ولكن لسانه عاجز عن النطق. وكان حفيده ينام الى جانبه. وصرخ الطفل صرخة خادة وطفق يبكي، فقد كان الجدّ يضغطه على الحائط. ولكن صرخة الطفل حلت عقدة لسان الشيخ، فقال يتلو دعاءه: «ألا فليبعث يسوع المسيح». فخفت وطأة الثقل التي كان يجثم بها الآخر على صدره. وأردف يكمل الدعاء قائلاً: «وليتفرق شمل أعدائه...» فتزل «الرجل» عن المدفأة. وسمع دولتوف قدمين تخبطان الأرض خبطاً. وجعل دولتوف يتلو جميع الأدعية والصلوات التي يعرفها. اتجه «الرجل» الى الباب، ودفع المائدة دفعة قوية، وضرب الباب ضربة بلغت من العنف أن البيت كله اهتز لها اهتزازاً شديداً. وكان الجميع في تلك الأثناء نائمين، إلا الجد والحفيد. وكان الجد يتلو صلواته مرتعداً بجسمه كله. وكان الحفيد وهو ينام، ويلتصق بجده ويشد نفسه إليه. وعاد كل شيء الى الهدوء والسكينة. كان الجد مستلقياً على ظهره بلا حراك. وصدح الديك وراء الباب

فكانه يصدق في أذن دولتوف، وسمع دولتوف قوقاة الدجاج. وكان الديك الصغير يحاول أن يصدق بعد الديك الصغير، فلا يستطيع ذلك. وتحرك شيء بين ساقَي الشيخ. انها القطة. ووثبت القطة عن المدفأة، فقرعت الارض بقدميها الرخصتين، ومضت تموء بقرب الباب. نهض الشيخ وفتح النافذة. كان شارع القرية مظلماً موحلاً. وخرج دولتوف الى حوش الخيل حافي القدمين وهو يرسم اشارة الصليب. وشعرت الخيل أن مولاها أقبل. فاذا الفرس قد اشتبكت قوائمها بالجمتها، وانقلب زادها على الارض، فرفعت رجليها واتجهت ببصرها الى مولاها. وكان المهر مستلقياً على الزبل، فأنهضه دولتوف، ثم عمد الى الفرس فخلّصها من مأزقها، وأمدّها بطعام، وعاد الى البيت.

كانت العجوز قد قامت وأخذت تضرم نار الموقد. فقال لها زوجها: «أيقظي الأولاد. فساذهب الى المدينة». ثم أشعل الاثنان شمعة الأيقونة ونزل كلاهما الى القبو.

وحين خرج كانت النيران قد اشتعلت لا في بيت دلتوف وحده، بل في بيوت الجيران كافة. وقد استيقظ الأولاد وأخذوا يتأهبون. والنساء يدخلن ويخرجن حاملات دلاء ماء وسطول لبن. وقرن أجناتي الحصان الى العربة. وأخذ الابن الثاني يشحّم عربة أخرى. وقد كَفَّت المرأة الشابة عن العويل، وأخذت تعنى بهندامها، فغطت رأسها بخمار، وجلست على دكةٍ تنتظر ساعة الذهاب الى المدينة لتودّع زوجها.

كانت هيئة الشيخ قاسية قسوة شديدة. وقد ارتدى قفطانه الجديد، وشدّ خصره بحزامه، وذهب الى ايجور ميخائيلوفتش حاملاً في كيسه كل أموال ايلتش. وصاح يقول لاغناتي الذي كان يضع العجلات على

المحور بعد أن شحّمه ورفعهُ:

- أسرع مزيداً من الإسراع. سأرجع حالاً. فليكن كل شيء معداً مهياً.

كان الوكيل، ايجور ميخائيلوفتش، قد استيقظ من نومه، فهو الآن يشرب الشاي ويتأهب للذهاب الى المدينة من أجل أن يتولى بنفسه تسجيل المجنّدين. فلما رأى دولتوف قال يسأله:

- ماذا تريد؟

فأجاب دولتوف:

- ايجور ميخائيلوفتش، أريد أن أفتدي الفتى. رحماك! لقد ذكرت لي في الآونة الاخيرة أنك تعرف في المدينة بديلاً. فانصحي. أنا لا أفقه شيئاً.

- أرى أنك فكرت!

- فكرت يا ايجور ميخائيلوفتش. إنني أرثي لحاله، وأتألم له. هو ابن أخي. لا يملك المرء إلا أن يحزن مهما يكن من أمر. يا لهذا المال كم يورث من خطايا وذنوب!

ثم أضاف ضارعاً وهو ينحني انحناء كبيرة:

- رحماك! انصحي!

وكما يحدث دائماً في مثل هذه الحال، لبث ايجور ميخائيلوفتش عاضاً على شفتيه مدة طويلة وهو صامت، حتى إذا فكر ملياً، قام فكتب بطاقتين، وشرح للرجل ما يجب عليه أن يفعله في المدينة.

وحين رجع دولتوف الى بيته، كانت المرأة الشابة قد سارت بها العربية مع أغناتي، وكانت الفرس الصهباء الضخمة مقرونة تنتظر عند

البوابة. فانتزع دولتوف غصناً من شجرة في السياج، وتدثر بمعطفه، وجلس في العربة، وجلد بسوطه الحصان، وأخذ يحث الحصان على الجري حتّى بلغ من الشدة أن الحصان لم يلبث أن غار بطنه من سرعة الجري، وكان دولتوف لا ينظر الى الحصان مخافة أن يرق قلبه له أو أن يأخذه به حنان. كان يقلقه أشدّ القلق أن يتصوّر وصوله متأخراً بعد فوات التجنيد. كان يخشى أن يكون ايليا قد تمّ تجنيده وانتهى الأمر، فيبقى المال المنحوس بين يديه لا يعرف ما هو صانع به.

لن أصف بالتفصيل جميع مساعي دولتوف في ذلك الصباح وحسبي أن أقول إنه أوتي حظاً مواتياً. ان المالك الذي كتب إليه إيجور ميخائيلوفتش بطاقة يوصيه فيها بدولتوف، عنده بديل مهياً، مدين بثلاثة وعشرين روبلاً، حامل جميع الأوراق الرسمية اللازمة لقبوله في مكتب التجنيد. وكان المالك يريد أن يقبض أربعمئة روبل ثمناً للتخلي عن الشاب، ولكن المشتري، وهو بورجوازي صغير ما برح يساوم منذ ثلاثة أسابيع، قد عرض على المالك ثلاثمئة روبل، وأصرّ عليها لا يريد أن يزيد لها. فلما جاء دولتوف أتم الصفقة بكلمتين: قال للمالك وهو يمد اليه يده: «ثلاثمئة وخمسة وعشرون، موافق؟». ولكن هيئته كانت تدل على أنه مستعد للزيادة. فسحب المالك يده وأصرّ على طلب أربعمئة روبل. فقال دولتوف وهو يمسك بيسراه يمنى المالك ويهم أن يضربها: تكفيك خمسة وعشرون!»، فقال المالك «لا». فاذا بدلتوف يقول فجأة وهو يضرب يد المالك ويهترّ بجسمه كله: «فخذ إذاً خمسين! ليكن لك ثلاثمئة وخمسون! هيّا هيّا الإيصال، واثت بالفتى. والآن إليك العربون: هل تكفي ورقتان حمراوان؟

ونزع دولتوف حزامه، واستلّ المال.

لم يسحب المالك يده، ولكن لم يبد عليه مع ذلك أنه موافق كل الموافقة، وظل يساوم في أمر «البقشيش» الذي يجب أن يناله البديل، وفي أمر المبلغ الذي لا بد من انفاقه عليه. ولم يتناول العربون.

قال له دولتوف وهو يدرس له المال:

- لا تأثم.

وأضاف بلهجة رقيقة عذبة مقنعة:

- كلنا الى الموت صائرون.

فلم يسع المالك أن قال موافقاً:

- طيب.

وضرب على يده مرة أخرى، وأخذ يدعو قائلاً: «كان الله معنا».

وأوقف البديل الذي كان نائماً منذ سكرة الأمس، فلم يدرك إدراكاً واضحاً لماذا أخذوا يفحصونه. وذهب الجميع الى مكتب التجنيد. كان البديل مرحاً وطلب أن يُسقى قليلاً من شراب الروم ليسترده صحوه ونشاطه. ونفحه دولتوف بشيء من المال. ولم يشعر بشيء من الخوف إلا حين دخل مقر الإدارة العسكرية. وقد مكثوا في غرفة الانتظار مدة طويلة واقفين، فكان المالك الشيخ الذي يرتدي قفطاناً أزرق، والبديل الشاب الذي يتدثر بفروة قصيرة، وقد ارتفع حاجباه وحملت عيناه، يتهامسان كثيراً، ويطلبان إدخالهما الى حجرة من الحجرات، ويبحثان عن شخص من الأشخاص، ويتزعان طاقتيهما تحية لأصغر كاتب من الكتاب في كل لحظة، ويصغيان بانتباه شديد الى رأي أبداء سكرتير يعرفه المالك.

ويشعروا من إنجاز الأمر في ذلك اليوم نفسه ياساً تاماً، وأخذ البديل يزداد شعوره بالمرح وإحساسه بالحرية. وبينما هم كذلك إذا بدولتوف يبصر إيجور ميخائيلوفتش، فسرعان ما أقبل عليه يحييه ويتشبهت به. فاستطاع إيجور ميخائيلوفتش بحسن الحيلة وسداد التدبير أن يفرغ من الأمر كله في غضون ثلاث ساعات، فما كان أشد الدهشة التي شعر بها البديل، وما كان أشد الضجر الذي أحسه، حين رأى نفسه يُقتاد إلى المكتب بين فرح الجميع، من الحارس إلى الرئيس، فتخلع ثيابه، ويُحلق شعره ويُلبس ثياباً أخرى، ويؤمر بالخروج إلى ما وراء الباب. وما هي إلا دقائق خمس، حتى كان دولتوف يدفع المال، ويأخذ الإيصال، ثم يودّع المالك والبديل، ويمضي إلى دار التاجر الذي كان يضم مجندي بوكروفسكويّا. كان إيليا وامراته جالسين في ركن من المطبخ في دار التاجر. فما إن دخل عليهما الشيخ حتى أمسكا عن الكلام، وحدقا إليه مذعنين مبغضين. وأخذ دولتوف يدعو الله على عادته، وحلّ حزامه فأخرج ورقة ونادى ابنه الأكبر أغناتي وأم إيليوشكا اللذين كانا في الغناء. وقال يخاطب ابن أخيه وهو يدنو منه:

- لا ترتكب آثاماً يا إيليوشكا. لقد أغلظت لي القول بالأمس،... أنظن أنني لا أشفق عليك ولا أرثي لحالك؟ إنني أتذكر كيف عهد أخوي بك إليّ، وأوصاني بك خيراً. أنظن أنني كنت أقبل تجنيديك لو كنت أملك القوة؟ وما قد رزقني الله ما أدفع به عنك التجنيد فلم أتردد لحظة واحدة. إليك الورقة...

قال له ذلك وهو يضع الإيصال على المائدة، وما هو يسطه بأصابعه المنحنية التي لن تستقيم أبداً.

كان جميع فلاحى بوكروفسكوي وعمّال التاجر وحتى عدد من الغرباء قد دخلوا فناء الدار، وحزروا الأمر، ولكن أحداً منهم لم يقاطع العجوز في حديثه المهيّب.

- إليك الورقة. لقد دفعت أربعمئة روبل. فلا تلم عمك ولا تأخذ عليه مأخذاً.

كان ايليوشكا قد نهض ولكنه لا يعرف ماذا يقول. كانت شفتاه ترتعشان من شدة الانفعال. واقتربت منه الأم العجوز باكية ناشجة وأرادت أن ترتمي على عنقه، ولكن الشيخ أبعداها بيده في بطاء وصرامة وتابع كلامه فقال:

- قلتَ لي بالأمس كلمة، فكنت كمن يغمد في قلبي خنجرأ. حين حَضَرَت أباك الوفاة أمر بأن تكون لي ابناً. وإذا كنت قد أسأت إليك، فنحن جميعاً نرتكب آثاماً وخطايا، أليس كذلك أيها الأخوة الأرثوذكس؟

قال ذلك موجهأ سؤاله الى الفلاحين المحتشدين حولهم. ثم واصل كلامه قائلاً:

- هذه أمك، وهذه زوجك الشابة، وهذا هو الإيصال. تبأ للمال! سامحوني، أرجوكم!

نطق بهذه الكلمات وهو يرفع حافة قفطانة، ويهوي جاثياً على ركبتيه، ويحيي ايليوشكا وامرأته بانحناء شديد. وحاول الشابان أن يصداه عن ذلك فلم يفلحا. ولم ينهض إلا بعد أن سجد واضعأ جبهته على الارض. ثم انتفض قائماً، وجلس على الدكة.

أخذت أم ايليوشكا وزوجته تبكيان فرحاً. وسرت في الجمهور همهمة استحسان.

قال واحد:

- هذا ما توجه مشيئة الرب.

وقال ثان:

- المال؟ ما قيمة المال؟ لا يُشترى ولد بمال.

وهتف ثالث:

- شيء يفرح القلب. هذا رجل عادل صالح حقاً.

وبقي الفلاحون المجنّدون وخدمهم صامتين لا يقولون شيئاً،

وخرجوا الى الفناء يهدوء من دون أن يحدثوا أية ضجة.

وبعد ساعتين كانت عربتا دولتوف تبرحان ظاهر المدينة. فأما العربية

الأولى التي يجرها حصان أرقش خاسف البطن غارق في عرقه، فكان

يجلس فيها الشيخ وأغناتي، وقد رُميت في قرارتها لفائف بسكويت

وأقراص خبز. وأما العربية الثانية التي لا يقودها أحد فكانت تجلس فيها

المرأة الشابة السعيدة هادئة الروح مع حمايتها الملفعة بخمار. وكانت

المرأة الشابة تحتضن زجاجة صغيرة من خمرة. وكان ايليوشكا جالساً

قبالتها مديراً ظهره للحصان، مصطبغ الوجه بحمرة شديدة، يترجع

على مقعده وهو يقضم خبزاً ويتكلم بغير انقطاع.

كانت أصوات الكلام وقرقعة العجلات على الطرق المبلّطة

وحممحات الخيل تمتزج جميعها صوتاً واحداً فرحاً. وأخذت الخيل

تهز أذيالها وتسارع خبيها على قدر احساسها بأنها تقترب من المنزل

لتأوي الى الاسطبل. فكان الناس، مشاتهم والراكبون، يشخصون

بأبصارهم الى هذه الاسرة السعيدة على غير ارادة منهم.

وفي اللحظة التي خرج فيها آل دولتوف من المدينة، تخطوا طائفة

من المجندين. كان المجندون قد تحلقوا دائرة أمام حانة. وكان أحدهم، بمظهره الغريب الذي يضيفه على الشاب أن يكون شعر رأسه محلوّقاً وأن ترتدّ كسكيتته الرمادية حتى تبلغ منه الرقبة، يعزف على البالالا يكا عزفاً فيه كثير من الحذق والمهارة. وكان شاب ثان يرقص في وسط الدائرة حاسر الرأس ممسكاً بيده زجاجة خمر. وقد نزل أغناتي هناك ليربط عنان الحصان. وأخذ آل دولتوف ينظرون الى الراقص بكثير من الشغف ويصفقون له بكثير من الفرح. وكان يبدو على المجنّد أنه لا يرى أحداً، ولكنه كان يحس بأن الجمهور الذي يعجب به يكبر عدده، فكان ذلك يزيده قوة ورشاقة. كان المجند يرقص رقصاً رائعاً. انه مقطب الحاجبين، أحمر الوجه، ساكن الرأس، جامد الفم على ابتسامة فقدت تعبيرها منذ زمن طويل. وقد صرف كل همه وركز جميع قوى كيانه على أن يضع قدماً بعد أخرى بأقصى سرعة يطبقها، فتارة يكون الكعب هو الذي يسقط على الارض، وتارة تكون أطراف الأصابع هي التي تسقط لا الكعب، وتارة يتوقف على حين فجأة، فيغمز بعينه العازف على البالالا يكا، فيأخذ العازف يرعش أوتار آله كلها بمزيد من السرعة، حتى لينقر بأصابعه صندوقها. وكان المجند يمسك عن الرقص أحياناً، ولكنه لا يبدو عندئذ ساكناً، وانما يبدو راقصاً، ثم اذا هو يستأنف تحركه ببطء هازاً كفيه، ثم يعلو ويهبط على رؤوس الأصابع بغتة، ويندفع راقصاً «برسيادكا». فيضحك الصبية، وتهز النساء رؤوسها، ويتسم الرجال مستحسنين.

وكان ضابط صف عجوز واقفاً بقرب الراقص جامداً لا يتحرك. كان كأنه يقول: «انكم تدهشون وتعجبون، ولكننا نحن نعرف هذا منذ

زمان بعيد». وكان واضحاً أن العازف قد نال منه التعب. فما هي الا لحظة حتى كان ينظر الى ما حوله بغير اكتراث، ويصدر نغماً ناشزاً، ثم اذا هو يضرب صندوق الآلة، فيتوقف الرقص حالاً.

صاح عازف البالالا يكا يقول للراقص وهو يشير له الى دولتوف:

- هيه إيليوشا! هذا هو الذي افتدى بك ابن أخيه!

- أين هو؟ آ... صديقي!

كذلك هتف إيليوشا، المجنّد الذي اشتراه دولتوف، والذي تعبت

ساقاه من الرقص فجلس على الارض ورفع رأسه يشرب قنينة خمر.

وتقدم من العربية وصرخ يقول منادياً صاحب الحانة:

- ميشكا! اليّ بقده! هذه فرحة كبيرة يا صديقي العزيز!

وألقى رأسه الثمل على العربية، وأخذ يسكب خمرأ للرجال والنساء،

فشرب الفلاحون ورفضت النساء أن تشربن.

وقال أليوشا وهو يعانق المرأة العجوز:

- أصدقائي الأحبة! ماذا يمكنني أن أهدي إليكم.

وكان بين الجمهور بائعة حلوى، فدنا إيليوشا من بسطتها، فتناول

كل ما كان عندها من بضاعة وألقاه في العربية، وهو يقول لها:

- لا تخافي! سأدفع الثمن كاملاً. واستل كيسه من جيبه وألقاه الى

صاحب الحانة ميشكا.

كان واقفاً مستنداً الى العربية مغرورق العينين ينظر الى هؤلاء الذين

كانوا جالسين فيها.

وقال يسأل:

- من هي الأم؟ أنت، هه؟ سأعطيها هي أيضاً.

وفكر لحظة ثم دس يده في جيبه فأخرج منه منديلاً جديداً مطوياً،
وسحب المنشفة التي كان يتخذها حزاماً تحت رداءه، وانتزع عن عنقه
وشاحاً أحمر، وجعل من هذه الأشياء كلها كرة واحدة ألقاها على
ركبتي المرأة العجوز قائلاً بصوت لا يزال يزداد خفوتاً:

- خذي! انني أهب لك هذا!

- لماذا؟ شكراً يا بني.

ثم أردفت مخاطبةً دولتوف الذي كان يقترب من عربتها:

- انظر الى هذا الفتى ما أعظم شهامته!

فصمت إيليوشا ثم انحنى رأسه كأنما هو يغفو، وقال:

- من أجلكم أرحل، من أجلكم أهلك. لهذا أهدي اليكم هدايا.

قال واحد في الجمهور:

- أظن أن له أماً هو الآخر. يا للفتى الطيب!.. ما أشقاه! انه يثير

الحزن في القلب!...

فرفع إيليوشا رأسه وقال:

- لي أم وأب. هجرني الجميع.

ثم أضاف وهو يتناول يد أم إيليوشا:

- اسمعي أنت أيتها الام. لقد أهديت اليك هدية. فاسمعيني،

ناشدتك يسوع المسيح. اذهبي الى قرية فودنويا، واسألي هناك

عن العجوز نيكونوفنا. هي أُمي، هل فهمت؟ وقولي لهذه العجوز

نيكونوفنا، التي يقع بيتها في آخر الطريق عند البشر الجديدة، قولي لها

إن إيليوشا... أي ابنها... موسيقي... يعزف!...

قال الفتى هذه الكلمات الأخيرة صارخاً:

ثم عاد يرقص مجمماً، ورمى الى الارض زجاجة الخمر التي كان فيها بقية.

وصعد اغناتي الى العربة وأراد أن يسير. فقالت العجوز وهي تتدثر بمعطفها:

- استودعك الله. كان الله في عونك!

فوقف إيليوشا فجأة وصرخ يقول ملوحاً بقبضتي يديه، مهدداً متوعداً:

- اذهبوا الى الشيطان!

قالت أم ايليوشا مرتاعة وهي ترسم إشارة الصليب:

- آه... رياه!

وضرب اغناتي الحصان بسوطه، فابتعدت العربتان. ولبث إيليوشا، المجنّد، واقفاً في وسط الطريق، شاداً قبضتي يديه، معبراً بوجهه عن غضب شديد، وقد طفق يرمي الفلاحين بشتائم المقدعة صارخاً، وقال أخيراً:

- لماذا وقفتם؟ اذهبوا الى الجحيم أيها الوحوش! لن تفلتوا من يدي يا أوباش!

قال ذلك بصوت متقطع، وسقط ثقيلاً على الأرض.

وبعد قليل كان آل دولتوف قد نأوا فغابت عنهم المدينة، وغاب عنهم منظر المجنّدين. حتى اذا قطعوا خمسة فراسخ والخيول تسير خطواً، نزل اغناتي من العربة التي كان أبوه قد غفا فيها، وذهب الى ايليوشكا.

شرب الاثنان الزجاجة التي جلبت من المدينة. وما هي الا برهة

وجيزة حتى جعل ايليا ينشد أغنية تردد النساء لازمتها، ويحدو أغناتي
الخيال على إيقاعها طرباً جذلاً. وأقبلت عربة البريد مسرعة حتى اذا
صارت في محاذاة العربتين الفرحتين صاح حوذيها يشجع خيله،
ونظر طارفاً بعينه الى الفلاحين والنساء المحمّرة وجوههم، المرنجة
أبدانهم، وهم يغنون مبتهجين أعظم الابتهاج.

Leo Tolstoy



ليو تولستوي

السعادة الزوجية في بوليكوسكا

مكتبة

قال: ما ذهب لا يعود، ولن يعود أبداً.

وقد رُقَّ صوته أثناء نطقه بهذه العبارة.

قلت وأنا أضع يدي على كتفه: بل عاد كل شيء منذ الآن.

فأمسك يدي يشد عليها وقال: الحق أنني أتحسر وأبكي على ذلك الحب الذي زال ولن تدبَّ فيه الحياة ثانية. من المذنب! لا أدري. لا يزال هناك حب، لكنه ليس ذلك الحب الماضي. ولا يزال مكانه باقياً، لكنه ليس الآن إلا ألماً.

من الحديقة كانت أشداء الليل العبة تصاعد إلينا أجمل أرجاء، وكانت أصوات السكون الساجي تصل إلى أسماعنا أشد مهابة، وكانت النجوم تطلع في السماء أوفر عدداً. ونظرت إلى سرجي، فإذا أنا أشعر بتخفف وتروّح، كأن نفسي قد تحررت فجأة من عصب مريض كأن يسبب ألماً شديداً. وأدركت أن الحب الماضي قد ذهب إلى غير رجعة، كالزمان نفسه الذي لا يؤوب إلى وراء، بل أدركت أن عودة ذلك الحب ليست مستحيلة فحسب، بل هي أيضاً مربكة متعبة مؤلمة. حتى لقد تنساءلت: هل كان ذلك العهد الماضي سعيداً حقاً إلى الحد الذي كان يزينة لي خيالي؟ وما أبعد ذلك العهد! ما أبعد!...

ISBN 978-9953-582-98-6



الشويع
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - القاهرة - تونس

موقع الكتروني: www.dar.altamweer.com

9 789953 582986